

مجلة شهرية . العدد المائة وسبعة عشر . السنة العاشرة . اكتوبر ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 117 - October 2008

تعليم المصريين.. إنفاق هائل وعائد هزيل!!!

هيكل

ملف خاص

Mobile Yellow Pages...

معك فى كل مكان





أصبح موقع YellowPages.com.eg
الآن متاحاً على أى هاتف محمول يمكنه
الدخول على الإنترنت...



...فقط أدخل إسم موقع YellowPages.com.eg
فى متصفح موبايلك وابدأ البحث لتجد كل ما تحتاج.



دليلك للأعمال فى مصر
YellowPages.com.eg
TM Print • Online • Mobile

السنة العاشرة
العدد ١١٧
أكتوبر ٢٠٠٨

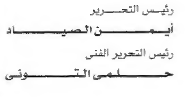
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة



رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد :

كتّاب العدد :

- أحمد درويش... أستاذ بكلية الهندسة جامعة القاهرة.
- إرينا ميا.. كبيرة الاقتصاديين بالمنتدى الاقتصادى العالمى.
- أنطونيو موجيكا.. مؤسس شركة Smartmatic أكبر الشركات التكنولوجية فى أمريكا اللاتينية
- إيريك وتكينز.. أستاذ فلسفة فى جامعة كاليفورنيا بسان دييجو
- أيمن الصياد.. صحفى.
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- حامد عمار.. أستاذ بكلية التربية - جامعة عين شمس - مصر.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- خالد الحروب.. زميل زائر، مركز الدراسات الشرق أوسطية والإسلامية، جامعة كامبردج.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- سومترا دوتا.. عميد كلية التكنولوجيا والتعليم الإلكترونى بمعهد INSED.
- شاءول بخاش.. أستاذ تاريخ بجامعة جورج ميسون.
- شربل داغر.. شاعر وأكاديمى من لبنان.
- عبدالخالق فاروق.. باحث وكاتب.
- عصام تليمة.. باحث فى شئون الحركات الإسلامية.
- فتح الله الشيخ.. أستاذ الكيمياء الفيزيائية بجامعة جنوب الوادى.
- هاوارد جيه دولى.. أستاذ تاريخ بجامعة ويسترن ميشيجان.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى



المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

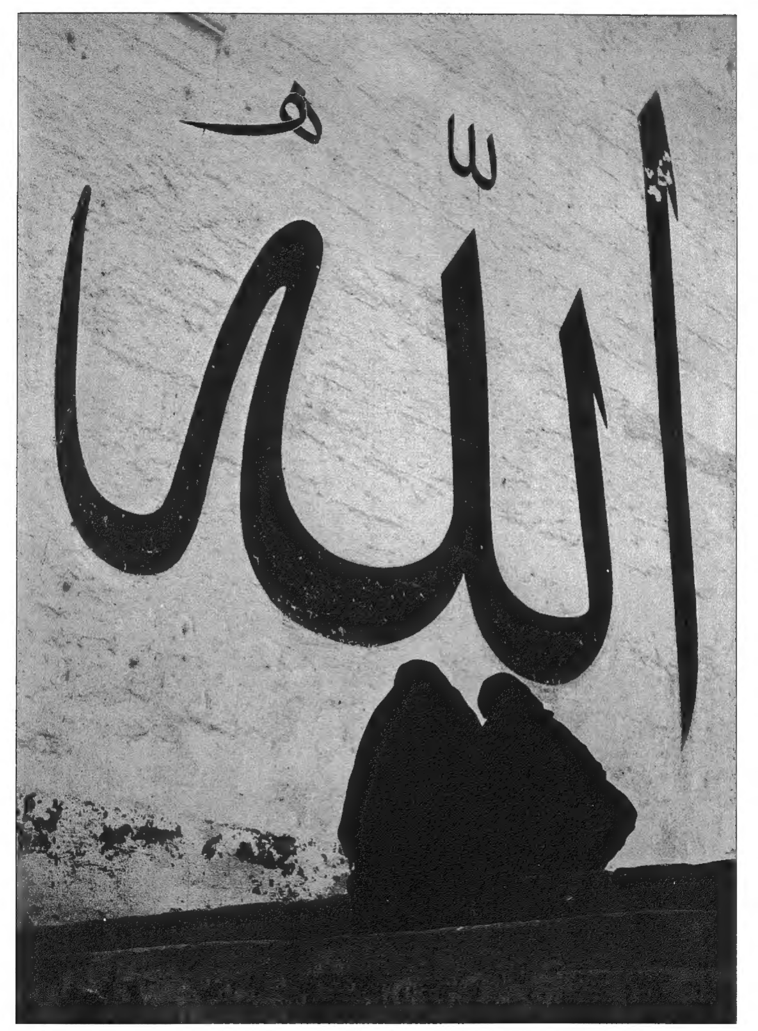
الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة


الله

تجربة الإسلاميين الأتراك تطورت في بعض جوانبها ومتأثرة بالمدرسة الإخوانية

تركيا إسلامية علمانية

خالد الحروب

■ تطرح تجربة الإسلاميين الأتراك تحديا كبيرا على عموم الحركات الإسلامية المعتدلة التي تتبنى نهج التغير السلمي، وخاصة المنتسبة منها لمدرسة حركة الإخوان المسلمين أو تلك المتأثرة بها. تجربة الإسلاميين الأتراك تطورت في بعض جوانبها قريبة ومتأثرة بالمدرسة الإخوانية، خاصة في حقبة سبعينيات القرن الماضي وتحت قيادة نجم الدين أربكان. بيد أن ما تطورت إليه الشرائح الأوسع من تلك الحركة، عبر ثلاثة عقود من المجابهة السياسية مع خصومها، وإعادة الإنتاج الداخلي لفكرها وتجربتها، وانتهائها إلى شكل حزب العدالة والتنمية الحاكم في تركيا الآن، اتخذ مساراً بعيد الصلة عن المسار الذي استمرت عليه الحركات الإخوانية في تعاطيها مع السياسة والتغيير الاجتماعي. وأهم افتراق صار يميز التجربة التركية في تحولاتها الأخيرة عن التجارب الإخوانية يتمثل في التأكيد الراهن على فصل الدين عن الحكم والقبول بعلمنة الممارسة السياسية. انتقل الإسلاميون الأتراك من مرحلة «المدرسة الإخوانية» المهجوسة بفكرة «الدولة الإسلامية» و«تطبيق الشريعة» إلى مرحلة يصفها حزب العدالة والتنمية بـ «الديموقراطية المحافظة» والتي تفصل، من ناحية، المسجد عن السياسة وتحاول، من ناحية ثانية، تأسيس تجربة «اليمين الإسلامي الديموقراطي المحافظ» على غرار تجارب الأحزاب المسيحية الديموقراطية اليمينية المحافظة. وفي كلتا الحالتين تشكل القيم الاجتماعية والعائلية السائدة إطاراً عاماً للبرامج السياسية والاجتماعية التي تتبناها تلك الأحزاب. بمعنى آخر يمكن القول إن هذه «الديموقراطية المحافظة» أو «العلمانية المؤمنة» التي ما زالت في وارد التطوير والتعميق على هامش التجربة التركية لا تتصف بتبني سياسة شرسة ضد القيم الدينية والتقليدية، كما هو الموقف التقليدي للعلمانية التركية المتشددة، وتتخطى موقف التسامح مع تلك القيم والتعايش السلبي معها، كما هو موقف العلمانية المعتدلة، بل تحاول توظيف تلك القيم في مشروعها الاجتماعي والتضامني العام. وهو توظيف ما زال قيد التبلور ذلك أنه يتصف بضبابية (كما سيناقش أدناه) ويحتاج إلى فترة زمنية كي يزداد وضوحاً وبالتالي يمكن الحكم عليه وتحليله بشكل أدق.

نجح إسلاميو حزب العدالة والتنمية في الفوز بالانتخابات والوصول إلى الحكم سنة ٢٠٠٢ وأعادوا تأكيد فوزهم سنة ٢٠٠٧ مبرهنين على تواصل الدعم الشعبي لهم. كما خاضوا معارك قاسية ضد المؤسسة العسكرية العلمانية المتشددة وخرجوا من معظم تلك المعارك ظافرين، وفي يدهم رئاسة الحكومة ورئاسة الدولة معا (طيب رجب أردوغان وعبدالله غل على الترتيب). في المقابل فشلت حركات الإخوان المسلمين العربية في الوصول إلى الحكم والسيطرة عليه بشكل كامل سواء بالانتخابات أو بغيرها. وفيما عدا استثناءين: هما الإسلاميون السودانيون الذي سيطروا على الحكم عبر الانقلاب العسكري سنة ١٩٨٩، والإسلاميون الفلسطينيون الذي فازوا بالانتخابات الفلسطينية سنة ٢٠٠٦، فإن تجربة الإخوان المسلمين في صراعهم للوصول إلى الحكم لا تتميز بالنجاح رغم مرور ثمانين عاماً على تأسيس المنظمة الأم في الإسماعيلية في مصر سنة ١٩٢٨. يسوق الإسلاميون العرب أسبابا عديدة تفسر، وتبرر، ذلك الفشل، وتعزو كثيرا من تلك الأسباب إلى طبيعة خصومهم المحليين والخارجيين والضغط الغربي، وشراسة المعارك التي خيضت ضدهم. بيد أن كل ذلك يقع في دائرة الصراع السياسي الذي يفترض بالبداهة أن أولئك «الخصوم» لن يفرشوا طريق الإسلاميين إلى الحكم بالورود. وبالتالي فإن تلك الأعذار ليس مكانها السياسة والتسيس.

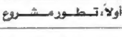
لكن المهم هنا، والذي يشكل جانبا أساسيا من النقاش في هذه المقاربة، هو السؤال عما إن كان جمود الفكر السياسي عند الإخوان المسلمين وعدم تطويرهم لتجربة فكرية وسياسية تتسم بمرونة تستوعب معطيات الأوضاع المتغيرة بوتائر سريعة وتحرج قدرة خصومهم على محاصرتهم هو السبب الجوهري في فشلهم للوصول إلى الحكم. أم أن اشتراطات السياق التاريخي والمحلي فرضت عليهم سيرورة خاصة جعلت علاقتهم مع العلمنة السياسية سطحية وليست بالعمق الذي تطورت فيه التجربة التركية. ويترتب على ذلك التساؤل إن كانت قراءة التجربة التركية ونجاحها النسبي والظرفي مقارنة بالتجربة الإخوانية يستلزم إعادة إنتاج «المدرسة الإخوانية» بحيث تتخفف من وطأة البرنامج التقليدي المتشبث بفكرة «الدولة الإسلامية وتطبيق الشريعة». وبشكل آخر يمكن صوغ الإشكالية على شكل السؤال التالي: لماذا لم يتعلمن التيار الإسلامي العربي بطرق مشابهة للسياق التركي. وهل كان بإمكانه أن يتطور أصلا وفق ذلك السياق، أم أن السؤال برمته مفتعل وفرضيته الأساسية خاطئة إذ تتم المقارنة بين سياقات مختلفة كلياً ونواتجها بالتالي ستكون متفارقة تعريفا؟

المقاربة التالية تحاول الإجابة عن بعض تلك الأسئلة من خلال التأمل المقارني لتجربة الإسلاميين الأتراك بنظرائهم العرب، وهي مقسمة إلى أربعة أقسام: الأول يلخص تطور ونجاح حزب العدالة والتنمية عبر استعراض سريع للمراحل التاريخية التي مر بها، والثاني مناقشة للنظرة الإسلامية التقليدية للمسألة العلمانية وهي النظرة التي تأسس عليها تفكير وتنظير الحركات الإسلامية الإخوانية والقريبة منها لموضوعة السياسة والدين، والثالث تحليل للتطور التاريخي لتجربة الإسلاميين الأتراك وصراعها وتفاعلها مع السياسة المعلمنة التي تطورت تحت سقفها وانتقالها من مرحلة لأخرى في ضوء ضغط العوامل المحلية والخارجية، والرابع مقارنة مباشرة بين التجربة الحركية الإسلامية التركية ونظيرتها العربية.

لكن قبل الانتقال إلى هذه الأقسام يجب التوكيد على عدة نقاط أولية منهجية. أولها أن هذه المقاربة غير مكتملة ولا تزعم تقديم قراءة شاملة لمشروع الحركة الإسلامية التركية، إنما تأمل أن تقدم بعض الرؤى في سياق مقارنة سيرورة تلك الحركة مع نظيراتها من الحركات الإسلامية العربية. ثانيها أن كلا من التجربتين لا تزال برسم التغير والتأثر والتأثير، بمعنى أن ليس ثمة فرضية هنا بأن أيا منهما، وخاصة التركية، قد وصلت إلى شكل تام من التعريف الذاتي أو صياغة طبيعة العلاقة مع الأطراف المحلية والخارجية بشكل واضح، أو أن رؤيتها الأيديولوجية ومشروعها السياسي صار قيد الاكتمال. ثالثها هو أن

للاستزادة: انظر النص الكامل ضمن كتاب يصدر قريبا عن معهد أبو لغد للدراسات الدولية - جامعة بير زيت - فلسطين

كل تجربة سياسية واجتماعية معينة محكومة بسياقها التاريخي والمؤثرات الخاصة بتكوينها وتوجيه مساراتها، وهذا ينطبق بالتأكيد على التجربتين العربية والتركية هنا، لذا فليس ثمة محاولة قسرية لخلق تشابه أو افتراق مصطنع بقدر ما هي محاولة لتأمل العوامل المؤثرة في تشكيل طبيعة كل تجربة. مع ذلك فإن هناك مشتركات كبرى بين التجربتين هي التي تخضع هنا لمجال المقارنة والتحليل وأهمها الموقف من العلمنة السياسية وفصل الدين عن الدولة. والرابع هو التأكيد على أن الهدف ربما الأهم من هذه القراءة هو الإسهام في إثارة النقاش المطلوب حول جدل العلمانية والحركة الإسلامية العربية في ضوء التجربة الطويلة والغنية للإسلاميين الأتراك، من دون الادعاء بتقديم نتائج حاسمة أو خلاصات يقينية.



أولاً: تطور مشروع حزب العدالة والتنمية

من المفيد في البداية رسم صورة موجزة عن الحالة «الإسلامية» الراهنة في تركيا وكيف تطورت عبر العقود الأخيرة، إلى أن وصلت إلى شكلها الأخير في «حزب العدالة والتنمية»، الحزب الحاكم في تركيا اليوم. وقد تكون هذا الحزب عملياً قبيل انتخابات عام ٢٠٠٢ على شكل تحالف بين شرائح التيار الإسلامي الحركي التركي وتشكيلاته المتنوعة والمتلاحقة والمحظورة ومجموعات وشرائح من أحزاب الوسط التركي التي كانت هي الأخرى تمر بمراحل من التغيرات والتحولات والانشقاقات بالاتجاهات المختلفة. الإرث الحركي الإسلامي الذي انتهت امتداداته الكثيرة إلى بنية حزب العدالة والتنمية يعود بعضها إلى حركة الرؤية القومية التي تأسست في الستينيات من القرن الماضي على يد نجم الدين أربكان من قبل مجموعات إسلامية رداً على الانقلاب العسكري عام ١٩٦٠. ثم تطورت تلك الحركة لتصبح حزب النظام الوطني عام ١٩٧٠ ثم حزب السلامة عام ١٩٧٢، متحولة إلى حزب الرفاه عام ١٩٨٣ الذي ظلت شعبيته وقوته تتعاظم إلى أن فاز بأكبر عدد من المقاعد النيابية في انتخابات سنة ١٩٩٥ وشكل بالتالي حكومة ائتلافية برئاسة أربكان نفسه.

لكن حكومة أربكان آنذاك ترجمت رؤيتها الخاصة ورفعت شعار «التوجه شرقاً»، أي نحو العالم الإسلامي، وطرحت فكرة «السوق الإسلامية» على الضد من «السوق الأوروبية»، وبردت علاقاتها مع الحلف الأطلسي الذي تنتمي إليه تركيا وداومت على نقد أوروبا والغرب عموماً، كما لم تتردد في الإعلان عن طموحات إسلامية داخلية وخارجية. قادت تلك السياسة إلى تهميش وإخافة شرائح علمانية واسعة ومؤثرة في الدولة التركية، ودفعت المؤسسة العسكرية والمحكمة الدستورية للاتفاق على إسقاط الحكومة بكونها تشكل تهديداً للأسس العلمانية للدولة، ثم قررت حل حزب الرفاه نفسه. بعد ذلك تشكل حزب الفضيلة الذي سرعان ما تم حظره أيضاً لنفس الأسباب عام ٢٠٠١. وهكذا فإن بقايا الحقب المتلاحقة للحركية الإسلامية أعادت تشكيل نفسها بعد التجارب المريرة السابقة وشكلت مع القوى الأخرى حزب العدالة والتنمية.

لكن إضافة إلى تلك الكتلة الأساسية، الإسلاميون السابقون ومن ضمنهم طيب رجب أردوغان رئيس الوزراء الحالي وعبدالله غل الرئيس التركي الحالي، فإن هناك قوى أخرى انضوت في التحالف الفضفاض الذي صار يعرف باسم «حزب العدالة والتنمية». وأهم هذه القوى هي تشكيلات وأعضاء وبرلمانيو أحزاب يمين الوسط مثل حزب الوطن الأم وحزب الطريق القويم، وكذلك شرائح من التكنوقراط وخريجي الجامعات والبيروقراطيين والمهنيين الذين عملوا في البلديات التي سيطر عليها الإسلاميون في مراحل سابقة، إضافة إلى البرجوازية الوسطى والصغيرة سواء في استانبول والمدن الكبرى أو في الأناضول حيث القاعدة الأساسية للإسلاميين. وقد رأت شرائح البرجوازية الوسطى ورجال الأعمال الأناضوليين في التحالف الجديد فرصة لتغيير موازين القوى لصالحها بعد السيطرة طويلة الأمد للنخب المدينية المتغربة في استانبول والتي كانت هي المستفيدة الدائمة من فرص الاقتصاد والنفوذ في الدولة، وخاصة أن الدولة التركية الحديثة عمدت إلى تقوية اقتصادات المدن الكبرى والشرائح الاقتصادية الفاعلة فيها وحولها على حساب الريف والأناضول.[1]

من ناحية سياسية وأيديولوجية لا يُعرِّف حزب العدالة والتنمية عن نفسه بأنه حزب إسلامي، بل يبتعد عن كل ما قد يُفهم منه أن للحزب برنامجاً إسلامياً، ولا تُظهر أدبياته ومانفستو الحزب أية إشارة دينية، بل على العكس من ذلك هناك توكيد على نوع من «العلمانية المؤمنة»، غير الصارخة، عن طريق رفع شعار «الديموقراطية المحافظة». والمقصود بتعبير «العلمانية المؤمنة»، والذي لا يستخدمه الحزب، هو محاولة الجمع بين الأسس العلمانية للدولة ومجموعة من القيم الاجتماعية والثقافية والسياسية التي يجملها مانفستو الحزب تحت شعار «الديموقراطية المحافظة»، على غرار «الديموقراطية المسيحية» في بعض البلدان الأوروبية. لكن هذه «الديموقراطية المحافظة» هي حل وسطي فضفاض للهروب من الاتصاف بـ «الإسلامية»، ولإيجاد هوية خارجية للحزب يسهل تداولها وتسويقها عند الآخرين. وهي، أي «الديموقراطية المحافظة»، تتعرض لنقد وتحليل وتشكيك من قبل خصوم الحزب بكونها تخفي وراءها أجندة سياسية إسلامية.

اتخذت التجربة التركية بعد ذلك مسارا بعيد الصلة عن الممارسات الإخوانية

لكن الشيء الأهم في البرنامج السياسي لحزب العدالة والتنمية الآن هو تحويله للتيار الإسلامي العام من مسار سياسات الهوية، إلى «سياسات الخدمات»، بمعنى أنه فكك تقييد البرامج الإسلامية السابقة وغرقها في مسائل الهوية والثقافة ونقلها إلى مسائل السياسة الاجتماعية والخدماتية والاقتصادية. ويمكن القول إن هذا هو المفصل التاريخي والأيديولوجي الأهم خلال الخمسين سنة الماضية في الفكر السياسي للإسلاميين الأتراك. وقد أتاح هذا الانتقال من الانشغال والانغماس بقضايا الهوية إلى الانخراط في قضايا الخدمات، جذب شرائح واسعة من الأنصار الجدد الذين صاروا يرون في الحزب جهة تستطيع تغيير الأمور نحو الأفضل.[2]

وفي السياق الأعم من المهم الإشارة هنا إلى أن اعتراف الحزب بالتكوين والوجهة العلمانية للدولة التركية لا مواربة فيه، كما يفصل البرنامج السياسي المطول للحزب. فهنا تقول مقدمة البرنامج السياسي (والمنشور في الموقع الرسمي للحزب على شبكة الإنترنت): «إن حزبنا يشكل الأرضية لوحدة وتكامل الجمهورية التركية حيث العلمانية والديموقراطية ودولة القانون وصيرورات الحضارة والدمقرطة، وحرية الاعتقاد، والمساواة في الفرص تُعتبر جوهرية». ثم تفاخر المقدمة بإنجازات الدولة التركية وتقتبس عن مؤسسها مصطفى كمال أتاتورك (الذي تظهر صورته جلية مع العلم التركي على الصفحة الأولى للموقع الإلكتروني الرسمي للحزب) وتقول: «إن جمهوريتنا ليست عاجزة. والحل يكمن في الشعب نفسه. وكما قال العظيم أتاتورك إن القدرة في إنقاذ الأمة تكمن في عزمها وتصميمها».[3]

وبرغم هذا الموقف الرسمي الواضح فإن قضية التشكيك في الوجهة الحقيقية للحزب وفيما إن كان يخفي أجندة غير معلنة تهدف إلى أسلمة المجتمع التركي تبقى واحدة من أهم القضايا التي تُثار من قبل خصومه، وتظل قضية مفتوحة برسم النقاش. لكن يُمكن أن يُقال هنا أن الطبيعة التكوينية التحالفية للحزب واتساعه وانفتاحه على الشرائح المختلفة يضعف من مقولة وجود أجندة «سرية» متوافق عليها. كما أنه وبفرض وجود تلك الأجندة فإن البرنامج التطبيقي للحزب يخلق مناخاً غير موات للإتيان بها في المستقبل وتطبيقها، لأن السيرورة التي أحدثها

«العدالة والتنمية» في السنوات الماضية علمنت شرائح واسعة من منسوبي ومؤيدي الحزب وجلبت شرائح علمانية أصلا لتأييده منجذبة إلى برنامجه «غير المؤدلج إسلامياً». لذا فإن أي عودة عن البرنامج المعلن الحالي، إلى برنامج سري مفترض، معناه انفضاض دوائر التأييد الإضافية القادمة من مربعات غير إسلامية، ومعناه أيضاً انقضاض المؤسسة العسكرية على الحزب وإنجازاته وحله آلياً. والنقطة الثانية المهمة في هذا الجدل هي القول بأنه لربما مرت الحركة الإسلامية التركية في مراحل طويلة اضطرت فيها لتبني تكتيك مجاملة المؤسسة العلمانية في الدولة وعدم مجابهتها حتى تتمكن من الاشتغال سياسياً وبصورة شرعية، ولربما أيضاً لحماية «الأجندة الإسلامية» وترحيلها للمستقبل. ومن الممكن أن تكون قد تخففت من الشعار الإسلامي في هذه المرحلة أو تلك متبنية سياسة الانحناء للعاصفة العلمانية طويلة الأمد في تركيا. لكن ما يبدو الآن هو أن ذلك التكتيك قد تحول في جزئه الأهم، إن بوعي وإدراك أو نتيجة لتكرس الممارسة العملية، إلى إستراتيجية تصدر عن قناعة أكثر مما تصدر عن مناورة وتفاد لضغط المؤسسة العلمانية والعسكرية. وهنا يمكن القول بقدر لا بأس به من الثقة إن أجيالا من الإسلاميين السابقين الذي مارسوا تكتيك «التعلمن الظاهري» قد تبنوا الآن «تعلمناً حقيقياً» مع طول التجربة والتأمل ورصد التجربة الإسلامية، خاصة في طبعتها «الأربكانية»، وهي تصطدم في الجدار وتواجه المأزق تلو المأزق.

ثانياً: الإسلاميون العرب والمسألة العلمانية - مركزية السياق

هناك أطروحات عديدة حاولت فهم علاقة المجتمعات العربية والإسلامية الحديثة بالعلمانية، في سياق محاولات فهم التطور التاريخي للمجتمعات البشرية المعاصرة مع مشروع الحداثة والتحديث ومع العلمانية. من هذه الأطروحات ما اعتبر أن مصير الدين في التاريخ والاجتماع البشري متجه نحو الأفول، وأن ما حدث في التجربة الغربية من إزاحة للدين عن الفضاء السياسي والاجتماعي وحلول العلمانية هو صيرورة إنسانية وعالمية وليست محصورة بالتجربة الغربية، وأن انتقال المجتمعات من «الطور التقليدي (والديني)» إلى «الطور العلماني الحداثوي» هو عملية مستمرة وتصاعدية وشبه حتمية.[٤]

غير أن صعود الإسلام السياسي في المنطقة العربية ثم في مناطق أخرى من العالم مثل تحدياً لأطروحة «العلمنة»، ثم أضيف إلى ذلك التحدي بروز الأصولية الدينية ليس فقط الإسلامية بل وأيضا المسيحية واليهودية والهندوسية وغيرها، مشيراً إلى حالة من «الردة» عن التعلمن المتواصل إلى حقبة من «التدين» واستدعاء الدين إلى الفضاء الاجتماعي والسياسي العام. لكن هذا الصعود لـ «الديني» على حساب «العلماني» وانتشار الحركات الدينية نُظر له من بعض زوايا التحليل التاريخي على أنه مجرد الحشرجة ولفظ الأنفاس الأخيرة، وربما الطويلة، للدين في العالم، أو هي «صحوة الموت».[٥]

من زاوية الإسلاميين أنفسهم فإن النظرة العلمانية، وعلى مدار عقود طويلة ماضية، اتسمت بالسلبية التامة والعداء شبه المطلق. العلمانية في تعقل الإسلاميين معناها فصل الدين عن الدولة، وفتح الباب لكل ما هو غير إسلامي وغير ديني كي يتمدد في المجتمع على حساب الدين. والعلمانية بحسب التحليل الإسلامي الحركي هي حركة طارئة على المجتمعات العربية والإسلامية ولن تلبث أن تزول. لذلك فإن فكرة «العلمنة المتواصلة» مرفوضة من وجهة نظر دينية وتاريخية. بروز العلمانية واكتسابها لمساحات جديدة يعني، بالنسبة للإسلاميين، أفول الدين وخسارته لتلك المساحات. معظم ما تنادي به العلمانية، حسب ما يراه الإسلاميون، ينادي بعكسه الدين، ولذلك فالخصومة هي ناظم العلاقة، نظرياً وواقعياً. العلمانية لا تقبل خلط الدين بالدولة، بينما رؤية الإسلاميين للإسلام هي أنه «دين ودولة». والعلمانية (الحداثوية الليبرالية على الأقل) تعزز الفردانية وتقدس الحريات، فيما الإسلام، وكل الأديان، تعزز فكر الجماعة وتضبط الحريات وفق الحدود الدينية. العلمانية هي نزع للمقدس عن الطبيعة والكون وبالتالي عن الاجتماع البشري، الدين هو إضفاء للمقدس على ذلك كله وأزيد.



صعود الإسلام السياسي في المنطقة العربية ثم في مناطق أخرى من العالم مثل تحدياً لأطروحة «العلمنة»

ثالثاً: الإسلاميون الأتراك والمسألة العلمانية - مركزية السياق

شكل المشروع الكمالي الإطار التأسيسي للمسألة العلمانية في تركيا الحديثة. فبحسب «الكمالية»، ومنذ سنة ١٩٢٣ اعتبرت العلمانية هي المسار السياسي الناهض الذي يقطع مع الدين وينهي النمط التقليدي السياسي والاجتماعي الذي وسم الدولة العثمانية في حقبة ترهلها وسقوطها. ومنذ لحظة التبني لم تمثل العلمانية بالنسبة للنخبة التركية التي قادها وشكلها مصطفى كمال أتاتورك مشروعاً لتبعية الغرب سياسياً، بل لتقليده بهدف منافسته ومجاراته في قوته ونجاحه. ولئن كان رصيد «الكمالية»، بعد أزيد من تسعة عقود على تأسيسها خليطاً من النجاح والفشل فإن أحد أوجه النجاح الذي رآه في نفسها يكمن في فصلها بين التغريب والعلمنة على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي والتبعية التحالفية مع القوى الغربية. فكما هو معروف كانت بوصلة قيام المشروع الكمالي إنقاذ تركيا من خطر التقسيم والتآكل تحت وطأة التوسع الإمبريالي الأوروبي عشية انهيار الدولة العثمانية. بمعنى آخر فإن المشروع الكمالي كان مضاداً للتوسع الغربي وكانت نظرة النخبة التركية المؤسسة للدولة الحديثة إزاء الغرب وأوروبا تحديداً، بما فيها نظرة أتاتورك نفسه، نظرة مركبة، غير أحادية، إن لم تكن متناقضة داخلياً. كان أتاتورك يقظاً ورافضاً للهيمنة الإمبريالية الغربية، لكنه في الآن ذاته كان مندفعاً بلا هوادة لتبني المشروع الغربي الحداثي العلماني. وحتى في مراحل لاحقة، أي في عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، عندما صارت تركيا ركناً في التحالف الغربي الإستراتيجي ضد الاتحاد السوفيتي خلال الحرب الباردة، فإن التوجه التركي كان يُنظر له على أنه صادر عن وعي واستقلالية تخدم المصلحة القومية التركية (مثلاً ضد المد الشيوعي واليساري الذي وجد فيه أكراد تركيا حليفاً لهم ضد الدولة). وهكذا فقد كان أن عملت الأتاتوركية على تخليق قومية تركية حديثة، لا تخلو من التهجين إذ ركزت على التتريك واللغة، وبعث الفولكلور التركي، مع تفادي الدين كلية، رغم سطوته البالغة على الثقافة الشعبية التقليدية.[٦] ومن هنا يمكن القول إن العلمانية والحداثة السياسية كانت بالنسبة للنخبة المؤسسة والحاكمة قارب نجاة تركيا إلى ما بعد عصر الامبراطورية المنهارة.

لا يعني ذلك أن خيار العلمنة وآلياتها المتبناة كانت مقبولة من قبل عموم الشرائح التركية، بل إن العكس هو الصحيح. فمشروع العلمنة والحداثة كان فوقياً مفروضاً من قبل النخبة الحاكمة وعلى تضاد مع الثقافة التقليدية السائدة. لكن «فوقية» المشروع لم تعن أيضاً عدم مغازلة الإسلام وتوظيفه في مراحل متعددة. ففي لحظة التأسيس وخلال حرب الاستقلال (١٩١٩-١٩٢٢) لم تتصادم الكمالية تماماً مع الحركة الصوفية النقشبندية الواسعة الانتشار، بل كان ثمة تصالح ملحوظ خاصة على خلفية «حرب الاستقلال» وإنقاذ تركيا من مصير مجهول. وقد كان الشيخ سعيد النورسي أكبر رموز تلك الحركة منضوياً في الحركة الكمالية آنذاك وصار عضواً في «الجمعية القومية الكبرى» بناء على طلب أتاتورك، رغم خلافه معه حول مسائل جوهرية أهمها تحييد الإسلام من الهوية التركية. لكن تلك الخلافات اشتدت واستقال النورسي من الجمعية القومية

وانتقل إلى الأناضول مسقط رأسه. بيد أنه، في نفس الوقت، ورغم كونه كردياً لم يتعاطف مع مطالب الأكراد بالانفصال وثورتهم عام ١٩٢٥ وكان مؤمناً بضرورة الوحدة التركية.

من المهم الإشارة أيضاً إلى أن البعد الاقتصادي كان له أثر كبير في تشكيل المشروع الإسلاموي الحركي التركي بطرق لا تتشابه مع نظيره العربي. فالدولة الكمالية المركزية شرعت في بناء اقتصاديات قائمة على المدن الكبرى، استانبول وأنقرة، معتمدة على النخب العلمنة والمخلصة للمشروع الكمالي. وفي غمرة حرصها على مركزة الإدارة الاقتصادية أهملت الريف التركي وخاصة الأناضول حيث القاعدة النقشبندية الواسعة والفقيرة بشكل عام. وأنتج ذلك الحرمان التفافات اجتماعية حول مراكز التدين الصوفي وما تطور عنها من بنى محلية وولائية. وقد وفر ذلك الافتراق في الحصول على الفرص الاقتصادية قاعدة لبروز برنامج سياسي واجتماعي قائم على المطالبة بالمساواة وتوزيع الثروات، تنامى لاحقاً ليحتل قلب الطروحات التي يتبناها الإسلاميون، خاصة بعد عام ١٩٤٥ وتحول تركيا إلى نظام التعددية الحزبية وانتهاء فترة الحزب الكمالي الحاكم وقبضته الصارمة على الفضاء السياسي. لكن ظل الريف والفلاحون الأتراك في غربة حقيقية عن مشروع الدولة. وكان أن نزعت الحكومات التركية المتعاقبة خلال الخمسينيات والستينيات إلى تشجيع الفلاحين على الهجرة إلى أوروبا (ألمانيا وهولندا تحديداً) التي كانت بحاجة ماسة إلى العمالة الرخيصة في مرحلة إعادة البناء بعد الحرب العالمية الثانية. وقد خدمت الهجرات الواسعة تلك هدفين في آن معاً: التخلص من احتمالات التمرد ضد الدولة عبر تحسين ظروف أولئك الفلاحين عن طريق الهجرة، وفي نفس الوقت حقن الاقتصاد التركي بالتحويلات المالية المتزايدة القادمة من تلك العمالة المهاجرة. لكن بحلول السبعينيات والانغلاق التدريجي لنافذة الهجرة لأوروبا تفاقمت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية لدى تلك الشرائح، وهي الضغوط التي التقطها نجم الدين أربكان ووظفها في برامج حزبيه «السلامة» ثم «الرفاه» على التوالي. وأصبح المطلب الاجتماعي وتحسين ظروف الطبقات الفقيرة والوسطى عماد البرامج السياسية الإسلامية، وهي البرامج التي انتقلت إلى مراحل متقدمة مطالبة باللبرلة والانفتاح الاقتصادي. كما أدى إقفال باب هجرة العمالة الريفية إلى أوروبا إلى هجرة ريفية نحو المدن الكبرى. وهناك تم احتضانها من قبل الحركة الإسلامية، حيث شكلت تلك العمالة الريفية المهاجرة أهم القواعد المدينية للحركة الإسلامية في وقت لاحق، إضافة إلى



يمكننا الآن أن نعيد تأمل التجربتين التركية والعربية من منظور مقارن راصدين أوجه التشابه وأوجه الاختلاف

أجيال من خريجي الجامعات والتعليم الحديث الذين تأثروا بالنشاط والفاعلية التي قدمها أربكان.

رابعاً: التجربتان العربية والتركية: التشابه والاختلاف

في ضوء ما سبق يمكننا الآن أن نعيد تأمل التجربتين التركية والعربية من منظور مقارن راصدين أوجه التشابه وأوجه الاختلاف. وللقيام بهذا التمرين علينا أن نحافظ على الخلفية التحليلية المهمة المتعلقة بمركزية السياق. فالسياق التاريخي والسياسي والاجتماعي والثقافي هو المُشكل المركزي والحاسم لخيارات ومآلات الحركات الاجتماعية. وعندما نحافظ على مركزية السياق فإن ذلك يحفظ مسافة صحية وآمنة من التورط في أية مقولات «جوهرانية» تنظر إلى التشكيلات الإسلامية نظرة ثابتة وجامدة وعلى أنها مجموعات متماثلة من التنظيمات الخاضعة لقواعد ومفاهيم صارمة عابرة للظروف المكانية والزمانية، ولا تخضع للتأثر بالسياقات المختلفة. ويمكن تأمل أوجه التشابه والاختلاف من خلال تحليل عدد من السياقات الهامة التي أثرت في تشكيل كل تجربة على حدة، وهذه السياقات هي «تركة الدولة العثمانية والنظرة إليها»، «طبيعة دولة الاستقلال»، «البعد الأوروبي»، «دور الجيش والنظرة إليه»، «دور قيام إسرائيل»، «تحدي العلمانية واستجابة الاجتهاد».

النظرة إلى التركة العثمانية: ولدت الحركة الإسلامية العربية في أعقاب انهيار الدولة العثمانية عام ١٩٢٤، حيث تأسس الإخوان المسلمون في مصر سنة ١٩٢٨. وترسخ في السيكولوجيا الإسلاموية الحركية منذ لحظة التأسيس تلك أن كل ما صار يعانيه العرب والمسلمون من تمزق وضعف وتخلف وانكشاف للاستعمار الغربي مرده إلى انهيار الخلافة العثمانية وزوال الدولة الإسلامية التي كان العثمانيون يمثلونها بشكل أو بآخر. ولم يكن التحسر على انهيار الدولة العثمانية محصورا في أوساط الإسلاميين بل تعداه إلى بعض الفضاءات الأخرى، وإن كان قد تطور موقف عروبي ناقم على الاستبداد التركي وداع إلى التخلص منه. في المقابل كان ما قد ترسخ في سيكولوجيا النخبة التركية التي انقلبت على نظام السلطنة العثمانية أن تلك السلطنة وترامي أطرافها وتراخيها والانحلال والعفن اللذين حلا بها انعكسا على تركيا. وأنه من دون التخلص من عبء تلك السلطنة المعيق فإن تركيا والأمة التركية سوف تتعرض لخطر التمزق والتفتت. وهكذا فقد كانت النخبة التركية (العلمانية أساساً، وجزء من النخبة الإسلامية النقشبندية أيضاً) تنظر إلى الخلافة العثمانية كسبب لتمزق الدولة التركية، فيما كانت النخبة العربية (وفي مقدمتها الإسلامية) تنظر إلى انهيار تلك الخلافة كسبب لتمزق «الأمة الإسلامية». صحيح أن النخبة التركية غلب عليها التيار الأتاتوركي الناهض العلماني النزعة، فيما النخبة العربية الإسلامية التي نقارن بها هنا غلب عليها التيار الإسلاموي، بما يضعف منطق المقارنة. لكن المناخ الفكري والثقافي العام الذي تولدت فيه رؤى تلك النخب كان مختلفاً بين من أسعده انهيار السلطنة ومن تحسر عليها.

طبيعة دولة الاستقلال: نشأت الحركات الإسلامية العربية والتركية في كنف دولة استقلال ما بعد انحسار الاستعمار الغربي، أو متولدة عنه. وقد انعكس شكل وطبيعة ومكونات وشرعيات دولة الاستقلال الناشئة على الحركات الوليدة. في الحالات العربية قامت دولة الاستقلال العربية منقوصة الشرعية منذ البداية مما أضعفها أمام شعوبها ونخبها السياسية والدينية، على عكس الدولة التركية التي نشأت على شرعية قوية. فمن ناحية أولى كانت الدول العربية خلاصات إرث سايكس بيكو التقسيمية، أي أنه نُظر إليها من قبل شرائح واسعة في المنطقة العربية، إن لم تكن الشرائح الغالبة، على أنها «دول تجزئة»، قسمت «الأمة العربية»، وقطعت أوصالها. بينما كانت الدولة التركية الأتاتوركية، في نظر شرائح تركية واسعة وربما الغالبية، مشروعاً وحدوياً حافظ على «تركيا» و«الأمة التركية» من مصير مجهول ربما كان التقسيم والتجزئة بعد انهيار الدولة العثمانية. في الحالة العربية ولتعويض نقص الشرعية اتكأت النخب الحاكمة بشتى تنويعاتها على مصادر شرعية مختلفة ثورية أو قبلية أو أجنبية. وقد عملت جميع تلك النخب تقريباً على إضافة شرعية دينية حيث استخدم الإسلام كوسيلة إضافية تمنح الدولة الناشئة والنظام الحاكم فيها شرعية الوجود والحكم، إضافة إلى الشرعية المعنية المؤسسة. ومن منطقة الخليج العربي إلى مصر والسودان إلى العراق وبلاد الشام وصولا إلى المغرب العربي مثل الإسلام بالنسبة للدول حديثة التشكل مكوناً تأسيسياً في الخطاب «الدولتي». وانعكس ذلك بشكل واضح في اعتماد الإسلام ليس كدين الدولة وحسب بل اعتباره المصدر الأساسي للتشريع (أو مصدرا أساسيا للتشريع) في الدساتير التي اعتمدت مع قيام تلك الدول. وسواء أكان استخدام الإسلام وتوظيفه في الدستور يعكس قناعات حقيقية أم سياسات براغماتية، فإن الخلاصة النهائية هي خلق حالة دستورية معينة سوف تفيد الحركات الإسلامية العربية لاحقا. فهذه الحركات نشأت وعينها على المطالبة بإقامة الدولة

الإسلامية وتطبيق الشريعة الإسلامية، ورغم ما قد يبدو من «قصووية» بالغة في هذه الشعارات إلا أنه يمكن لتلك الحركات، في التحليل النهائي، أن تبرر تلك المطالبات بأنها دستورية خالصة لأن الدستور في هذا البلد العربي أو ذاك ينص على أن الإسلام مصدر التشريع. على ذلك فإن أي حركة إسلامية يمكنها أن تزعم بأن برنامجها هو المطالبة بتطبيق الدستور والمادة أو المواد الخاصة بتكريس الإسلام أو الشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع.

في الحالة التركية يختلف السياق بشكل كبير. فبسبب قيام الدولة التركية الحديثة في اتجاه معاكس تماماً للتركة العثمانية، وبسبب العلمانية الواضحة للنخبة المؤسسة، والأهم من ذلك بسبب عدم الشعور بنقص في شرعية التأسيس التي قامت على إنقاذ تركيا من التمزق، لم يكن هناك أي مكونات إسلامية دستورية وتأسيسية، تجميلية أو حقيقية في التكوين الأولي للدولة. وكان الدستور التركي ومنذ لحظة التأسيس علمانيا خالصا. وهذا انعكس في مراحل لاحقة على الحركة الإسلامية التركية التي لم تستطع أن ترفع نفس شعارات نظيرتها العربية: «إقامة دولة إسلامية»، و«تطبيق الشريعة»، أو على الأقل لم يكن في وسعها أن تتبنى هذه الشعارات بنفس الوضوح والحدة كما في الحالة العربية. والسبب في ذلك هو أن هذه المطالب تعني تغيير الدستور وشكل الدولة، ومن اليسير بالتالي أن تُتهم الحركة التي تُطالب بها بأنها حركة غير دستورية وتهدف إلى قلب النظام وطبيعة الدولة. ولهذا السبب فقد كان على الحركة الإسلامية التركية أن تشتغل تحت سقف الدستور العلماني وهذا دفعها لتطوير خطابات وسياسات وبرامج، مع الزمن، بدت أكثر تعقيداً وتركيباً من الخطابات والسياسات والبرامج التي انتجتها وتبنتها الحركات الإسلامية العربية التي لم تواجه نفس التحدي (الدستوري والعلماني).(٧)

وبتفصيل أكثر يمكن تتبع مراحل أساسية وفاصلة في مسيرة تكون تركيا الحديثة، وإحالة جذور هذا التكون إلى حقبة «الإصلاح والتنظيمات العثمانية»، التي أطلقتها الدولة العثمانية في العقود الأخيرة من وجودها (بين عامي ١٨٣٩ و١٨٧٨) كمحاولة يائسة من المصير المحتوم الذي كان يطل عليها. «حقبة التنظيمات»، كما اشتهرت لاحقاً، كانت عملية اقتباس واعية عن أوروبا من قبل المؤسسة العثمانية الحاكمة تهدف إلى تحديث الإدارة الامبراطورية بدءا بالشكل السياسي والتقسيمات الإدارية والعلاقة بين استانبول وبقية أجزاء السلطنة، وانتهاء بالتعليم والثقافة. فشلت تلك العملية التحديثية في إنقاذ الامبراطورية من الانهيار لكنها خلفت عددا من النواتج المهمة منها نشوء «الجيل الدستوري» الذي انخرط في عملية استنساخ النموذج الأوروبي وفق صيغة «الدولة-الأمة» أي nation state وليس وفق فكرة «الأمة» أو «الامبراطورية». وخلال عقود حقبة التنظيمات احتلت قضية علاقة الخلافة بالسلطنة، واستتباعاً، علاقة الدين بالدولة، مكاناً مركزياً في قلب النقاش الفكري والسياسي التركي. وفي ضوء «الأوربة» الفكرية والسياسية المتصاعدة في وسط النخب التركية إبان انهيار الدولة العثمانية، كان أن أقر المجلس الوطني التركي عام ١٩٢٢ «وثيقة أنقرة» تحت عنوان «التفريق بين الخلافة والسلطنة»، وهي عملياً الوثيقة التي أسست لفصل الدين عن الدولة في تركيا الحديثة.(٨) ولم يكن ثمة مسار مشابه لهذا المسار في الحالة العربية على أعلى مستويات النخب السياسية المسيطرة على الدول العربية حديثة القيام.

لكن من المفيد الإشارة هنا، وكما يؤكد وجيه كوثراني في كتاب «الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية»(٩)، إلى أن هناك جيلا من المفكرين والمثقفين العرب تأثروا بشكل مباشر أو غير مباشر بفكر وتجربة التنظيمات الدستورية التركية. ويرى كوثراني أن الوثيقة العربية المناظرة لـ «وثيقة أنقرة» التي أسست لفصل الدين عن الدولة كانت كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» الذي صدر عام ١٩٢٥. لكن على عكس الاحتضان الواسع الذي لقيته «وثيقة أنقرة» في أوساط النخبة التركية المؤثرة آنذاك، وبعضاً من الإسلامية أيضاً، فإن كتاب علي عبد الرازق ووجه بهجوم كاسح من قبل النخب الإسلامية الصاعدة مما دفع بعبد الرازق نفسه أن يعلن تخليه عن ذلك الكتاب. ويمكن القول أن الوثيقتين المذكورتين، مع نجاح الأولى وفشل الثانية، قد ساهمتا في تأسيس الافتراق الكبير الذي سيحصل بين التجربتين التركية والعربية بشكل عام وتجربة الإسلاميين الأتراك والإسلاميين العرب بشكل خاص.

البعد الأوروبي:

كانت أوروبا ووطأتها وأثرها حاضرة في السياق التركي العام ومنعكسة على تجربة إسلامييها في مراحلهم المختلفة، بشكل يختلف عما كان عليه الأمر في حال تجربة الدولة العربية الاستقلالية وحركاتها الإسلامية. تركيا تصل الشرق بالغرب وجزء منها يقع في أوروبا، وكانت على تواصل عضوي ووثيق (حربا وصراعاً، أو سلماً وتعاوناً) مع أوروبا. والأهم من ذلك لم تتطور سيكولوجيا هزيمة معيقة في نظرة الأتراك إزاء أوروبا كما تطورت في الحالة العربية. تركيا هي وريثة الدولة العثمانية التي كانت جيوشها تهدد العواصم الأوروبية خلال قرون طويلة، ووصل نفوذها إلى القلب الأوروبي. وتركيا بالنسبة لكثير من الأوروبيين هي «الإرث الاستعماري»، وهي وريثة امبراطورية اليد الطولى. لذلك لم تكن هناك عوائق نفسية ووجدانية تحول دون الاندفاعة التركية إزاء مشروع الحداثة الأوربي للاستفادة منه. ويمكن القول هنا أن الشعور المتضخم بالطورانية وفر قدرا من الندية مع أوروبا عوض عن الاختلال في ميزان القوى الحضاري. ومكن الأتراك من التعامل مع أوروبا بطريقة مختلفة عن التعامل العربي معها. ففي الحالة العربية مثلت أوروبا موطن الاستعمار والاعتداء والاستغلال، بما خلّف علاقة مرضيّة معها، أعاقت في كثير من الأحيان الاقتباس الصحي عن المشروع الحداثي الأوروبي. وأكثر ما تجسدت العلاقة المرضية عند جانب الإسلاميين الذين أظهروا توتراً عالياً ليس ضد الجانب الإمبريالي الاستعماري في أوروبا وحسب، بل أيضاً ضد الجانب الحداثي والعلماني التنويري.

وفي ضوء نمط النظرة والعلاقة مع أوروبا كانت تركيا (الأتاتوركية العلمانية، ثم الإسلامية المحافظة) تريد تقليد النموذج الأوروبي وتستخدم نفس أسلحته لتنافسه ولتصبح واحدة من الدول الأوروبية. وعندما جاء آخر جيل من أجيال إسلامييها، «حزب العدالة والتنمية»، كان أحد أهم رهاناته هو تحقيق انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي. وقد قطع مسافات في اتجاه هذا الانضمام لم يقطعها أي من الأحزاب العلمانية التركية التي سبقته في الحكم على مدار عقود. في المقابل كانت النظرة الإسلاموية العربية لأوروبا والنموذج الأوروبي لا تقوم على استنساخه وتقليده بل على بناء نموذج مغاير ومنافس. كما لا يمكن تخيل حركة إسلامية عربية، مثلا في فضاء المتوسط، تُطالب بانضمام بلدها إلى الاتحاد الأوروبي أو إلى تحالف وثيق مع أوروبا.

من ناحية أوروبا نفسها تمثل تركيا دولة غير عادية وتوليها أوروبا اهتماماً غير عادي. فتركيا كانت على الدوام مصدر هم لأوروبا، ثم صارت دولة حليفة خلال الحرب الباردة من أهم دول حلف الناتو المطلة على الشرق الأوسط والمشكلة لحزام حاجز ضد النفوذ السوفيتي. والآن وبعشرات ملايينها المسلمين تطرح تحدياً من نوع جديد على أوروبا إزاء مسألة الانضمام للاتحاد الأوروبي. لذلك فالاهتمام الأوروبي بتركيا سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، وعلمانياً، وديموقراطياً، لا يتوازى مع الاهتمام الأوروبي بأي بلد عربي، وربما بالبلدان العربية مجتمعة. والسجال الأوروبي الكبير تجاه تركيا الآن يتمحور حول دعم وتشجيع حزب العدالة والتنمية المتمسك بالديموقراطية برغم بعض

من ناحية أوروبا نفسها تمثل تركيا دولة غير عادية وتوليها أوروبا اهتماماً غير عادي

الشكوك حول ماضي قادته ومستقبل توجهاتهم. واما محاولة صدهم ورفض سياساتهم التقاربية مع أوروبا وتفضيل تحالف العلمانيين والجيش عليهم، بما قد يعني إحباط توجه تركيا نحو حكم مدني كامل يخضع فيه الجيش لسيطرة المدنيين ولا يكون له دور في السياسة. لكن وبكل الأحوال انعكست العلاقة الوثيقة مع أوروبا، واشتراطات الانضمام للاتحاد الأوروبي (سلة شروط كوبنهاغن) على تفكير الإسلاميين الأتراك وآخر تمثلاتهم في حزب العدالة والتنمية وفي تعزيز أنماط التمدين والعلمنة السياسية.[10] وفي حالة الإسلاميين العرب ليس ثمة دور مناظر، أو اندفاعة نحو أوروبا، تجبرهم على إنتاج أفكار وتصورات تفصيلية ومركبة حول علاقتهم مع الآخر، إلا في حالات قليلة لا تشكل نماذج تجتذب الاهتمام.

دور قيام إسرائيل:

مثل المشروع الصهيوني في أرض فلسطين ومنذ مطلع القرن العشرين تحدياً أساسيا وتكوينياً وأحياناً وجودياً أمام الدول والحكومات بأطيافها المختلفة. كما انعكس ذلك التحدي على الطبيعة التكوينية والبرامج السياسية لأغلب التنظيمات الحركية السياسية في المشرق ومن ضمنها الإسلامية. وعلى مستوى التشكيلات السياسية الإسلامية يمكن بوضوح التقاط وطأة «عنصر المشروع الصهيوني ثم قيام إسرائيل» على أدبيات حركة الإخوان المسلمين منذ سنوات تأسيسها الأولى فصاعداً. في ثلاثينيات القرن الماضي اشتغل الإخوان المسلمون على دعم الثورات الفلسطينية عن طريق التبرعات وإرسال المساعدات العينية. ثم في نهاية ذلك العقد أرسلوا بعض قياداتهم إلى فلسطين وسوريا والأردن ولبنان لتأسيس الأنوية الأولى لفروع الإخوان المسلمين في هذه البلدان. وفي عقد الأربعينيات ووضوح معالم المشروع الاستيطاني الصهيوني بشكل جلي تعزز اهتمام الإخوان المسلمين بقضية فلسطين، وهو الاهتمام الذي ترجم عمليا وعسكريا على شكل المشاركة في حرب ١٩٤٨ عن طريق المتطوعين عبر سيناء فقطاع غزة ثم وصولا إلى مدن ومناطق في سائر فلسطين. وعندما تأسس حزب التحرير الإسلامي في الخمسينيات كانت قضية تحرير فلسطين والتخلص من الاستعمار الغربي في طليعة القضايا النظرية التي برر الحزب بسببها أولوية ومركزية فكرة «استعادة الخلافة» التي هي النظرية المعرّفة لجوهر وجوده. وهكذا ظلت قضية فلسطين وقيام إسرائيل تلقي بظلال فكرية وسياسية ووجدانية على تفرعات التيار الإسلامي في المنطقة، وفي مراحل لاحقة تكرس ذلك البعد بنشوء حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين في أوائل الثمانينيات ثم حركة حماس مع بدايات الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧.

استغل هذا البعد على مستوى تكوين البنية الفكرية والسياسية لحركات الإسلام السياسي خاصة في المشرق، وساهم في تمييز طبيعة تلك الحركات ومآلاتها عن تجربة الإسلاميين الأتراك. فالبرامج السياسية والطموحات والشعارات المتبناة من قبل هذه الحركات لم تكن محصورة بالتغيير الاجتماعي فحسب، أي أسلمة المجتمع وإقامة دولة إسلامية، بل أضيف إليها قضية التنظير لكيفية وآلية تحرير فلسطين وربط ذلك بـ «المشروع الحركي الإسلامي» بشكل عام. وهذا الربط اتخذ في كثير من الأحيان طبيعة آلية، وتبسيطية، تشير إلى أن الطريق لتحرير فلسطين تمر عبر إقامة «الدولة الإسلامية» التي وحدها، وبخلاف الدول العلمانية العربية، تستطيع التصدي لمهمة «التحرير». وقد أنتج هذا الربط أشكالا من الوعي (الضبابي) بالأولويات وميكانيكية الارتباط فيما بينها، منها تصويب النظر على الهدف البعيد وهو «تحرير فلسطين» واعتبار المرحلة «الوسطى» أي الأسلمة وإقامة الدولة الإسلامية مجرد آلية تقود إلى «التحرير» ومعالجة الجرح التاريخي والسيكولوجي الذي قوض الكرامة الجماعية للشعوب العربية.[11] وقد قاد هذا آليا وتلقائيا إلى التقليل من شأن «الدولة» واستسهال مكوناتها الداخلية، واستغلال آلياتها السياسية والاقتصادية ونوع علاقاتها الدولية، وطبيعة التوافقات بين الشرائح المختلفة، وأدى إلى العزوف عن مواجهة التحديات التي تطرحها. وقد ساهم الانشغال، الحقيقي أو المتوهم، بأولوية «فلسطين» ومواجهة النفوذ الغربي عموماً، في عدم إنتاج الحركات الإسلامية في المشرق برامج ورؤى تفصيلية في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والفن والعلاقات الدولية وسوى ذلك. في المقابل كانت التجربة التركية منغرسة في واقعها السياسي والاجتماعي من دون وجود عنصر خارجي بالغ الوطأة مثل «المشروع الصهيوني» ليحرفها عن مواجهة التحديات المطروحة عليها محلياً. كان هناك بالتأكيد وعلى الدوام عنصر العلاقة مع الغرب، ومع أوروبا على وجه التحديد، وانعكاساتها على تغريب المجتمع وفق المشروع الكمالي للتحديث والتغريب. لكن ذلك العنصر يمكن اعتباره ساحة من ساحات الصراع الداخلي، وهو في نهاية المطاف قاد إلى طرح تحديات وأسئلة كبيرة على الإسلاميين الأتراك كلها من النوع الذي يصب في شكل الاجتماع السياسي الداخلي، وليس في شكل المواجهة مع الخارج (كما في حالة الصهيونية وإسرائيل).



لعب الجيش في الحالتين التركية والعربية دورا مهماً في تشكيل البنية السياسية وترسيخ الدولة ونظامها

دور الجيش والنظرة إليه:

لعب الجيش في الحالتين التركية والعربية دورا مهماً في تشكيل البنية السياسية وترسيخ الدولة ونظامها. لكن النظرة العامة لذلك الدور مختلفة وأثرت بالتالي على موقع الإسلاميين بالنسبة للجيش ونظرة الناس لهم والأهم من ذلك قدرة وشرعية الجيش في التحكم في مدى نفوذهم وقوتهم. في الحالة التركية حظي الجيش ومنذ تأسيس الدولة التركية الحديثة بالاحترام الشعبي والتبجيل بكونه القوة التي التقطت تركيا من وحل التقسيم وسهرت على ترسيخها وبنائها. واستمرت بقايا هذه النظرة التقديرية للجيش إلى الوقت الراهن، وإن خفت بدرجات مهمة. أتاح ذلك قدرة وشرعية للجيش بأن يقف بصرامة أمام بروز وتعاظم قوة الحركة الإسلامية معتبرا نفسه حارس الدستور العلماني للدولة. وتسنم الجيش موقع «المؤسسة العلمانية» التي ترسخت علمانيتها على مدار ثمانية عقود.

تطورت المؤسسة العسكرية التركية الحديثة في حضن المشروع الكمالي وأصبحت حارسة له. وكان الجامع المشترك بين الاثنين هو هدف المحافظة على تركيا «موحدة، وقوية، ومتقدمة». ولإنجاز هذا الهدف كان النموذج الغربي الأوروبي هو القريب والمثبت النجاح: أوروبا قوية لأنها علمانية وديموقراطية. ولهذا فإن أرادت تركيا أن تكون قوية فعليها أن تكون علمانية وديموقراطية. وإن طرأ ما قد يهدد هذا المسار الذي ستكون نهايته «الطبيعية» منعة تركيا وقوتها، فعلى المؤسسة العسكرية أن تتدخل لتعديله.[12] فمثلا إن جاءت الديموقراطية بحزب غير ديموقراطي أو حزب يريد أن يلغي العلمانية فإن الجيش يتدخل بلا تردد. وهذا الحضور القوي للجيش كان واحدا من الأسباب التي ظلت تدفع بالإسلاميين نحو تعديل برامجهم وعلمنتها لاكتساب شرعية المشاركة السياسية تحت سقف المشروع العلماني للدولة. وهكذا فعندما كان الإسلاميون يشاركون في الانتخابات ويراكمون نتائج جيدة كانت عين المؤسسة العسكرية تراقبهم عن كثب وتضع شروطها على برامجهم. ولم تتوان تلك المؤسسة عن الإطاحة بهم عندما رأت أن برنامجهم قد يقوض الأسس العلمانية للدولة، كما حدث عندما أطاح الجيش (عبر مجلس الأمن القومي) بحكومة نجم الدين أربكان عام ١٩٩٧ بعد عامين من تشكيلها وحل حزب الرفاه وحظر على أربكان نفسه المشاركة في العمل السياسي بعد ذلك لعدة سنوات. وعندما

تشكل حزب الفضيلة على أنقاض حزب الرفاه المحلول وتبنى سياسات «إسلامية» مشابهة لسياسات «الرفاه»، وأريكان لم تتوان المحكمة الدستورية بإصدار قرار بحله أيضاً عام ٢٠٠١.

في الحالة العربية لم يكن للجيش دور مناظر في حماية «رؤية» علمانيه معينة للدولة، بل كان أحد معاقل «التقليدية» في غالب الأحيان وبعيدا عن اية علمنة سياسية حقيقية. حتى في حالات الأنظمة الثورية واليسارية تحول الجيش سريعا إلى جهاز شبه أمني هدفه المحافظة على النخبة الحاكمة (وغالبا ما تكون قد وصلت إلى الحكم عبر الانقلاب)، وتابعاً للنظام القائم وليس متحكماً فيه كما في الحالة التركية. من ناحية أخرى لم يحظ الجيش في الحالة العربية بنفس التقدير والنظرة التي حظي بها الجيش في تركيا. فالجيش في الحالة العربية، وفي أغلب الأحايين، هو وريث هزائم متتالية مع العدو الخارجي (إسرائيل تحديداً) أو في أحسن الأحوال ليس لديه سجل تاريخي ناصع من الانتصارات أو الإنجازات الوطنية الكبيرة، كإنجاز الوحدة الترابية أو مواجهة التقسيم. بل كانت النظرة إلى الجيش في العديد من البلدان العربية على أنه مكرس لـ «التقسيم والتجزئة» التي خلفها المستعمر الغربي إضافة لكونه أهم أدوات القمع الداخلي

تحدي العلمانية واستجابة الاجتهاد:

الجوانب التي أشير إليها سابقا (النظرة للتركة العثمانية، البعد الأوروبي، قيام إسرائيل، المؤسسة العسكرية) وضعت الإسلاميين في كلتا الحالتين التركية والعربية أمام تحديات مختلفة من ضمنها تحدي العلمانية، كفكرة وممارسة. لكن هذا التحدي كان أكثر بروزاً في الحالة التركية كما شرح أعلاه وهذا فرض ومكن الإسلاميين من تطوير قناعاتهم وبرامجهم استجابة لذلك التحدي، وهي استجابة قادت مع الزمن إلى بروز حزب العدالة والتنمية على أنقاض التجارب الحركية الإسلامية الممتدة لعدة عقود في الفضاء السياسي التركي. أما في التجارب العربية (وما عدا التجربة التونسية والمغربية إلى حد ما) فإن التحدي العلماني لم يشكل حافزا على التطوير الذاتي وإنتاج خطابات عصرية تتحداه من نفس منطلقاته. كانت المعركة مع العلمانية تُخاض بطريقة مختلفة: من الخارج وليس من الداخل. كانت معركة فكرية سهلة متمحورة حول الرفض الكلي للعلمانية بكونها نظرية كافرة ومضادة للإسلام، وبالتالي لم تكن هناك استجابات معقدة ومركبة للتحدي العلماني. في المقابل كانت المعركة التركية تُخاض من داخل الشرط العلماني ووفق قواعد اللعبة العلمانية التي فرضها وحرسها الجيش دافعة بالإسلاميين للتفكير والاستجابة وفقها وتقديم نماذج وقيم وبرامج سياسية متجددة وغير تقليديه

انعكست طبيعة الاستجابة للتحدي العلماني على نوعية وعمق الاجتهاد الإسلامي الناتج في كلتا الحالتين. ففي الحالة التركيه نشطت حركة اجتهاد واسعة النطاق للرد على التحدي العلماني وقد برزت مع بروز المشروع الكمالي واعتزال سعيد نورسي، أحد أهم رموز الطريقة النقشبندية، ثم مؤسس حركة النور الإيمانية والاجتهادية فيما بعد. فآنذاك تفرغ نورسي للكتابة العلمية لمحاولة دحض وتفكيك المشروع العلماني وطروحات الحداثة الاوروبيه من ناحية عقلية وهذا استلزم، واستمر على مدار العقود التالية، المساجلة على مستوى المنطق والنقاش العقلي، وانتج عودة إلى النصوص الدينية، القرآن والحديث، وإعادة النظر فيها وتفسيرها في ضوء التحديات الجديدة. وفي حقبة تالية، في الستينيات من القرن الماضي، برز الداعية والمجتهد فتح الله غولن الذي تتلمذ على يد سعيد نورسي واستمر في معارضته (السلمية والفكرية والعلمية) للمشروع العلماني الأتاتوركي. وصار من أبرز الأباء المؤسسين (ولو حتى على الصعيد الفكري والعلمي) للتيار الإسلامي التركي لكن المهم في الموضوع هو أن حركة النور النورسية ثم حركة غولن أوجدتا فاعلية ونشاطاً اجتهادياً على مستوى الفقه والتنظير ومواجهة تحديات وإشكاليات العلمانية والحداثة والديموقراطية بشكل انتج الأسس الراسخة لـ «الإسلام التركي المعتدل الذي تطورت بناء عليه الأجيال التي ستنضوي تحت راية «حزب العدالة والتنمية» وتقوده. وهي أجيال لم تكن بوصلتها الأساسية العنف في وجه الدولة، بل كيفية تحقيق العدالة والتعايش مع بقية شرائح المجتمع.[13]

على مستوى الحركيين الإسلاميين العرب لم تنهض حركة اجتهاد واسعة النطاق ولم تتسنم الحركات الإسلامية راية تجديد الدين. بل بقيت في المربع التقليدي وقريبة من الإرث المجتمعي في فهمه للدين. وأحيانا كثيرة كانت تتحالف مع تيارات قبلية وعشائرية موغلة في تقليديتها في قضايا تتحكم فيها التقاليد وليس الدين (مثلا حق المرأة في الانتخاب في الحالة الكويتيه حيث وقفت الحركة الإسلامية الكويتية لسنوات طوال في صف التيارات العشائرية التي ترفض ذلك الحق، أو قانون قتل الشرف في الأردن حيث تحالفت ولا تزال الحركة الإسلامية الأردنية مع التيارات القبلية والعشائرية لترسيخ قانون رجعي وتقليدي يسهل قتل الإناث بتسويغ «غسل الشرف»). ■

انعكست طبيعة الاستجابة للتحدي العلماني على نوعية وعمق الاجتهاد الإسلامي الناتج في كلتا الحالتين

هوامش:

(١) انظر Senem Aydin and Rusen Cakir CPES, Political Islam in Turkey Working Document No 265/April 2007 Centre for European Policy Studies Brussels

(٢) الانتقال من «سياسات الهويه» الى «سياسات الخدمات» في مشروع حزب العدالة والتنمية هي احد الطروحات الاساسيه التي يناقشها هاكان يافوز في كتابه المهم The Emergence ، Hakan Yavuz (ed M of A New Turkey Democracy and the Utah The Utah University) AK Party Press ٢٠٠٦)

(٣) انظر الموقع الرسمي للحزب على شبكه الإنترنت http //eng akparti org tr/english/partyprogramme html

(٤) من المنظرين الذي عالجوا نظرية «العلمنة المتواصلة والتدريجية» للمجتمعات التقليدية و ناقشوها هارفي كوكس في The ،Harvey Cox Secular City Secularization and Urbanization in Theological Perspective (١٩٦٦ ,New York Macmillan)

وارنست غيلنر، عالم الاجتماع البريطاني، في Nations and Nationalism Ernest Gellner, Oxford, Oxford University Press ١٩٨٣)

اما في سياق نقاش المجتمعات العربية و الإسلامية فان الدراسة المؤسسة الاهم في هذا الجدل هي الكتاب الكلاسيكي لدانيال ليرنر Daniel Lerner, The Passing Society (New Modernizing the Middle East ١٩٥٨، York Free Press

(٥) هذا تقريبا تفسير فرنسيس فوكوياما لصعود التيارات الدينية في اواخر القرن العشرين المناقض إلى حد ما لأطروحة نهاية التاريخ وانتصار الرأسمالية الليبرالية، كما يشرح في كتابه المشهور «نهاية التاريخ» وقريبا منه تفسير عالم الاجتماع والباحث الفرنسي اوليفيه روا في كتابه «فشل الإسلام السياسي»، الصادر بالفرنسية اولا عام ١٩٩٢ ثم بالإنجليزية عام ١٩٩٤ وبالعربية عام ١٩٩٥ عن دار الساقي، لندن.

(٦) انظر Islamic,Yildiz Atasoy Revivalism and the Nation-State Project Social,Competing Claims for Modernity pp. 83-99., Vol 44,١٩٩٧ Compass

(٧) انظر Islamic ,Hakan Yavuz M Oxford) Political Identity in Turkey ٢٦٦ p.(٢٠٠٣ ,Oxford University Press

(٨) وجيه كوثراني، هل يمكن قياس العمل السياسي الإسلامي على نظيره التركي؟، الحياة (لندن)، ٢٥ تموز (يوليو) ٢٠٠٧.

(٩) وجيه كوثراني الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية، بيروت، دار الطليعة ١٩٩٦

(١٠) من القراءات الحديثة وشبه الشاملة التي تتناول السجال الأوروبي حول انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي المؤلف الجماعي ,Esra LGro and Knud Erik Jorgensen Turkey and the European Union Prospects for a Difficult Encounter 2007).,(London Plagrave Macmillan

(١١) انظر قسم «جدلية التغيير والتحرير» في الفصل الثاني من كتاب خالد الحروب «حماس: الفكر والممارسة السياسية»، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦)

(١٢) انظر تحليل أرنست غلنر لـ «الكمالية» في كتابه Encounters with,Ernest Gellner 1994 Nationalism (Oxford Blackwel), pp 81-91

(١٣) انظر فصل Ijtihad and Tajdid by,Ihasan Yilmaz in M Hakan Yavuz and John,Condcut L. Esposito Turkish Islam and the (New York Syracuse,Secular State 2003), pp. 208-237. University Press.

❝ أعوذ بالله من الشيطان والسياسة ❞

اسطنبول ٥٥٥ عاما

حلمي محمد القاعود

■ ■ هي بيزنطة، وهي القسطنطينية، وهي إسلامبول، وهي الآستانة، وهي استانبول، وقد مضى على فتحها (٢٩ مايو ١٤٥٣م) خمس وخمسون وخمسمائة سنة، واستطاع محمد الفاتح، أو السلطان محمد الثاني (١٤٢٩ . ١٤٨١م)، أن يضع حداً لأكبر مصدر من مصادر العدوان والشر والتعصب، وأن يحقق البشارة النبوية التي بشر به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديثه الشهير: لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش. وهي البشارة التي تحرك بها الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، وقد تجاوز عمره الثمانين، ليخرج مع جيوش يزيد بن معاوية، في المحاولات الأولى لفتح المدينة الاستثنائية، ودفن على أسوارها حين صدت الفاتحين، ونقل رفاته بعد قرون إلى داخلها ليكون ضريحه منطلقاً لتتويج الخلفاء والسلاطين، وبهجة العرائس والعرسان، وفرحاً للطفولة البريئة بالختان.

استانبول مدينة الزهور والجمال. والنظام والانضباط، ومركز التحولات الكبرى، المادية والمعنوية في حياة شعب شقيق، يشق طريقه من جديد نحو القوة والتحضر والتفوق.. والمفارقة أنها تبلغ حجم القاهرة في عدد السكان (٢٠ مليونا)، ولكنها لا تعاني البؤس والهوان والتراب، الذي تعانيه الأخيرة، فهي آية في النظافة والجمال والسلوك الراقي، ومع أنها ليست مبسوطة على واد خصيب مثل القاهرة، وتتربع فوق سبع تلال، تجعل جغرافيتها وطرقها من أعجب المدن في العالم، فأرضها مبذورة بالسيارات والحافلات، وشوارعها مرتفعات ومنخفضات، ولكن هذا لم يؤثر في حركة المرور، فهناك نظام عام، يجعل الأفراد يلتزمون بإسالة الحركة وتسييرها دون ضجيج أو عجيج، ونادراً ما تسمع صوت نفير السيارات، أو ترى حركة السائقين.. لقد تواضع الناس على احترام بعضهم، ومراعاة غيرهم، ورأيت السائق الشاب الذي يقود سيارتنا، يهبط بخفة سريعة ليوقف السيارات القادمة في حارة ضيقة، كي تمر سيارة ضخمة في منحنى خطر، وتسيل بعدها حركة السيارات دون أن يتفوه هو أو غيره بكلمة واحدة، أو تصدر «تشويحة» من هذا السائق أو ذاك.. وبالطبع لا يوجد في الشوارع غبار أو تراب يخنق الصدور ويحبس الأنفاس..

كانت المدينة الاستثنائية يوم التاسع والعشرين من مايو ٢٠٠٨، تتزين في الشوارع والميادين، وعبر السيارات والحافلات برفع العلم التركي الأحمر، وبداخله الهلال والنجمة البيضاوان، منذ الصباح الباكر للاحتفال بذكرى فتح المدينة التاريخية، وضمها إلى الدولة العثمانية، وكان هذا الاحتفال المناسبة التي اتفق عليها الإسلاميون والعلمانيون لأول مرة، وشهده الطرفان وأكدا عليه في موقع تاريخي عريق، هو قلعة «بلغراد» حيث كان العرض العسكري التمثيلي، والكلمات التي ألقاها ممثل الجيش ومندوب البلدية ووالي المدينة وشاعر شاب وفرق تنشد النشيد القومي الذي ألفه شاعر تركيا العظيم «محمد عاكف» . رحمه الله ـ الذي قضى شطر حياته الأخير في مصر.

لم أكن أدري وقد دفعت بي الأقدار في أواخر مايو ٢٠٠٨ لزيارة استانبول للمرة الثانية كي أحضر مؤتمراً علمياً، أنني سأشهد عرضاً عسكرياً تمثيلياً يعيدني مرة أخرى إلى فترة سابقة قبل أربعين عاماً عشتها تحت الرداء العسكري، رأيت فيها وطناً مهزوماً ينهض من تحت التراب، ويحقق معجزة العبور، وكسر الذراع الشريرة التي أذلت الأمة جميعاً. كان العرض العثماني يكشف كيف استطاع جنود محمد الفاتح تسلق القلعة والتحصن بها وانتظار العدو.. المشهد فيه شبه من تسلق خط بارليف مع الفارق، ولكن سبقه تقديم الصورة التاريخية لتحرك الجيش العثماني وطلائعه بزيها القديم. الموسيقات العسكرية تثير الحماسة، ثم «المهتمارية» وهم حاملو الطبول والصنوج، وعازفو النايات، مع منشدي الأدعية وقارئي الآيات القرآنية الدالة على النصر «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» (محمد: ٧)، ثم تتقدم فرق الجيش المختلفة (الانكشارية، الشاويشية، الطوبجية، و....)، ويأتي طلاب المدارس وطالباتها، في تسلسل يحكي صورة الجنود وهم يسيرون نحو القتال، ويليهم حملة الأعلام الثلاثة. العلم العثماني التاريخي (الأحمر بأهلته الثلاثة) والعلم الإسلامي التاريخي (الأخضر بأهلته الثلاثة أيضاً)، وعلم الاستقلال الأبيض، ثم ممثلو لبعض السلاطين بزيهم التراثي وعمائمهم المميزة، وينتهي العرض بتقديم رقصات شعبية بأزياء تاريخية.. وفي أثناء العرض انطلقت المدفعية تهز أرجاء المكان، تعبيرا عن قوة الجيش وإصراره على النصر.

كل المشاهدين ـ وأنا واحد منهم ـ يتفاعلون، مع العرض العسكري، ومع التاريخ، ومع المستقبل، وكانت المنصة تضم ممثلي أسلحة الجيش التركي المعاصر، الذين وقفوا تحية عند مرور العرض، ورفعوا أيديهم تعظيماً لرمز قوتهم وسطوتهم.

لقد استعاد المتحدثون تراث الأدباء والأجداد في الجهاد والدفاع عن الوطن، وأكدوا على مواصلة الطريق الذي سلكه هؤلاء الأسلاف، وفي الوقت ذاته أعلنوا عن إصرارهم على صنع المستقبل وحمايته، والارتقاء بمدينة استانبول رمز المجد والعظمة والنصر .

لم يتح لي أن أشاهد الاحتفالات الشعبية التي أقيمت في ميدان تقسيم (قلب المدينة) وطوب كابي (قصر الخلافة العثمانية التي تحول إلى متحف قومي) وخليج القرن الذهبي الذي شهد عملية إنزال السفن المقاتلة للإبحار نحو أسوار المدينة.

بيد أن أهل استانبول في ذلك اليوم، كانوا سعداء وهم يرون الألعاب النارية والصواريخ الملونة تشق عباب الفضاء وتضيء الليل، خاصة بعد أن تحسنت أوضاعهم المادية والمعنوية، وشعروا أن الخبز في بلدهم ينخفض ثمنه ٢٠٪، بعد أن ارتفع في بلاد أخرى، وتناقلت الأنباء سقوط قتلى في طوابير الانتظار للحصول على بضعة أرغفة في هذه البلاد الأخرى. مررنا على أحد المخابز في استانبول، فلم نر زبوناً واحداً يشتري. كان المخبز المقفز من الزبائن يمتلئ بأصناف عديدة من المخبوزات. وعندما سألت مرافقي عن الظاهرة، أخبرني أن الناس يفضلون شراء الخبز من (السوبر ماركت) أو المحلات توفيراً للوقت، حيث يشترون ما يلزمهم من أغذية وغيرها، ويجدون الخبز في طريقهم وهم يتسوقون!

منذ أربعة عشر عاماً كانت استانبول ـ لدى زيارتي الأولى ـ تضج بالمشكلات، وكان «رجب الطيب أردوغان»، رئيس الحكومة الحالية، رئيساً لبلدية استانبول أيامها، ووضعته الأقدار في مواجهة مشكلات مزمنة لمدينة صعبة، بدءاً من تراكم الزبالة وإضراب عمال النظافة، حتى شح المياه وانقطاعها عن أحياء كاملة، مروراً بانتشار الانحرافات والفساد الإداري والمالي، وضجيج المدينة من السرقات وممارسات السكارى والشواذ والبلطجية.. وقد استطاع أردوغان أن يحل كثيراً من هذه المشكلات آنئذ، ولكنه كوفئ بإدخاله السجن وحرمانه من ممارسة العمل السياسي خمس سنوات، ويبدو أن التاريخ سيعيد نفسه، حيث يطلب النائب العام الآن حظر الحزب الحاكم الذي يقوده أردوغان، وحرمان سبعين من قياداته من العمل السياسي، منهم رئيس الجمهورية وأردوغان نفسه، وذلك بعد أن تعافت تركيا في ظل «العدالة والتنمية» من الانهيار الاقتصادي والفساد السياسي والتراجع الاجتماعي، وحققت قفزة كبيرة في مختلف المجالات، شعر بها المواطن العادي الذي يتعاطف مع الحكومة ورموزها.

قبل الاحتفال بفتح القسطنطينية بيوم واحد، كان أردوغان يخطب في ديار بكر، التي تضم أغلبية كردية، واصطحب معه اثنى عشر وزيراً في حكومته، ووعد أهل المنطقة بأن مشكلاتهم ستحل تماماً مع عام ٢٠١٢، وسأل التليفزيون مواطناً كردياً عن رأيه فيما يقوله رئيس الوزراء، فقال: إنه يثق في الحكومة الحالية، ولكنه يخشى عليها من عدم الاستمرار!

ومهما يكن من أمر، فإن عقارب الساعة لن تعود إلى الوراء، وذلك لأن تركيا الراهنة، قد تغيرت وتجددت، بفضل الإصلاحات العميقة والمؤثرة التي ينفذها حزب «العدالة والتنمية» بعقل وهدوء وتدرج، في شتى المجالات، ثم إن البنية المعنوية أو التكوينية للشعب التركي ـ إن صح التعبير ـ تتغير أيضاً، وتأخذ اتجاهاً تصاعدياً نحو الأحسن والأفضل، بفضل إتاحة الفرصة للمجتمع المدني كي يعمل ويثبت وجوده، وقد صارت منظمات هذا المجتمع التي تقوم على الدعم الشعبي ذات حضور قوي وفعال لا تستطيع أية قوة من قوى السياسة والاقتصاد تجاهله أو إهماله، وهو ما يعني أن



المد الإصلاحي سيستمر، حتى لو سقطت حكومة «العدالة والتنمية».



ركزت حكومة «العدالة والتنمية» على الإصلاح الاقتصادي بالدرجة الأولى، فالتف حولها الشعب على المستوى العام، لأنها خاطبت مشكلاته ومصالحه، وسعت سعياً حثيثاً ملموساً في وضع الحلول الممكنة والمتاحة، التي تحققت على أرض الواقع، ووفت بكل ما وعدت به، هو ما جعل قطاعات كبيرة من العلمانيين تتعاطف مع الحكومة، وتصوت لها في الانتخابات التشريعية الماضية (٢٠٠٧م).

كانت أول خطوة في الإصلاح الاقتصادي محاربة الفساد، وخاصة فساد الكبار، ولعل تحويل «تانسو تشيللر، ومسعود يلماظ»، وهما من رؤساء الوزارات السابقين، إلى التحقيق، كان الدليل الأوضح على صدق العدالة والتنمية في توجهه نحو الإصلاح الحقيقي. لقد اتهمت تشيللر ويلماظ بالحصول على أربعة مليارات دولار، رشوة نظير الموافقة على مرور الغاز إلى بعض دول الاتحاد الأوروبي من الجمهوريات الآسيوية، ومازالت التحقيقات جارية بكل جدية وصرامة حتى الآن.

وقبل ذلك تمت محاسبة رءوس الفساد، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم ويخوتهم التي سرقوها من الدولة والشعب، واستطاعت الحكومة في دورة توليها الحكم الأولى أن تسترد ٤٦ مليون دولار، وأن تضع منهجاً جديداً للعمل الاقتصادي، يقوم على الأمانة والصدق والشفافية، ولا يقوم على الرشوة والغش والخداع.

اهتمت حكومة العدالة بمعالجة مشكلة البطالة عن طريق تشجيع الاستثمار الإنتاجي، وفتح المجال أمام إقامة المصانع والشركات، التي تنتج للتصدير، وتتوسع في المشاركة داخل دول العالم الإسلامي التي تعد مجالها الأساسي الأوسع بإقامة المصانع التي تؤسس لمنتجات مهمة مثل السيارات والنسيج والآلات وغيرها، بحيث صارت المصانع التركية المشتركة تقدم كل ما تنتجه مصانع الاتحاد الأوروبي من سلع ومصنوعات، وهو ما وفر فرص عمل كثيرة أسهمت في تخفيض نسبة البطالة التركية إلى حد كبير.

رجال الأعمال الأتراك لهم اتحاد رسمي وآخر مستقل، والأخير لا يرتبط بالدولة ارتباطاً رسمياً، ولكنه يعمل في إطار الخطة العامة التي تهدف إلى زيادة الإنتاج والتصدير، وأيضاً فإن مجاله الحيوي الأوسع، هو دول العالم الإسلامي، وقد دعينا إلى الغداء في مقر اتحاد رجال الأعمال المستقلين، ويطلقون عليه اختصاراً اسم «مساعد»، وجلس معنا عضو مجلس إدارة الاتحاد، الذي شرح أوجه نشاط رجال الأعمال المستقلين، وتحدث طويلاً عن مشروعات رجال الأعمال القائمة والمنتظرة، ولفت نظري، ما تحدث به عن اعتماد هذا الاتحاد على أربعة بنوك لا تتعامل بالربا أو الفائدة، ولكنها تقوم بتمويل المشروعات الإنتاجية - وأؤكد على الإنتاجية - بداية من شراء أرض المشروع، حتى شراء الإنتاج وتسويقه عالمياً، مقابل نسبة يتفق عليها الممول والمنتج، وأتاح الاتحاد بذلك فرصاً عديدة لإقامة مشروعات ضخمة ومهمة استوعبت عمالة كبيرة، وإلى جوار ذلك فإن الاتحاد الذي يملك مقراً فخماً في استانبول، يضع في حسبانه أهمية التدريب واكتساب الخبرات، ولذا يتحمل عشرات المنح لمبعوثين يرسلهم إلى الدول التي تملك الخبرات والمهارات المتقدمة، وبالطبع فإنهم لا يرسلون إلى الدول العربية أحداً، لأنه لا توجد بها خبرات ولا مهارات!!

لقد وجدت أخيراً معنى لكلمة «رجال الأعمال» التي أبغضها بغضاً شديداً، نظراً لما كنت أراه في مصر، فرجال الأعمال الأتراك منتجون مصدرون، يخدمون بلدهم ومستقبلهم في إطار من الجدية والصدق، أما نظراؤهم عندنا - سامحهم الله - فإني أسميهم «رجال القروض»، لأن غايتهم الأساسية هي امتلاك المال، لسرقته والهروب به أو لشراء الأراضي وتسقيعها، وبيعها مرة أخرى للدولة بأسعار خرافية، أو إقامة المشروعات الترفيهية، والشاليهات والفيلات وإنشاء شركات الهاتف المحمول وقنوات التليفزيون الرديئة التي تروج لأفكارهم ومشروعاتهم غير الإنتاجية..

عقب وصولي من استانبول بعد احتفال فتح القسطنطينية بيوم أو يومين، قرأت إعلاناً على صفحتين في جريدة يومية كبرى، يعرض فيه رجل قروض مشروعاته، أو ما سماه إنجازاته.. فإذا بها المشروعات الترفيهية والهامشية التي لا تضيف إلى الوطن شيئاً ذا قيمة، ولا تستوعب عمالة ذات خبرة أو منتجة.. في الوقت ذاته كان رجال الأعمال الأتراك يعلنون عن مشروع مشترك مع مصر، بإقامة مصنع نسيج في كفر الدوار بمحافظة البحيرة قيمة استثماراته الأولية ٥٠٠ مليون دولار.. وقبل كفر الدوار حضر الرئيس التركي عبدالله جول ليفتتح مدينة صناعية في مدينة ٦ أكتوبر.

حين سألت عضو مجلس إدارة اتحاد رجال الأعمال المستقلين عن علاقتهم بمصر ورجال أعمالها، بدا محرجاً، حين قال: إننا أرسلنا العديد من الرسائل إلى الغرفة التجارية الصناعية، ولكن أحداً لم يرد علينا!

خطر على ذهني حينئذ، ولماذا ترد الغرفة التجارية الصناعية؟ ولماذا يهتم أحد من رجال الأعمال (القروض) عندنا بمثل هذه العلاقة؟ إنهم مشغولون بكيفية الاستمتاع بالقروض على المستوى الشخصي، وإقامة الأفراح والليالي الملاح والقصور الفاخرة والحمامات التي تليق باقتراض مئات الملايين.

للإنصاف هناك بعض رجال الأعمال المصريين شرفاء، ويسعون لخدمة الوطن والصناعة والإنتاج، ولكنهم للأسف قلة نادرة، يعرفها الناس ويحترمونها..

تتدخل الحكومة التركية من خلال البلديات بإقامة مشروعات تجارية مربحة.. وترى أن ذلك لا يتعارض مع النهج الرأسمالي الحر.. على سبيل المثال تقوم بلدية استانبول بإدارة مجموعة مطاعم ضخمة في شتى أرجائها، تقدم وجبات جيدة بأسعار تقل كثيراً عن مثيلاتها في القطاع الخاص، وتحقق أرباحاً طيبة تضاف إلى ميزانية البلدية. بالطبع لا توجد عمليات فساد في هذه المطاعم، لأنها تسجل عمليات الإنتاج والاستهلاك إلكترونياً، والمتابعة مستمرة، والبقشيش ممنوع لأنه يمثل عاراً قومياً، وهو ما أكدته حكومة العدالة والتنمية.. ويلاحظ أن مستوى الخدمة في هذه المطاعم وغيرها مرتفع وسريع وراق.

في المجال السياحي تكتظ استانبول بالفنادق ووسائل المواصلات الجيدة التي تقهر الزحام، وسيارات الأجرة تتعامل بالعداد - العقبى لنا في مصر! - ويحرص السائق على رد ما يتبقى من الليرة، ولو كان ربع ليرة، لأنه لا يقبل البقشيش، أو «خللي الباقي علشانك»، كما يحدث عندنا، وهو سائق مؤدب مهذب طويل البال، ويتطوع بالسؤال عن المكان لو كان الضيف لا يعرفه جيداً

وتعتمد السياحة في استانبول على القادمين من أوروبا ومعظمهم شباب، والآتين من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، فهؤلاء يشعرون بصلة قومية بينهم وبين الأتراك، حيث ينتسبون جميعاً إلى القومية التترية التي توزعت في جمهوريات مختلفة بحكم العوامل السياسية.

ومن الطريف أن مصر تسهم في دعم السياحة في استانبول، فقد رأيت كتلاً ضخمة من السائحين يتحلقون حول مسلة مصرية في حديقة مسجد السلطان أحمد.. المسجد فخم به ست مآذن سابقة تنتهي مع عشرات القباب المميزة بأهلة ذهبية، ويعد من أكبر المساجد الإسلامية في العالم.. وقد بنى السلطان مسلة عثمانية من الحجارة توازي المسلة المصرية، ولكن الأخيرة تلمع تحت ضوء الشمس، ولم تتأثر بعوامل التعرية، وتجذب السائحين بقوة، فهي من الجرانيت الصقيل الذي يبهر من يشاهده، بينما تآكلت المسلة العثمانية، وسقطت أحجار كثيرة منها، ولا يقف عندها أحد، لأنها تبدو مثل الجدار الذي تذيبه الرياح والأعاصير والأمطار.

في استانبول مئات من الآثار التاريخية، عثمانية وغير عثمانية، وهي آية في الروعة والجمال، وتعد المساجد مفخرة الآثار الإسلامية بعامة، والعثمانية بخاصة، ويذكر أن العثمانيين لهم السبق في الاعتناء بالمساجد، وتعد عمارتها مفخرة لهم وتذكر في إيجابياتهم، وقد ارتبطت بالخط العربي الذي برع فيه كثير منهم، وزينوا به المحاريب والقباب، خاصة خط الثلث الذي كتبوا به آيات القرآن الكريم، بل سوراً كاملة.. ويروون حكاية طريفة عن خطاط تركي كتب سورة النور على إحدى القباب، وأصيب بالعمى وهو يكتب السورة، واستمر حتى أكملها! فضلاً عن كون العثمانيين مشهورين بنسخ القرآن الكريم بخطوطهم المميزة.

هناك جماعات دينية عديدة سلفية أو طائفية أو سنية تقوم بدور ما في تربية الأجيال الجديدة، ولكنها تتفق غالباً على الابتعاد عن السياسة أو الدخول في دهاليزها المظلمة، وتكتفي بالحرص على تأدية العبادات





ديلاكروا: دخول الصليبيين فى القسطنطينية

واستانبول ملتقى اوروبا وآسيا، ولذا لا تهدأ حركة السفر ذهابا وإيابا، مرورا بمطار أتاتورك الذى تم توسيعه وتحسينه واعتماده على الإلكترونيات والإنترنت. فلا يعانى المسافر من الوقوف أمام الجوازات، ولا فى البحث عن الحقائب، ولا التفتيش أمام بوابات الدخول.. والسيطرة الأمنية تتم بهدوء بعيداً عن العصبية أو التحرش العنصرى الذى نشاهده فى بعض المطارات العربية ضد العرب!

لقد انعكست الحركة الاقتصادية المزدهرة والانتعاش التجارى على الواقع الاجتماعى فى استانبول وغيرها، ويشعر الناس بتحسن ملموس فى شتى المجالات. حاولت أن اعثر على حفرة فى اى طريق او بلاعة مفتوحة. فلم اجد، وإصلاح الطرقات يتم ليلا وفى سرعة البرق، والسيارات فى المدينة لا يمكن أن يتجاوز عمرها ثلاث سنوات والبنوك تدعم شراء سيارات جديدة. أما القديمة فتباع لسكان المدن الصغيرة والقرى، او لتجار الخردة الذين يعيدون تصديرها إلى دول «نامية»!. لذا لا تجد هواء ملوثا أو دخاناً منتشراً فى شوارع استانبول. بل تجد زهوراً ملونة فى كل مكان. حتى الرصيف يزرعونه وروداً وأزهاراً. ولا يزرعونه «أكشاكا» وسلاسل حديدية و«فاترينات» تجارية.. فضلاً عن العنصر الرئيسى الذى لا يمكن نسيانه أبداً، وهو النظافة.. نظافة الطريق والسيارة والمنزل والفندق والمؤسسة والحمام والمطعم والطعام.. لم أشعر بمغص طوال أسبوع اقمته فى استانبول. لماذا؟

الإصلاح المادى فى تركيا عامة، واستانبول خاصة بوصفها العاصمة التاريخية والتجارية والاقتصادية. يستوجب أن نبعث ببعض أصحاب الضمير فى بلادنا ليدرسوا كيف نهضت استانبول؟ وقد حاولت ان التقى برئيس البلدية لأسأله هذا السؤال فوجدته مشغولا فى الوقت الذى كان متاحا لى بالبقاء فى المدينة. ولكنى أستطيع القول إن العنصر الاساسى فى النهوض هو محاربة الفساد. كما سبق الإشارة. وهذه المحاربة هى السبب الرئيسى الحقيقى فى الاتهام الذى وجهه النائب العام لحزب العدالة والتنمية من أجل حله وحظر العمل السياسى على قادته السبعين. فقد طالت محاربة الفساد رءوسا كبيرة تنتمى الى المنظمة السرية الشهيرة «جلاديو» التى تتكون من ضباط سابقين ورجال أعمال فاسدين وسياسيين فاشلين، وتسعى لإحكام سيطرتها على الاقتصاد والسياسة ويدعمها حلف الاطلنطى، وليس السبب ما أعلنه

إن تركيا الراهنة، تغيرت وتجددت، بفضل إصلاحات حزب «العدالة والتنمية» فى شتى المجالات



النائب العام عن تأليف إحدى المدرسات المنتميات إلى حزب العدالة والتنمية كتيباً عن فرائض الصلاة، وهو ما يخالف المنهج العلمانى. إن الضربات التى أنزلتها حكومة العدالة والتنمية بالفساد أطارت صواب الفاسدين، لذا اتخذوا من قضية العلمانية متكأ يستندون عليه فى مواجهة الحكومة الجادة التى تسعى إلى توسيع مساحة الحريات وكسب المزيد من الحقوق الإنسانية للأتراك.. وكان من الواضح أن قضية الحجاب، وموافقة مجلس النواب على ترك الحرية للنساء فى ارتداء الحجاب وعدم حرمانهم من التعليم مدخلاً للهجوم على حزب العدالة والتنمية وتهييج اليسار، للتظاهر ضد قانون الحجاب، وقد نظموا مظاهرة مليونية تحركت من ميدان تقسيم الشهير، شارك فيها العلمانيون واليسار والماسون، ونددوا بالحكومة والحزب والقانون جميعاً، ولكن الحكومة كانت أذكى، حين تجاهلت الأمر، ولم ترد على المظاهرة بمظاهرة مماثلة أو أكبر!

الحصول على مزيد من الحرية للشعب التركى هدف رئيسى من أهداف العدالة والتنمية، لأنه يرفع عنهم سطوة الاستبداد السياسى والفكرى، ويفتح الآفاق العقلية للتفكير الحر والإيمان الحقيقى والمشاركة الفعالة، ويهيئ لكرامة إنسانية حقيقية، لا تنتهكها قوة مستبدة، أو هيئة تكره العدل والمساواة.. ولعل إصرار حكومة العدالة على الالتحاق بالاتحاد الأوروبى مع أنها متأكدة أنه لن يقبل تركيا عضواً فيه، وسبق لبعض أعضائه أن أعلنها صراحة «أن الاتحاد الأوروبى نادٍ مسيحى!»، فإن الهدف الحقيقى، هو استخدام الاتحاد أداة فعالة لتمرير القوانين المؤكدة للحريات والمعززة لها، حتى يمكن التخلص من قبضة العسكر الأتراك، وحلفائهم فى القضاء والتعليم العالى والإعلام والأحزاب العلمانية.. إن تاريخ المؤسسة العسكرية مع الحريات لا يشرف، وسبق أن قامت بانقلابات عديدة، وأجرت إعدامات لرجال كثيرين بحجة مخالفة العلمانية أو النظام العلمانى.. ويروى أن أحد أعضاء مجلس النواب التركى تلفظ بعبارة «ما شاء الله» وهى عبارة دارجة على ألسنة الأتراك، فتم تحويله إلى التحقيق، وتهديده بفقدان عضويته فى المجلس الموقر!

التحرر من سطوة القبضة العسكرية بداية الطريق لبناء الإنسان التركى بناء جديداً حقيقياً، لأنه يخلصه من سعار «العلمانية المتوحشة» التى لا مثيل لها فى العالم.. وتخيل بلداً كان عاصمة للإسلام والمسلمين يحرم على مواطنيه النطق بالبسملة فى المؤسسات الرسمية، وكتابتها فى الخطابات الحكومية.

ولا شك أن الحكومات التركية منذ حكومة عدنان مندريس وجلال بايار اللذين دفعا حياتهما مقابل السماح بالأذان فى المساجد (أعدم الأول وخفف الإعدام عن الثانى إلى السجن المؤبد) قد تراخت قبضتها قليلاً عن الشعائر الدينية والدعوة الإسلامية، وإن كانت الصرامة والحزم داخل المؤسسات الرسمية أقوى من ذى قبل، ضد أى مظاهر إسلامية.

طلبت من مضيفى أن أذهب إلى ميدان «تقسيم» الشهير، الذى يعد قلب استانبول، ولأول مرة ألمح على وجوههم بعض التجهم دون أن ينطقوا بكلمة! لم أدرك السبب الذى دفعهم إلى التجهم، مع أنهم كانوا يرحبون بالذهاب إلى كل مكان طلبته.. سألت الزميل الذى يشترك معى فى المؤتمر فأخبرنى أن هذا الميدان له سمعة غير حسنة لدى الأتراك. فهو مجمع «التغريب» ومنه ينحدر أشهر شوارع استانبول، وهو شارع الاستقلال الذى يغص بالسائرين على مدى اليوم والليلة، ويمتلئ بالخمارات وأوكار القمار والانحلال والشذوذ، ويترنح فيه السكارى، وينتشر اللصوص، ولكن زيارتى له ولميدان «تقسيم» هذه المرة، كانت مختلفة. فقد رأيت سيارات الشرطة يكتظ بها الميدان والشارع، وتبدو الأمور أكثر انضباطاً، حيث يتم تطهيرها أولاً بأول من كل مظاهر الخلل، وهناك أساليب غير مباشرة تتخذها السلطات للتضييق على المنحرفين والحد من نشاطاتهم

وللمدارس الدينية (مدارس الأئمة والخطباء) دور كبير فى تغيير البنية المعنوية للشعب التركى، وبناء الإنسان المسلم هناك بناء جديداً، بعيداً عن التغريب أو التفرنج الذى تم تعميمه عقب سقوط الخلافة عام ١٩٢٤م.

تستوعب هذه المدارس أعداداً كبيرة من البنين والبنات، وتهتم بتعليم القرآن الكريم والشريعة الإسلامية والعبادات، ويلتحق خريجوها بالتعليم العام والكليات المختلفة، ويستوعب التعليم الخاص أعداداً لا بأس بها من هؤلاء، وبعضهم - وخاصة البنات - يلتحق بجامعات أجنبية فى العواصم الأوروبية وأمريكا، لأن الحجاب ممنوع فى الجامعات التركية. وبعض البنات يخلعن الحجاب على باب كلياتهن فى تركيا إذا لم يستطعن الذهاب إلى الغرب.. ومازال كثير من الجامعات التركية يعترض على تنفيذ قانون السماح للمحجبات بالدراسة الجامعية، لأن مجلس التعليم العالى قرر الاعتراض رسمياً أمام المحكمة العليا التى لم تفصل فى الأمر بعد.

هناك جماعات دينية عديدة سلفية أو طائفية أو سنية تقوم بدور ما فى تربية الأجيال الجديدة، ولكنها تتفق غالباً على الابتعاد عن السياسة أو الدخول فى دهاليزها المظلمة، وتكتفى بالحرص على تأدية العبادات، والإعداد لموسم الحج، والابتعاد عن مجتمع التغريب بقدر الطاقة. وهذه الجماعات هى التى حفظت جمرة الإسلام مشتعلة حتى اليوم، بعد أن حاول «أتاتورك» إخمادها وإطفائها بالمشانق والسجون والمعتقلات والإعلام الموالى له.



«أعوذ بالله من الشيطان والسياسة!»

تنسب هذه العبارة إلى بديع الزمان النورسى (١٨٧٣ - ١٩٦٠م) صاحب «رسائل النور» التى انعقد حولها المؤتمر العلمى الدولى الذى شاركت فيه بورقة. والعبارة تمثل الوجه الآخر لعبارة الإمام «محمد عبده»: لعن الله ساس ويسوس وسياسة، التى عبر عنها بمعنى آخر حين أشار إلى أنه رأى فى الغرب إسلاماً بلا مسلمين، وفى الشرق مسلمين بلا إسلام..

غاية الرجلين واحدة فيما يبدو.. وهى فقدان الأمل فى تحقيق غايات الأمة من خلال السياسة السائدة وألاعيبها الماكرة التى تصنعها الأنانية والبغضاء والفرقة، وهى بالتأكيد لا تشبه السياسة فى الغرب التى تقوم على التخطيط والعمل والتكامل لتحقيق الآمال الوطنية والقومية.

اتجه الرجلان إلى بناء الإنسان من داخله، أو تربيته تربية إسلامية تقوم على الإيمان والإخلاص والجد والقيم المضيئة.. وإذا تربى المجتمع هكذا فلا حاجة للثورات أو العنف أو التغيير بالقوة، لأن كل شخص سيفعل ما يمليه عليه ضميره اليقظ الواعى.

وكانت لبديع الزمان نصيحة لأتباعه بعدم الاعتماد على السياسيين فى الإصلاح، لأنهم لن يحققوا شيئاً يذكر، وقد تأكدت نصيحته، حينما خالفه بعضهم، وانغمسوا فى العمل السياسى فأخفقوا إخفاقاً ذريعاً، وكان هؤلاء قد أيدوا الرئيس السابق «سليمان ديميريل»، ولكنه حين وصل إلى الحكم فاجأهم بما لا يحبون، بل إنه قال لهم: إن القرآن قد انتهى أمره، اتركوا القرآن كله!

وبديع الزمان النورسى، من أبرز رجالات الدعوة الإسلامية، فسر القرآن الكريم تفسيراً يعتمد على العقل ويخاطب القلب، فى ظل ظروف من أصعب الظروف التى مر بها شخصياً، ومرت بها تركيا، فقد أنجز تفسيره فى أربعة عشر مجلداً ضخماً، وتركيا تحارب الروس وكان مجنداً ضمن الجيش التركى، وأكمله وهو منفى فى قرية بعيدة تسمى «بارلا» تبعد عن «إسبرطة» حوالى أربعين كيلو متراً، تحيطها الجبال والمياه، وتقع فوق مرتفع من الأرض لا زرع فيه، وظل ثمانى سنوات ونصف سنة فى منفاه، يتخذ لنفسه مجلساً فوق شجرة من أشجار الشتار الضخمة، يكتب فيه التفسير ويعبد ربه، لقد انتهى نفيه حوالى سنة ١٩٣٣، ولكنه لم يسلم بعده من الاعتقال والسجن حتى رحيله.

اتسم بديع الزمان بسمة الشجاعة، والخوف من الله وحده، وقد تعرض لمواقف صعبة كادت تودى بحياته، ولكنه لم يتزعزع، أو يستسلم. ففى أثناء الحرب مع روسيا، دخل الجيش الروسى مدينة «بتليس» وكان النورسى ضمن الأسرى، فجاء خال القيصر، وهو القائد العام للجبهة ليزور معسكر الأسرى فى «قوصتورمة» شرقى روسيا، وقام الأسرى تحية له إلا بديع الزمان، ولاحظ القائد العام للجبهة ذلك، فرجع مرة أخرى أمامه، ولكن النورسى لم يعره اهتماماً، فغضب القائد، وقال له:

- يبدو أنك لا تعرفنى!

فأجابه بديع الزمان:

- لا.. إننى أعرفك.. إنك خال القيصر والقائد العام.

- إذاً، فلم تحتقرنى؟

- لا.. إننى لم أحتقر أحداً. ولكننى فعلت ما تأمرنى به عقيدتى ومقدساتى.

- وبماذا تأمرك عقيدتك؟

«إسبرطة» لا تقل جمالاً عن «استانبول»، فالزهور والورود تحوطها من كل جانب، وقد أصر بعض المضيفين على إهدائى وردة بيضاء كى أتذكرها، وإن كنت لا أنساها بحكم أنها تملك أكبر مطبعة للقرآن الكريم فى العالم



- إننى عالم مسلم، وفى قلبى إيمان، والمؤمن أفضل من عديم الإيمان، إن قيامى لك ابتذال لعقيدتى ومقدساتى، ولذا لم أقم لك.

- إذا، فهذا يعنى أننى عديم الإيمان، وبذلك تكون احتقرتنى، واحتقرت جيشى، واحتقرت أمتى، واحتقرت القيصر، لذا يجب تشكيل محكمة عسكرية لاستجوابك

وتشكلت المحكمة، ورغب كثير من الأسرى الأتراك والنمساويين والألمان حمل بديع الزمان على الاعتذار الى القائد، ولكنه رد قائلاً:

- إننى أرغب فى الرحيل إلى الآخرة، والوصول إلى حضرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم، وأنا فى حاجة إلى سمر للذهاب إلى الآخرة، ولا أستطيع أن أفعل ما يتعارض مع إيمانى.

ساد الحزن معسكر الأسرى، وصدر الحكم بإعدام بديع الزمان!. وفى يوم التنفيذ حضر الجنود بقيادة ضابط لأخذه إلى ساحة الإعدام، فطلب بديع الزمان أن يمهلوه خمس عشر دقيقة ليتوضأ ويصلى، وحينذاك خاطبه القائد العام بقوله.

- كنت أعتقد أنك بفعلك هذا تقصد إهانتى والتحقير من شأنى، ولكننى الآن أفهم أنك بتصرفك هذا كنت تؤدى ما تأمرك به عقيدتك. لذا فقد ألغيت قرار المحكمة، وأقدرك لتقواك وورعك، وأرجو قبول اعتذارى عما بدر منا من مضايقات لك.

إن عزة المؤمن تتجلى فى هذا الموقف، وفى مواقف أخرى، منها موقفه مع «أتاتورك» حين دعاه للانضمام إلى قادة الاستقلال فى أنقرة، وقد لاحظ بديع الزمان أن معظمهم لا يؤدون الصلاة، كما أن سلوك «أتاتورك» وتصرفاته المعادية للإسلام أحزنته كثيراً، فكان أن أصدر بياناً فى ١٩/١/١٩٢٣ ضمنه نقاطاً عديدة، أسفرت عن عودة ستين نائباً إلى دينهم وإقامتهم الصلاة، وحدثت مواجهة بينه وبين «أتاتورك» انتهت إلى قوله له: («باشا.. باشا» إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإيمان هى الصلاة، وإن الذى لا يصلى خائن، وحكم الخائن مردود)!

فكر أتاتورك فى إبعاد بديع الزمان عن أنقرة بحجة تعيينه واعظاً عاماً للولايات الشرقية، وبمرتب مغرٍ، ولكنه رفض الطلب!

وعاش النورسى مطارداً منفياً، ولكن أتباعه كانوا يتزايدون، ويتحركون فى صمت وخفية إلى أن جاء «تورجوت أوزال» الذى خفف قبضة الدولة بعض الشىء عن العمل الإسلامى الشعبى، فنمت حركتهم التى تقوم على نشر «رسائل النور» ومدارستها فى حلقات، مع حفظ ما تيسر من القرآن.

و«رسائل النور» تعتمد فى تفسيرها على الإقناع الحى الذى يقوم على الشواهد والأدلة والتمثيل، وتتمتع الرسائل بأسلوب مشرق ملىء بالصور المبتكرة التى تتسلل إلى القلب مباشرة، وقد دارت حولها دراسات كثيرة، أجمعت على أهميتها ودورها المؤثر.

فى عهد «أتاتورك» كان طبع الكتب الإسلامية محظوراً، والكتابة بالحرف العربى (العثمانى) محظورا، فتغلب طلاب «رسائل النور» على ذلك بنسخها بخط اليد بالحرف العربى، ونشرها فى الأقاليم، وكان كتابها يسمون «النساخ»، ودارسوها يسمون «القراء».. وظل الامر كذلك حتى سمح بطبع الكتب الإسلامية، فأقيمت أكبر مطبعة للمصحف الشريف فى تركيا، بل فى العالم الإسلامى بمدينة «إسبرطة»، التى يقيم بها «سعد النورى» الذى يقوم على رعاية «رسائل النور» بعد موت الراعى السابق «أحمد خسرو باشا» خليفة النورسى

وسعد النورى، تجاوز السبعين، ويتمتع بحيوية ونشاط، ولا يقبل الهدايا، ويعيش متواضعاً، يأكل من عرق يده، حيث يقوم على مزرعته التى تجاور مطبعة القرآن الكريم بنفسه، وهو يمثل الزهد فى أرقى صوره، منطلقاً من «رسائل النور» وتفسيرها للقرآن الكريم. انه يتسق فى ذلك، مع منهج بديع الزمان وطلاب «رسائل النور» الذين يقمعون شهوة الأنانية وحب الذات وطلب الدنيا، انطلاقاً من قوله تعالى: «إن أجرى إلا على الله» (هود: ٢٩) وهو منهج الأنبياء الذين تتملكهم رغبة إصلاح العالم دون مقابل إلا رضا الله سبحانه وتعالى.

إن طلاب «رسائل النور» فى تركيا يتلقون تربية روحية وعملية لتصفية نفوسهم من الشوائب والرذائل، وإقامة الدين، ومساعدة الآخرين دون انتظار مقابل، ومن نماذجهم المشرقة: عمال «مطبعة القرآن الكريم» الذين استوعبوا الرسائل، وثبت حسن خلقهم وسلوكهم، وحصلوا معرفة علمية عالية، وأهلتهم للقيام بهذه المهمة الجليلة خير قيام..

إنهم لا يدخلون المطبعة إلا متوضئين ويستمرون فى عملهم بدأب وهمة ونشاط ويقومون على طبع المصحف بدءاً من غلافه الكرتون المذهب حتى صفحاته المطبوعة بالخط العربى العثمانى، وخروجه فى علبته الانيقة الجميلة.

لقد شاء الله أن تكون «إسبرطة» مركزا لليقين الإسلامى، ممثلا فى القرآن الكريم، بعد أن شهدت فى التاريخ القديم مهارشات الفلاسفة حول قضايا هامشية أو ترفية لا تفيد احدا ولا تنفع مخلوقا

و«إسبرطة» لا تقل جمالا عن «استانبول».. فالزهور والورود تحوطها من كل جانب، وقد أصر بعض المضيفين على إهدائى وردة بيضاء كى أتذكرها، وإن كنت لا أنساها بحكم أنها تملك أكبر مطبعة للقرآن الكريم فى العالم

وإسبرطة كانت مجال العمل الرئيسى لأول خليفة لبديع الزمان النورسى، وهو «أحمد خسرو باشا»، وكان من أغنى أغنياء تركيا، وقد أنفق أمواله على نشر «رسائل النور»، بوصف ذلك نقلا للحقائق القرآنية إلى أرض الواقع، كما أراد مؤلف الرسائل، محتسباً أجره عند ربه. إن بعض من يدخلون مجال الدعوة الإسلامية يتحولون من فقراء إلى أغنياء. أما أحمد خسرو وتلاميذه، فهم ينفقون، ويرضون بعيشة الكفاف، لأنهم واثقون أن الدعوة عطاء وليست أخذاً، وأنهم يعمرون الدنيا من أجل الآخرة، ودستورهم الدائم، هو الاستغناء وعدم طلب شىء من الآخر والأجر من الله {اتبعوا من لا يسألكم أجرا..} (يس: ٢١)، ومن هذا المنطلق فإنهم لا يتفاعلون مع «الميديا»، ولا يحبون الظهور فى وسائل الإعلام؛ لأن ذلك لا يتناسب مع دستور «رسائل النور» الذى يحبذ «إنكار الذات» من أجل إصلاح المجتمع عن طريق إصلاح الإنسان أولاً، واعتقادهم الراسخ يكمن فى أن من لا يستطيع إصلاح نفسه، لا يستطيع إصلاح أحد.

ثم إنهم فى كل الأحوال، يأخذون بالأسباب، ويتركون النتائج على الله. ولاشك أن تغيير بنية الإنسان التركى من التغريب إلى الإسلام، تأخذ بعدا مهماً، يتمثل فى ذلك الاهتمام الكبير لدى طلاب «رسائل النور» والجماعات الإسلامية الأخرى، بالشعائر الإسلامية والعبادات والسلوك الاجتماعى عبر التضامن والإيثار وخدمة الآخرين.

وقد صليت الجمعة فى مسجد السلطان أحمد، فرأيت جموعا غفيرة تحرص على الذهاب إلى الصلاة قبل الخطبة بوقت طويل، وتستمع إلى الخطبة بلغة عربية فصحى جميلة فى جزئها الأول، ولغة تركية تتخللها العربية عند تلاوة الآيات وقراءة الأحاديث فى جزئها الثانى.. والمفارقة أن السائحين الأجانب وقفوا أمام المسجد يشاهدون شعائر صلاة الجمعة، وعلى وجوههم أسئلة صامتة لا تخطئها العين أو الملاحظة السريعة.

ثم إن الأذان يمثل ملمحاً مهماً من ملامح الاهتمام المتزايد بالإسلام، وصوت المؤذن التركى يجمع إلى الجمال الجلال، وفيه إخلاص يستشعره القلب. وأخبرنى بعضهم أن أذان الصلوات الخمس تختلف طبقاته الصوتية، أو مقاماته الموسيقية، فأذان الفجر تختلف نغماته عن نغمات صلاة الظهر، وهكذا.. ويحتشد المؤذن للأذان، كأنه يقوم بمهمة استثنائية تاريخية

لقد صارت إسبرطة مركز نشر القرآن الكريم بالخط العربى العثمانى الجميل الذى نسيه الأتراك عشرات السنين، واستعادة الجمال فى الخط والزهور والورود، عنصر اساسى من عناصر البناء الإنسانى فى إسبرطة واستانبول وغيرهما من المدن والقرى التركية التى تنعم بغابات طبيعية خضراء، تظل خضرتها على مدى العام.

قال لى بعض المرافقين إن استانبول استعادت عصر «اللالا»، و«اللالا» هى زهرة «التوليب» التى استوردها السلطان أحمد من أوروبا فى سياق اهتمامه بالشعر والفنون، فصارت مدينة الزهور بامتياز، شوارعها وحدائقها، شواطئها وهضابها وأوديتها ومبانيها الرسمية ومؤسساتها وبيوتها وقصورها وقد دعت البلدية المواطنين والتجار إلى تحويل كل مساحة ممكنة إلى أماكن مزروعة بالزهور. وتقيم مسابقة سنوية لأجمل مكان مزهر وأجمل زهرة متألقة فى استانبول.

إن البسفور يشهد عصراً جديداً لمدينة تتجدد، شكلاً ومضموناً، إنساناً وشجراً وحجراً، وتلك سمة الشعوب التى تستجيب للنهوض وتسعى إلى الحركة. ■

استانبول استعادت عصر «اللالا»، و«اللالا» هى زهرة «التوليب» التى استوردها السلطان أحمد من أوروبا فى سياق اهتمامه بالشعر والفنون، فصارت مدينة الزهور بامتياز، شوارعها وحدائقها، شواطئها وهضابها وأوديتها ومبانيها




يوسف القرضاوى



خالد محمد خالد



محمد الغزالى

سيد سابق

الخارجون عن الإخوان

لم تكن دوافع وأسباب الخروج من جماعة الإخوان واحدة، فقد كانت متعددة، وأغلبها بنى على مواقف فكرية، سواء كانت مرتبطة بموقف انفعالى، أو موقف مدروس نتيجة محنة دفعت بأصحاب المواقف لاتخاذ قرارهم

عصام تليمة

لماذا هذه الدراسة؟

■■ ليست بغية هذه الدراسة أن تنبش فى الماضى لتخرج ما فيه من سقطات أو أخطاء بهدف النيل أو التجريح من جهة ما، أو لحساب جهة على أخرى، إنما هدفها أن تنظر إلى الماضى نظرة فاحصة، مستخرجة الدروس والعبر، مستلهمة منه ما يعين على فهم الحاضر، واستشراف المستقبل، وطى صفحة غدت فى بطن الغيب بين يدى الخالق جل وعلا، بما فيها من حسنات وسيئات، ولكى لا ننسف المستقبل لصالح الماضى، ولكى لا يتكرر الخطأ فى التعامل مع الناس، وتناسى أقدارهم وعطائهم، وحسن تصنيفهم تصنيفا يقوى الجماعة الوطنية ولا يضعفها، وينهض بالفكر الإسلامى، ويغذيه بروافد عديدة لا يشترط أن تخرج من معين دعوى وفكرى واحد.

وقد اخترت الذين خرجوا من الإخوان بناء على موقف أو خلاف فكرى، سواء فى فكر الإخوان، أو فى فكر إدارة الجماعة، وابتعدت عن الانشقاقات القائمة على أسباب سياسية أو شخصية، أو ما شابهها، لسببين مهمين:

أولهما: لأنه يصعب فيها أن يخرج الباحث بنتيجة بحثية تنتهى بحكم صائب، أو بتخطئة رأى وتصويب آخر، إذ هى غالبا ما تكون فى أمور إدارية تنظيمية سرية بحتة.

ثانيهما: أنه يصعب أن يسمع الباحث من الطرفين، ففيها أمور تنظيمية قد يخص طرف منها ما لديه فيها، بما يمثل ذلك من حساسية فى إخراجها للنشر لأصحاب الشهادات، أو اتهام للباحث بتلقيه المعلومة من جهات أمنية مما يشكك فى نزاهة الباحث والبحث.

دوافع الخروج من الإخوان:

لم تكن دوافع وأسباب الخروج من جماعة الإخوان واحدة، فقد كانت متعددة، وأغلبها بنى على مواقف فكرية، سواء كانت مرتبطة بموقف انفعالى، أو موقف مدروس نتيجة محنة دفعت بأصحاب المواقف لاتخاذ قرارهم، أو تأمل الخارج منهم إلى مآلات الأمور ففكر فى وسيلة أخرى يعمل بها دون صدام مع الجماعة أو النظام القائم، وقد حصرتها فيما يلى:

١- سبب فكرى:

فمن الأسباب ما كان فكريا، حيث اختلف مع الإخوان فى التوجه، أو اتفق معهم فى الغاية، وهى إقامة دولة إسلامية، والعودة بالمجتمع إلى الإسلام، ولكنه اختلف فى الوسيلة والأداة التى يتغير بها المجتمع، أو ينصلح حاله بها، فمن هؤلاء: جماعة شباب محمد، وقد انشقوا عن الإخوان فى عهد حسن البنا وكان السبب أنهم اتهموا الإخوان بالتخلى عن واجب الجهاد، وتغيير المنكر باليد، ومنهم: سامى على النشار، صاحب (التفكير الفلسفى فى الإسلام) وغيره. وقد كان بعض هؤلاء انضم لحزب مصر الفتاة، وشاركوا معه فى حادث تحطيم الحانات، سنة ١٩٣٨م، والذى تراجع عنه أحمد حسين بعد ما يقرب من أربعين عاما فى مقال له فى مجلة الأزهر سنة ١٩٧٨م.

٢- الاقتناع بوسائل أخرى للعمل:

ومنهم من اقتنع بوسيلة أخرى يخدم بها الإسلام، وهى وسيلة التحالف مع السلطة، وعدم الصدام بها، واغتنام الفرصة التى تمنحه إياها من حيث إطلاق يده فى وزارة معينة، أو منصب يمارس فيه مهامه التى يخدم فيها الإسلام، ومن أبرز هؤلاء شخصيتان لهما ثقلهما فى جماعة الإخوان المسلمين بوجه خاص، وفى الفكر الإسلامى بوجه عام وهما: الشيخ أحمد حسن الباقورى، والدكتور عبد العزيز كامل، فكلاهما تولى وزارة الأوقاف فى عهد جمال عبد الناصر.

أما الشيخ أحمد حسن الباقورى، فقد اقتنع بأنه عن طريق توليه منصب وزير الأوقاف يستطيع أن يخدم الدعوة والإسلام أكثر من تواجده فى تنظيم الإخوان، وقد طلب جمال عبد الناصر ورجال ثورة يوليو من الإخوان أن يرشحوا لهم أربعة لتولى وزارات فى حكومة الثورة، فرشحوا أفرادا ليس منهم الباقورى، ورشحت الثورة الباقورى لوزارة الأوقاف، فقبل الباقورى، ورفض مكتب الإرشاد العرض، فخالف بذلك الباقورى رغبة الإخوان، فقدم استقالته من الجماعة.

وقد سأل أحد الصحفيين الشيخ



احمد حسن الباقورى





عبد العزيز كامل



صلاح أبو إسماعيل

متى وكيف ولماذا؟

الباقورى وزير الاوقاف عن أسباب استقالته من الإخوان، فقال: (هى أسباب أحب ان أوثر بها نفسى، وليس من بينها سبب واحد يمس احترامى لإخوانى، واعتزازى بهم، فكل واحد منهم صغيرا كان أو كبيرا فى أعمق مكان من قلبى)[1].

وبالفعل كان للباقورى انجازات قوية فى وزارة الاوقاف، وكان له دور مع شباب الإخوان الذين عارض الأمن تعيينهم، وكان من هؤلاء عشرة من خريجى الازهر، المعينين على وظيفة إمام وخطيب، ورفض الأمن تعيينهم لانتمائهم لجماعة الإخوان، وإذ بالباقورى يفاجئ الجميع بتعيينهم على مسئوليته الشخصية. وكان من بين هؤلاء العشرة: يوسف القرضاوى، وأحمد العسال[2]، وقام الباقورى كذلك بخدمات لعدد من الإخوان المسلمين، ورفع الظلم عن بعضهم، كما يشهد بذلك مؤرخ الإخوان محمود عبد الحليم[3]، حيث قال عنه: هذه المفاجأة المؤلمة والتى انتهت بفقد الدعوة لأحد أبنائها الكبار لم تفقد المرشد العام - من ناحية - حبه الشخصى لهذا الأخ، كما أنها - من الناحية الأخرى - لم تفقد هذا الأخ الكبير حبه وتقديره للمرشد العام.. ثم قررت بدورى أنها لم تفقدنى حبه.. وأوردت أمثلة لتصرفات تومئ إلى أن هذا الأخ وإن فقد موقعه فى الدعوة، فإنه حاول جاهدا أن يعمل للمبادئ التى تعلمها فى الدعوة، والمثل التى أشربها فى موقعه الجديد[4].

أما د.عبد العزيز كامل والذى كان يسميه حسن البنا: ابن الدعوة (أى دعوة الإخوان) البكر، فقد كان مسئولا عن قسم الاسر، ولما حدث الصدام بين عبد الناصر والإخوان فى ١٩٥٤م وسجن فى السجن الحربى، كان يدون كشوف الأسماء، فقد كان خطه جميلا، ويتقن ادارة الامور المعيشية فى السجن، فاستخدمه المسئولون عن السجن الحربى فى ترتيب أموره[5] وكتابة كشوف الأسماء وغيرها، مما جعل له مكانة عندهم تقدر فى بعض الأحيان[6] وخفف عن كثير من الإخوان التعذيب، لما له من مكانة عند مسئولى السجن.

ولكنه تأمل فى حال الدعوة وهو فى السجن الحربى، وطال تفكيره، فانتهى به إلى أن ينهج نهجا آخر فى العمل الدعوى، وصارح بذلك أحد تلامذته[7] وقد سألت هذا التلميذ عن سبب قرار عبد العزيز كامل ترك العمل مع الإخوان، فذكر: أن عبد العزيز كامل لم يكن يحب ـ بعد حبه لله ورسوله ـ أحدا كأمه، فجاءوا بها له فى المعتقل، وهددوه بها، فكان هذا سبب انهيار الرجل[8]، وتفكيره فى البحث عن وسيلة أخرى يعمل للإسلام بها، غير التواجد فى تنظيم الإخوان المسلمين، وخرج عبد العزيز كامل من السجن، ثم بعد ذلك تولى وزارة الأوقاف فى عهد عبد الناصر.

٣ـ تجنيب الدعوة الصدام مع السلطة:

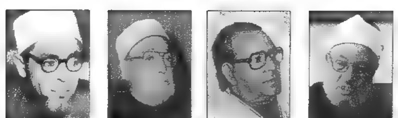
وممن ترك الإخوان وكان بناء على رأى عنده، فئة أخرى، رأوا ما رأوا من بوادر صدام حاد، يلوح فى الأفق، وينذر بصدام دموى شديد بين الثورة والإخوان، وتحديدا بين جمال عبد الناصر والإخوان، ففكر فى أن ينأى بنفسه بعيدا عن هذا الخلاف الشديد، ويبحث عن ميدان للعمل يخدم فيه الإسلام، بعيدا عن العمل التنظيمى فى الإخوان، ومن هؤلاء: الاستاذ البهى الخولى، وهو من جيل حسن البنا، وأستاذ القرضاوى، فقد رأى العلاقة بين الإخوان وعبد الناصر تصل الى مرحلة احتقان شديدة، وكان رأيه ـ كما حكى لى الشيخ القرضاوى ـ أن على الجماعة أن تكتفى بما قدمت من تاريخ مشرق، وتنسحب من العمل السياسى، حتى لا يشوه تاريخها، وما قدمته، وفعلا قرر البهى ترك التنظيم وقد كان لعلاقة البهى الخولى السابقة بالإخوان فضل فى تخفيف شدة الاحتقان ـ بعض الشىء ـ بين عبد الناصر والإخوان، خاصة مع بعض افرادهم ممن لم يكن بينهم وبين عبد الناصر شخصيا خلاف، كما كان للبهى الخولى ابن يعمل ضابطا فى السجن الحربى ـ اسمه مجيد ـ وكان يخفف عن مسجونى الإخوان[9].

٤ـ الضعف وعدم تحمل آلام السجن:

ومنهم من كان سبب تركه للإخوان تنظيما لا دعوة، بسبب ما لاقاه من التعذيب فى السجن، أو من رأى أن وجوده فى السجن ليس لصالح الدعوة، وماذا عليه لو أنه أرسل برسالة استعطاف لجمال عبد الناصر، أو رسالة تأييد له فى الحكم، وهو ما اشترطته الثورة آنذاك لمن أراد الخروج من السجن، ومن هؤلاء عدد غير قليل من الأزهريين، وهو ما ترك صورة ـ لا زالت إلى الآن عند هذا الجيل من قدامى الإخوان ـ سيئة عن الأزهريين عند بعض الإخوان، وقد كانت الثورة أعلنت أن من يرسل رسالة تأييد لعبد الناصر يفرج عنه، فقررت جماعة الإخوان أن من يرسل رسالة تأييد يعتبر مفصولا من الإخوان، أو مستقيلا منها، وقد كان من هؤلاء الذين أرسلوا رسالة لعبد الناصر: الشيخ صلاح أبو إسماعيل.

ولم ينضم أبو إسماعيل لجماعة الإخوان المسلمين فى عهد حسن البنا، رغم أنه سمعه كثيرا، واعجب به، ولكنه انضم عندما سمع كلمة من عبد القادر عودة وهو يخطب فى جمع من الإخوان المسلمين، فسمعه يقول: مصر دولة نيابية، فلو استطعنا ان ندخل الى المجلس النيابى بكثرة، لوصلنا إلى تغيير ما نريد حسب خطتنا الإسلامية، فاقتنع صلاح أبو إسماعيل فى هذا اليوم بأن ينضم إلى جماعة الإخوان المسلمين تنظيميا، وكان ذلك فى أوائل الخمسينيات، ونشط الشاب صلاح أبو إسماعيل، الذى عمل فى قسم الطلاب بالجماعة، وتحديدا فى كلية اللغة العربية بجامعة الازهر، وكانت له جهود فى الجهاد فى القناة ضد الإنجليز، وقام ببعض الأعمال الفنية، وكان عضوا فى مسرح الإخوان المسلمين، بل كان فتى الفرقة الأول، نظرا لما يتسم به من فصاحة فى اللسان، ووسامة فى الوجه، مع قامة فارعة، وقوام طويل، وقد قام بدور (هرقل) فى إحدى مسرحيات الإخوان.

ثم اعتقل الشيخ صلاح أبو إسماعيل مع الإخوان فى الخمسينيات، وقد فتح باب الإفراج عن المعتقلين من الإخوان المسلمين لمن يرسل رسالة تأييد للرئيس جمال عبد







"الخارجون عن الإخوان"

الناصر، فأرسل رسالة من داخل المعتقل، كتب في مقدمتها: من المعتقل صلاح أبو إسماعيل إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر[11].

ومع خروج الداعية صلاح أبو إسماعيل من المعتقل فور إرساله الرسالة، تسلم عمله في الأزهر، ثم برز دوره الدعوي، وتمرس في العمل السياسي النيابي، فدخل مجلس الشعب، وكان من أوائل الإسلاميين الذين مارسوا العمل السياسي، ولما خرج الإخوان من السجون، وبدأوا يدخلون الانتخابات، بدأ شباب الإخوان يتساءلون: ما موقع صلاح أبو إسماعيل التنظيمي؟ وهل هو من الإخوان أم لا؟ فقطع الشيخ بلباقته المعروفة الطريق على كل من يساوم بهذا الأمر قائلا: لو أخرجني الإخوان من الباب لدخلت إليهم من الشباك، بل استفادت جماعة الإخوان بجهد صلاح أبو إسماعيل السياسي، مما جعل شابا من شبابها ينجح معه على نفس قائمته، وهو الدكتور عصام العريان، ليصبح بذلك أصغر عضو في مجلس الشعب وقتها

٥. الخلاف في إدارة الجماعة:

وهناك سبب ينشأ عن الخلاف في كيفية إدارة الجماعة، وتحديدا: كيفية إدارة الصراع مع عبد الناصر والثورة، ومن هؤلاء المشايخ: عبد المعز عبد الستار، ومحمد الغزالي، وسيد سابق، أما الأول، فقد ترك التنظيم، بعد ما رأى أن طريقة إدارة الجماعة لا تروق له، ويخالف قرار مكتب الإرشاد، ويتجاوزه بعض الأفراد ويضرب قراراته عرض الحائط، وقد سألت الشيخ عبدالمعز عن استقالته من الإخوان، فقال: أنا لم أستقل من الإخوان ولم أفصل، أنا تركتهم، لفساد مكتب الإرشاد، لقد بايعن جميعا حسن الهضيبي مرشدا، ولم يجتمع بنا طوال توليه إلا مرات قليلة، كما كانوا يتقابل مع قلة من المسؤولين مع عبدالناصر، ويتفاوضون معه، دون الرجوع إلينا، أو إعلامنا بما دار، أي أننا ـ أعضاء مكتب الإرشاد ـ كنا مجموعة من (الجرادل)، أي أن أولى مبادئ الشورى لم تكن تطبق، فرأيت فسادا في الفكر عن الشورى، وفسادا في إدارة الجماعة فتركتهم، وكان لي رأي في الصدام مع الثورة، أنه على الجماعة تجنب هذا الصدام. وأما الآخران: الغزالي وسابق، فقد احتلا المركز العام للإخوان المسلمين، وقادا ثورة على مرشد الجماعة (حسن الهضيبي) لمعلومات مشوشة وصلتهم عنه. وفصلا على إثر ذلك من الجماعة.

وبعد فصل الغزالي من الإخوان، لم يتنكر الرجل للجماعة التي نشأ فيها، ونفس الكلام يقال عن السيد سابق، أو ينقلب عدوا مبغضا لها ولأفرادها، رغم ما كتبه الغزالي في نقد الهضيبي مرشد الإخوان في كتابه (من معالم الحق) وبخاصة في طبعاته الأولى، يقول الغزالي عن موقفه من الإخوان بعد فصله، وقد ألقوا في غياهب المعتقلات والسجون، وقد تبوأ مكانا ومكانة في وزارة الأوقاف: (وقد أحصى مكتب الاستعلامات في الوزارة من يطلبون الدخول إليها، فوجد ثلاثة أرباعهم يذكرون اسمي، ولما كُلِّمتُ في ذلك قلت: معنى موظف عام أنه خادم للجماهير حقيقة لا دعوى... وبديهي أن يكون الإخوان المسلمون ـ فرادى ـ أول من يسهم هذا النشاط، طالما هششت للقائهم، وطمأنت قلقهم، وأريته من نفسي الاستعداد التام لعونه!).

ولما جاءت أحداث اعتقالات ١٩٦٥م، وكانت حملة الاعتقالات أشد من الحملات السابقة، يقول الغزالي: (طُلبت إلى الإذاعة، فلما ذهبت وجدت عدداً من الشيوخ والإخوان الأقدمين. وكانت التعليقات محددة: إن الرئيس أمر بنشر مساوئ الإرهابيين، وتحذير الأمة من الثقة بهم أو التعاون معهم، ويجب أن تقوم بهذا الواجب الوطني على عجل! تململتُ فوق كرسيٍ ضائقاً، ولاحظ ذلك المشرفون على البرنامج فتجاهلوني، ثم كلفوني ـ بوصفي مفصولاً من الإخوان ـ أن أبدأ التسجيل! كان جوابي حاسماً: أنا على استعداد للحديث عن الإسلام، وضرورة إحياء ما مات من أحكامه، ومستعد لإرشاد المخطئين، حكاماً كانوا أو محكومين، لإصلاح ما يكون قد بدر منهم من خطأ، أما شتم الإخوان وحدهم، فليس من خلقي أن أجهز على جريح!

قيل: إنهم فصلوك من جماعتهم، فلماذا تُبقي عليهم؟ قلت: إذا استضعموني أيام قوتهم، فلن أستضعفهم أيام حريتي! وما هي إلا ساعات حتى كانت القيود في يدي!)[12]، ونفس المواقف للسيد سابق، فقد كان معه في الأوقاف، ولم يقل دور عبد المعز عبد الستار عن زميليه، وخاصة عندما خرج إلى السعودية، ثم إلى قطر، فقد كانت له مواقف كثيرة في الوقوف بجانب الإخوان المطاردين خارج مصر.



> سأل أحد الصحفيين الشيخ الباقوري وزير الأوقاف عن أسباب استقالته من الإخوان، فقال: (هي أسباب أحب أن أوثر بها نفسي. وليس من بينها سبب واحد يمس احترامي لإخواني، واعتزازي بهم)

٦. الخدمة العامة للإسلام:

وهناك فئة ممن تركوا الإخوان تنظيما وليس فكرا، رأوا أنهم وصلوا إلى مرحلة يجب فيها أن يكونوا رموزا للأمة، وأن يكونوا ملكا لها وحدها، وألا يحصرهم إطار تنظيمي واحد، فهم للأمة أكثر منهم للتنظيم، ومن هؤلاء: الدكتور يوسف القرضاوي، فقد ظل عضوا منظما في جماعة الإخوان المسلمين، منذ بداية الأربعينيات من القرن العشرين، إلى ما يقرب من نهاية الثمانينيات، تحديدا في عام ١٩٨٨م، فقد طلب من التنظيم العالمي للإخوان المسلمين إعفاءه من العضوية التنظيمية في الجماعة، نظرا لأنه أصبح يمثل الأمة كرمز أكثر منه ممثلا لجماعة الإخوان المسلمين، وأن نفعه بهذه الصفة للإسلام سيكون أكثر وأثمر بلا شك، وقد تفهم الإخوان طلبه، وسرعان ما أجابوه إليه، كما يقول القرضاوي.

هذا عرض مجمل لأهم الأسباب التي أدت إلى خروج بعض الإخوان ممن اختلفوا في الفكر، أو طريقة العمل مع الجماعة. ويلاحظ في كل من خرجوا عن تنظيم الإخوان في الحالات التي ذكرتها، أنهم لم يتنكروا لماضيهم، ولم يتقاعسوا عن العمل للإسلام، بل عندما خرجت جماعة الإخوان المسلمين من سجون عبد الناصر في بداية السبعينيات، لم يجدوا عباءة يتدثرون بها سوى هؤلاء الرموز الذين تركوا التنظيم، بل منهم من عرض نفسه للخطر ومد يد العون المادي والمساعدة لأسر الإخوان وهم في السجون، كما ذكر الغزالي في مذكراته، ووهبة حسن وهبة الناشر المعروف، الذي سجن بسبب مساعداته المادية للإخوان، وغيرهم ممن لهم مواقف يضيق المقام بذكرها، كلها تصب في خانة الشهامة، وحسن الخلق، وعدم التنكر، وحفظ الجميل.

العلاقة بين المفكر والتنظيم:

بعد دراسة الدوافع التي دفعت عددا من أهل الفكر والعلم إلى الخروج عن تنظيم الإخوان، بقيت نقطة تدفعنا دفعا للبحث فيها، وهي العلاقة بين المفكر والتنظيم، ولماذا تتوتر العلاقة بينهما، وما الحلول المقترحة في فض هذا الاشتباك بين المفكر والتنظيم.

أسباب توتر العلاقة بين المفكر والتنظيم:

هناك أسباب لا شك تؤدي إلى صدام المفكر بالتنظيم، أو ضيق أحدهما بالآخر، منها:

١. الخلط بين التنظيم المدني والعسكري:

أول هذه الأسباب وأهمها هو: عدم فهم طبيعة العمل التنظيمي الدعوي، فالمفترض في العمل الدعوي المنظم: أنه تنظيم مدني، تحكمه طبيعة وقوانين وأخلاقيات العمل المدني، وليس تنظيما عسكريا، بما فيه من الغلظة والشدة وعدم إعمال العقل كثيرا، والخطورة هنا تتمثل في استدعاء أدبيات وطريقة إدارة التنظيم العسكري لتنظيم دعوي مدني،







الخارجون عن الإخوان

يؤدي بالعمل الدعوي إلى طرق تؤدي إلى انسداد العلاقة بين المفكر والتنظيم، ويؤدي إلى مسخ أفراد العمل الدعوي إلى مجرد دمى تتحرك، وهذا خطأ كبير يقع في إدارة العمل الحركي الدعوي أحيانا، فمن المعلوم أن التنظيم العسكري ينبغي فيه إعلاء مبدأ السمع والطاعة بلا نقاش، بل كثرة النقاش تعوق نجاح أي تنظيم عسكري، وليس مطلوبا فيه كثرة الرؤوس المفكرة، بقدر ما هو مطلوب منها أن تكون جنودا مخلصة، ملتزمة بسرعة التنفيذ، ومطلوب في التنظيم العسكري: قل الاعتراض، بل انعدامه من الأساس، على خلاف العمل الدعوي وهو تنظيم مدني، لا بد فيه أن يناقش كل فرد ما يقوم به، وأن يكون ما يؤمن به من أفكار، وما يؤديه من أعمال عن قناعة تامة، ولا بد أن تكون الطاعة فيه طاعة مبصرة، وليست طاعة عمياء، وينبغي فيه أن يمنع كل مستبد بالرأي، ضيق به، مانع للنقاش أن يحال بينه وبين توسد أي مسئولية في التنظيم الدعوي، لأنه يودي بالعمل الدعوي إلى سراديب العمل السري العسكري، وهو ليس مطلوبا، ولا هو الأساس في الدعوة.

ونتج هذا الخطأ في الخلط كذلك عن طريق: استدعاء أدبيات مرحلة تطلبت أن ترتفع أدبيات العمل العسكري فيها بحكم مرحلتها، من حيث التضييق والمحنة، أو عن طريق استدعاء أدبيات كانت لفئة خاصة فتم تعميمها خطأ، ومن ذلك: ما نقرؤه في رسالة التعاليم، وفيها فقرات - مثلا - واضح أن الخطاب فيها موجه لجنود في عمل عسكري، وهي بلا شك كانت تدرس للتنظيم الخاص في الإخوان المسلمين، ولكن ما يخص الدعوة العامة منها، هو ركن الفهم، وبقية الأركان، أما ركن الطاعة، والثقة، ففيهما كلام ينبغي أن يحرر، ويزال ما فيه مما هو خاص بالتربية العسكرية، وهذا ما لاحظه مسئول التربية في جماعة الإخوان المسلمين على عهد الإمام البنا؛ الدكتور عبد العزيز كامل، فاعترض عليه اعتراضا شديدا[١٣].

٢. عدم الدراية بأهمية وعظم دور المفكر في الحركة:

فقد يأتي من لا يقدر قيمة المفكر، ودوره، وما يقوم به من تأصيل للفكرة، وشرح لها، واستشراف لمستقبلها، وهو دور ربما استخف به البعض دون قصد، أو ربما يتسرب إلى البعض بسبب مقولة قالها حسن البنا رحمه الله، وهي رسالة (نحن قوم عمليون)، ولا تعارض بلا شك بين الفكر والعلم والعمل، والظن بأن المفكر مجرد رجل يجلس ليجادل جدلا بيزنطيا، وهذا الفهم الخاطئ يرد عليه بأنه لا قيمة لعمل ليس مبنيا على العلم الصحيح، وقد صنف أئمة الحديث في كل كتبهم أبوابا في أهمية العلم، وقيمته، وأنه يأتي قبل العمل.

٣. الضيق بالنقد، وسد منافذه:

ومن الأسباب التي تفسد العلاقة بين المفكر والتنظيم، بل بين التنظيم وبقية أفراده من أصحاب الفكر الحر، والرأي، الضيق بالنقد، والرأي الآخر، وسد كل منفذ يؤدي إليه، من باب: إغلاق باب للجدل، وشتان بين الجدل والنقاش والتحاور، فالمفكر لا يحيا بدون إعمال عقله، وتقليب النظر فيما مضى من مواقف للحركة، وفيما هو قائم من أعمال، وفيما هو مستشرف من مستقبل، وهذا يتطلب منه نقد ما فات، ونقد ما هو قائم، وتقييمه، حتى يبني رؤية لمستقبل يتماشى مع ما تهدف إليه الحركة، وعندئذ تتفاوت وجهات النظر في تقبل هذا النقد، فعند قبوله تستمر العلاقة بين المفكر والتنظيم، ولكن عند رفضه رفضا تاما - بل والضيق به - تسوء العلاقة، وبخاصة عندما يظن البعض بأن النقد باب للخروج على ثوابت الجماعة.

لقد قمت بما يشبه الحصر للنقد في عهد الإمام البنا لشخصه وعلمه وجماعته، فوجدت ما يقرب من أربعين نقدا منشورا في مجلات الإخوان المسلمين، بل خصص البنا صفحة كاملة في مجلة (الإخوان المسلمين) نصف الشهرية، جعل عنوانها: باب النقد، وكان غالبا يكتب فيها الشيخ محمد الحامد الحموي نقدا على ما ينشر في المجلة، ونقد فيها رمزين كبيرين من رموز الإخوان: حسن البنا، ومحمد الغزالي، بل وصل الأمر بأحد المنتقدين لحسن البنا أن أرسل له نقدا في صورة سؤال، وكان السؤال كالتالي: يا شيخ حسن أنت رجل مدرس، ونحن نعلم مرتب المدرس جيدا، ونعلم أنك لا تتقاضى راتبا على عملك الدعوي، ومع ذلك نراك أنيقا في ملبسك، أنيقا في مظهرك، فمن أين لك هذا وأنت رجل مدرس بسيط؟!

ومع ذلك نشر حسن البنا سؤال السائل الناقد، ووعدت المجلة بالإجابة في العدد القادم، وأجاب حسن البنا بما يلي: نعم صدقت يا أخي أنا لا أتقاضى راتبا على عملي الدعوي، أما ما لاحظته من أناقة المظهر وغيره وأن راتبي لا يكفي فهو صدق، وكان صلى الله عليه وسلم ينفق من مال خديجة، وأنا أنفق من مال أخي خديجة (يقصد صهره)، ولي أخوان يقرضانني دائما، وأعرض عليك ثلاثة حلول، أن تزورني في المركز العام للإخوان المسلمين وأطلعك على اسم الأخوين الكريمين وإما أن تسدد لهما ديوني عندهما، وبذلك أصبح مدينا لشخص واحد، أو أن تكون الثالث الذي أقترض منه عند الحاجة، أو أن تدعو الله تعالى لي بأن يسدد عني، وقد فكرت في سبيل لتحسين حالتي المادية، وسوف أصدر بإذن الله مجلة (الشهاب) بترخيص شخصي لي، لعلها بذلك تكون سببا من أسباب الدنيا في تحسين وضعي، وجزاك الله خيرا، أخوك: حسن البنا.

كان لعلاقة البهي الخولي السابقة بالإخوان فضل في تخفيف شدة الاحتقان - بعض الشيء - بين عبد الناصر والإخوان، خاصة مع بعض أفرادهم ممن لم يكن بينهم وبين عبد الناصر شخصيا خلاف



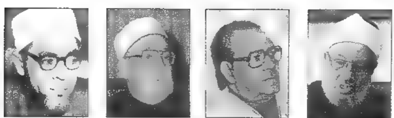
٤. تضخيم جانب الإداري والمنظم على حساب المفكر، أو طغيان أحدهما على الآخر، وهناك سبب رابع مهم، ويأتي نتيجة تضخيم جانب الإداري، وتقزيم جانب المفكر، أو محاولة الإداري الجمع بين المهمتين، أن يكون إداريا ومفكرا في الوقت ذاته، وهي مهمة صعبة ندر من يقوى على الجمع بينهما، وغالبا ما يكون الجامع بينهما - على ندرتها - المفكر في الأساس.

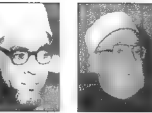
وأوضح هذه النقطة بمثال معاصر في الحركة الإسلامية المعاصرة، فقد خرج أفراد الحركة الإسلامية من السجون والمعتقلات بعد وفاة جمال عبد الناصر، وقد كان للحركة رصيد ضخم من الفكر والثقافة، ولم تكن حاجتها في ذلك الوقت إلى تصدر المفكر بقدر حاجتها إلى المنظم الذي يعيد حبات العقد المنفرط، فقد كان هذا الرصيد الثقافي يكفيها لبضع سنوات، فتولى أمر الحركة من يدير شئونها، ومن يهتم بالبناء التنظيمي، وقد كانت تحتاج لهذا بحق في هذه الفترة، وشيئا فشيئا بدأ ينحسر دور المفكر أو الباحث في الحركة، وفوجئنا بالطبيب، وكذلك المهندس وغيره من بقية التخصصات العلمية، الذي يلقي الخاطرة الخفيفة التي تصلح في مجال التجميع الدعوي البسيط، ثم تعمقت الفكرة وتأصلت في قدرة الطبيب والمهندس والمنظم والإداري في الدعوة إلى التكلم باسم الدعوة، والتنظير لها، وشتان بين الموعظة الدعوية، وبين التنظير الفكري، والتأصيل العلمي، فأدوات كل منهما تختلف عن الآخر.

كان ينبغي أن تفهم الحركة أن هذا الدور لغير المفكر دور مؤقت، إذ إن سيلا من الأسئلة والمواقف الفكرية سوف يطرح نفسه تلقائيا بعد عودة نشاط الحركة، ولن يقوى على مواجهة هذه الأسئلة والتنظيرات الفكرية والعلمية سوى المفكر والباحث، وقد تسبب هذا الخطأ في إقصاء المفكر بدرجة ما، وأدى إلى بروز أفكار ليست من صحيح الدعوة ولا صلبها ولا جوهرها، نتجت عن ذلك، مما يجعل هوة تحدث بين المفكر والتنظيم.

٥. تقييم المفكر عن طريق أدائه التنظيمي.

فهو ينظر له بنفس المقياس الذي يقاس به الحركي أو التنظيمي، من حيث الالتزام بما يلتزم به التنظيمي، من واجبات،




وحقوق، وأداء دعوي إداري، مما يجعله في نظر الإداري أقل دورا، بل لا دور له أساسا، وينسى هؤلاء أن الصحابة رضوان الله عليهم أنفسهم لم يكن أداؤهم جميعا بمقياس واحد، فلم نر مثلا صحابيا جليلا كخالد بن الوليد من رواة الأحاديث، ولم أجد له اللهم إلا حديثا أو حديثين، فلا نستطيع أن نقيم خالدا في باب العلم ورواية الحديث. كذلك لا يمكن أن نقيم صحابيا كأبي هريرة في الميزان العسكري، فهو رجل حفظ على الأمة حديث رسولها صلى الله عليه وسلم، وهكذا.

6. عندما يستخف المفكر بالقرارات التنظيمية الجادة، التي تبنى على شورى، وهو خطأ يقع من جانب المفكر، فهو يريد إمضاء رأيه، وإن كان الأمر جرى على شورى معتبرة، وهو خطأ يحدث أيضا من جانب بعض المفكرين. فالصواب في مثل هذه الأمور، أن الشورى إذا تمت ونوقشت الأمور، وانتهى النقاش فيها إلى رأي معين، كان بناء على أغلبية الآراء، فعندئذ يلتزم الجميع بالرأي المتفق عليه، ويظل كل صاحب قناعة فكرية على قناعته في نفسه، كرأي علمي قابل للنقاش وقت فتح باب النقاش.

مقترحات لفض الاشتباك بين المفكر والتنظيم:

ولحل هذا الصدام، أو عدم الوفاق، الذي سرعان ما يجعل المفكر أو الباحث يضيق بالتنظيم أو العمل الحركي، أو يضيق التنظيم بالمفكر، لا بد من اتخاذ عدة إجراءات ومبادئ تريح كلا الطرفين، وتحفظ لكل منهما مكانه ومكانته، وهي:

1. إفساح المجال لعقل المفكر وقلمه:

وأول ما يقترح في هذا المجال: هو إفساح المجال لعقل المفكر وقلمه في تشريح حال الأمة والحركة، أو حال العاملين في الدعوة للإسلام، فليس مقبولا أن يشعر المفكر أو الكاتب أن سيفا مسلطا على رقبته، هو سيف السمع والطاعة، وسيف عدم إثارة النقاش، خاصة عندما يكون المفكر ممثلا لشخصه وفكره الخاص، لا متحدثا رسميا باسم التنظيم أو الجماعة.

المفكر يحتاج إلى فضاء واسع ينطلق فيه، لا يوقفه شيء، ولا يحده حدود إلا حدود ثوابت الإسلام. أما أن نظل مهيمنين على مساحة المفكر. فالمفكر أشبه بالصاروخ الذي يحتاج كي ينطلق إلى التخلي عن قاعدته، والانطلاق بالرأس فقط، ثم بعد ذلك في مرحلة أخرى يتطور الصاروخ لينطلق بقاعدته ورأسه معا.

إنني أشبه المفكر والتنظيم، بحرية الحركة في الأول، وبمحدودية الحركة في الثاني. فحرية الحركة للمفكر تتيح له السبق دوما بأفكاره، ومن ثم يتبعه التنظيم فيما بعد، حيث يقبل من المفكر ما لا يقبل من التنظيم من حيث الأفكار السباقة، أو التجارب غير المحسوبة. فالأول يتحرك بالطائرة، والثاني يتحرك بالسيارة، ولا شك أن الثاني سيأتيه اليوم الذي يركب الطائرة مثله مثل من سبقه، ولكن لا بد من مغامر يبدأ التجربة، والمغامر هنا يتمثل في المفكر، وليس في التنظيم الذي ليس لصالحه المغامرة التي قد تودي بفشل التجربة معه، وتكون التكلفة باهظة، وهذا أمر مقبول في كل حركات التعبير والفكر على مدار التاريخ.

فلو أخذنا مثلا نموذجا كالشيخ يوسف القرضاوي في آرائه التي لو حكمنا فيها بمنطق التنظيم لحكم عليه بأنه خالف الجماعة التي ينتمي إليها، ولعوقب إداريا عليها، فالشيخ القرضاوي وقت أن كان ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين تنظيميا، وبعد طلب إعفائه من الأمور التنظيمية، تمثل كتبه المرجع الأبرز والأهم في الحركة، وكذلك الشيخ محمد الغزالي، والشيخ سيد سابق رحمهما الله.

2. الفصل بين ما هو من مساحة المفكر وما هو من مساحة التنظيم:

هناك فئة ممن تركوا الإخوان تنظيما وليس فكرا، رأوا أنهم وصلوا إلى مرحلة يجب فيها أن يكونوا رموزا للأمة، وأن يكونوا ملكا لها وحدها، ومن هؤلاء: الدكتور يوسف القرضاوي

فهناك مساحة هي مساحة المفكر والداعية، وليس مقبولا أن يقحم التنظيم نفسه فيها، وهي مجال الكتابة والتأليف، والتعبير عن المواقف الفكرية، والبحث العلمي، الذي لا ينبغي أن يوضع سقف للباحث فيه، بل المطلوب أن يطلق لقلمه العنان يحلق حيث شاء، وكيفما شاء، يسوقه البحث والدليل إلى ما يقتنع به، لا أن توضع له النتائج مسبقا.

لقد رفض الشيخ حسن البنا ضم الشيخ الغزالي للتنظيم الخاص، ولما سئل في ذلك قال: التنظيم الخاص نظام عسكري يتطلب طاعة مطلقة... والشيخ الغزالي يعترض على ما لا يروقه من أوامر، ويقول لك: ما السبب؟ وأين الدليل؟ ثم هو لا يحسن الكتمان، إذا سخط بدا سخطه على وجهه، والسرية المطلقة أساس هذا النظام...!

دعوه يكتب، ويخطب، وينشر الدعوة الإسلامية في الميدان الذي يصلح له، ولا يصلح لغيره(14).

3. استقلالية المفكر العلمية:

لصالح الدعوة والجماعة أن يكون أهل الفكر فيها مستقلين، وليسوا تابعين تبعية مطلقة، وألا يحسب المفكر الرمز عليها، لأن تصنيفه عليها لا يفيدها أبدا، والنموذج الواضح في ذلك، هو مبادرة الشيخ يوسف القرضاوي في تكليم الرئيس الليبي معمر القذافي بشأن مسجوني الإخوان المسلمين في ليبيا، وقد كانت هناك أحكام بالإعدام على بعضهم، فكلمه بشأن العفو عنهم، وقد انتهت المبادرة والوساطة بالعفو عن معتقلي الإخوان المسلمين في ليبيا(15).

فلا شك أن القرضاوي خاطبه بوصفه رمزا للأمة، ورئيسا لاتحاد علماء المسلمين، وليس بوصفه القرضاوي ذا العلاقة التنظيمية السابقة بالإخوان المسلمين.

4. اتخاذ مبدأ البائع الشريك في العمل الدعوي:

وهناك مبدأ يسمى في لغة التجارة: مبدأ الشريك البائع، ومثاله: لو أنني أتاجر في النظارات الطبية. مثلا، وجاءني مشتر يسألني عن ثمن نظارة بعينها فقلت له: ثمنها ألف جنيه مصري، فقال لي: هي غالية الثمن، فلتنزل في سعرها، أشتريها بثمانمائة جنيه، ثم جاءنا رجل ثالث وهو تاجر في بيع النظارات مثلي، فسأل: بكم هذه النظارة؟ قلت له: أبيعها بألف جنيه، فقال: هل عندك كمية منها؟ قلت له: لا، هذه آخر نظارة عندي، فقال: إني أبيعها بألف ومائتي جنيه، عندئذ لن يتردد المشتري الذي يزايد في السعر لينزل، أن يشتري فورا بالمبلغ الذي حدده البائع، بينما كان كلام البائع الثاني هو مساندة للبائع الأول الذي يبيع نفس السلعة، وهو مبدأ يسمى في التجارة: الشريك البائع.

وهو ما يمكن تطبيقه في العمل التنظيمي الدعوي، بجعل المفكرين والباحثين الذين لهم مستقبل واضح في الأمة، ألا أصر على جعلهم ضمن الإطار التنظيمي، بل الصواب: إفساح المجال لهم، وتركهم للعمل خارج التنظيم، وفي الإطار الفكري للحركة، وأهدافها، وهو ما فعله الإمام البنا في حياته مع أكثر من عالم، وفي سن الشباب، وأراد بذلك أن يصنع صفوفا متراصة خلف الجماعة تحميها وقت المحنة، وتكون شهادتها شهادة غير مجروحة إذا وقفت في صفه وقت المحن والاتهامات، فعندما أراد الشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق دعوة الأستاذ خالد محمد خالد للجماعة، وهما صديقان عزيزان له، قال لهما الإمام البنا: دعا خالدا وشأنه، هو في مجاله أصلح. ونفس الأمر فعله البنا مع علماء الجمعية الشرعية الذين ربطتهم به علاقة قوية، مثل: الشيخ محمود عبد الوهاب فايد، والشيخ حسن عيسى عاشور، وكانوا نعم السند بعد الله لجماعته وقت المحنة التي تعرضت لها الجماعة في العهد الناصري.

بل وفعلها البنا أيضا مع أناس في صفوف الجماعة، ومن العاملين في التنظيم، يقول أحد تلامذة حسن البنا:






"الخارجون عن الإخوان"

فى النصف الثانى من الأربعينيات كنتُ أستعد للتخرج من الجامعة.. وكنت عصبيًا جداً، وكل يوم يذهب زملائى فى الجامعة من الإخوان ويشتكون للأستاذ البنا: محرم تشاجر اليوم مع الشيوعيين.. محرم تشاجر اليوم مع الوفديين.. كل يوم أورط إخوانى فى خناقة مع آخرين.

وفى إحدى هذه المرات انفرد بى الأستاذ البنا، وقال لى: يا محرم اختفى من الحركة.. قلت: تفصلنى يا أستاذ؟ قال: لا. ولكن أريد أن أضعك فى عمل آخر.. ثم قال لى: أنت ستتخرج هذا العام؛ ففى أى مجال تنوى العمل؟ قلت: فى ميدان التدريس. فقال لى: أريدك أن تختفى فى وزارة المعارف، حتى تصل إلى أعلى المناصب وتخدم دينك وأمتك فى صمت.. وتعاهدنا على ذلك، وبدأت رحلتى فى وزارة المعارف، ثم وزارة التربية والتعليم حتى وجدتنى مديرا لمكتب الوزير كمال الدين حسين فى الستينيات

ثم فوجئت برجل آخر كنتُ أعرف صلته القديمة بالأستاذ البنا، وهو أيضا يعمل مستشاراً للوزير.. إنه الأستاذ الأديب فريد أبو حديد، وتصارحنا؛ فإذا قصته مثل قصتى، ولم ينكشف أمرنا إلا عندما كتب الدكتور نظمى لوقا كتابه الشهير «محمد الرسالة والرسول»، والذى يقول فى آخر صفحة فيه: (لا خيرة فى الأمر ما نطق هذا الرسول عن الهوى. لا خيرة فى الأمر ما ضلّ هذا الرسول وما غوى، لا خيرة فى الأمر ما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين، فسلام عليه بما هدى، وسلام عليه فى الخالدين).

المهم أننا قررنا هذا الكتاب على طلبة الإعدادية فى مادة النصوص، وبدأت اعتراضات محلية وغير محلية، وانكشف أمر الجنديين اللذين أرسلهما حسن البنا لوزارة المعارف[16].

٥. زيادة مساحة الحرية النقدية فى الحركة.

فليس مقبولا أن يفسر كل رأى للمفكر فى ظل التنظيم أنه خروج عن ثوابتها، أو اتهام قائل الرأى بأنه فتن عن الدعوة، أو هناك غبش فى رؤيته. وادعاء الإخلاص فيمن يسكت ويسمع ويطيع دون نقاش، فمسألة الولاء الدعوى والإخلاص فيه مسألة قلبية ليس لأحد أن يحكم فيها، بل الحكم فيها لله وحده، وهى من الدجل الدعوى، ويجب أن ننأى بأنفسنا عن الحكم على النيات. بل إن ادعاء حب الدعوة من إنسان أكثر من آخر، وهو بعينه الهلاك. يقول تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى). بل الحركة الناجحة هى التى تفتح باب النقاش، وتصنع أفرادا أصحاب رأى، رؤوسا لا أذنبة، تملك القرار وحسن التصرف، ولا تكون كريشة فى مهب الريح، أو كالعبد السوء الذى ذكره القرآن الكريم (أينما يوجهه لا يأت بخير).

٦. البعد عن شخصنة الدعوة

فمن الأخطاء القاتلة التى تعجل بنهاية العلاقة بين المفكر والتنظيم شخصنة الدعوة. فكل نقد يوجه لإدارة فرد ما فى التنظيم لملف من ملفات الدعوة، دون التجريح فى شخصه بلا شك، يفسره البعض تفسيرا غريبا، بأنه هجوم على الدعوة ذاتها، وهذا الداء القاتل أصابنا من كتاب السلطة للأسف. فكتاب السلطة لو أن كاتبا نقد النظام الحاكم، بصورة فجائية تراهم يطلقون التهم على الكاتب بأنه يهاجم مصر،



> **كان ينبغى أن تفهم الحركة**
> **أن هذا الدور لغير المفكر دور مؤقت.**
> **إذ إن سيلا من الأسئلة والمواقف الفكرية سوف**
> **يطرح نفسه. ولن يقوى على مواجهة**
> **هذه الأسئلة سوى المفكر**

بحضارتها، وتاريخها، وما لها من حب فى قلب كل مصرى يحب وطنه، لتصبح بقدرة قادر كل كلمة فى فساد النظام الحاكم هجوما على الوطن الغالى العزيز. وكأن الوطن يختزل فى فرد، أو فى ثلة، لتتدثر بفسادها فى عباءة الوطن. والوطن يبرأ من كل فساد، ولا يشرفه أن ينتسب مفسد إليه، هذا الداء للأسف انتقل، بحكم أن البيئة لها أثرها فى الناس، وأن الإنسان ابن بيئته. إلى العمل الدعوى، ولا بد من التخلص منه. ومن التفريق بين الأشخاص والدعوة. الدعوة شىء سام لا يزايد أحد على حبه لها. أما الأفراد فهم زائلون.

وهو ما شدد عليه القرآن الكريم كثيرا. أن نرتبط بالمبادئ ولا نربط المبادئ بالأشخاص. يقول تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) آل عمران-١٤٤. وهذه الآية ليست إلا تنبيها لكل داعية. أن الأفراد فى العمل الدعوى يظلون أفرادا. لهم ما للأفراد من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات. ولكن من الخطأ الشديد: ربط الدعوة بأشخاصهم، فالمبادئ أسمى وأرقى من الأشخاص. ويحكم على الأفراد بالمبادئ، ولا يحكم على المبادئ بالأفراد.

٧. الحركة مدرستان. مدرسة الدعوة، ومدرسة التنظيم. فمدرسة الدعوة وهى تسع كل داعية يتفق مع مجمل أفكار الحركة وأهدافها وإن اختلف فى بعض أو كثير من تفاصيلها. ومدرسة التنظيم، وهى خاصة بمن ينتقل إلى مرحلة أخرى من الإدارة يلتزم فيها بتفاصيل وعموميات الجماعة. وأعتقد أن الإمام أبا الأعلى المودودى رحمه الله فى أدبياته صيغة مقترحة لمثل هذه العلاقة، وبخاصة فى كتابه (تذكرة دعاة الإسلام) فى تصنيفه للمنتمين للجماعة الإسلامية، ودرجات الانتماء

وعلى الحركة أن توجد صيغة تواؤم بين الأمرين، بحيث يكون من يقتنع بمدرسة الدعوة فى إطار من أطرها، وله مكانته فيها. وأن تكون هذه المكانة مكانة اعتراف وتقدير. وليست مكانة تأليف القلوب، من باب (المؤلفة قلوبهم).

هذه بعض تأملاتى فى العلاقة بين المفكر والتنظيم فى الحركة الإسلامية، وكيف تقوى هذه العلاقة. ويستفاد من كلا الطرفين. وهى نظرة وتحليل شخصى، قابلة للصواب والخطأ، أعرضها للبحث والمناقشة، مستفيدا بكل صاحب تجربة، أو دراسة لهذه العلاقة ■

هوامش

١. انظر: جريدة المصرى العدد الصادر فى يوم ١١/٩/١٩٥٢م.
٢ـ انظر ابن القرية والكتاب (مذكرات القرضاوى) الجزء الثانى ص ٢٤٨
٣ـ انظر الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ لمحمود عبد الحليم (٣/١٥٠-١٥٥).
٤. انظر المصدر السابق (١٥٦/٣)
٥ـ انظر مذكرات عبد العزيز كامل تحت عنوان فى نهر الحياة) طبعة المكتب المصرى الحديث
٦. من مقابلة مع الشيخ عبد التواب هيكل، أحد معتقلى الإخوان فى السجن الحربى فى سنة ١٩٥٤م، وقد كان عبد العزيز كامل سببا فى منع التعذيب عنه عند دخوله السجن فى أول مرة، عندما رجا ضباط السجن عدم تعذيبه، فقبلوا شفاعته
٧. هو الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر من مقابلة مع الشيخ يوسف القرضاوى.
٨. من مقابلة مع الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر، أحد معتقلى الإخوان فى السجن الحربى سنة ١٩٥٤م، مع د. عبد العزيز كامل فى زنزانة واحدة
٩ـ من مقابلة مع على نويتو، أحد أعضاء التنظيم الخاص فى شعبة إمبابة، وأحد المتهمين بتدبير عملية اغتيال جمال عبد الناصر، وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة سنة ١٩٥٤م
١٠. انظر مقدمة كتاب (الشهادة. أقسمت أن أقول الحق) وهى شهادة الشيخ صلاح أبو إسماعيل فى قضية تنظيم الجهاد، طبعة دار الاعتصام
١١. سمعت نص رسالة الشيخ صلاح أبو إسماعيل للرئيس جمال عبد الناصر فى إحدى جولاته الانتخابية، وقد قام أحد الأزهريين بتلاوتها على الحضور فى المسجد الكبير بمدينة أوسيم بالجيزة، من باب اتهام صلاح أبو إسماعيل بصممه، وتشويه صورته، لعله بذلك يفت فى عضد شباب الإخوان فى تأييده، وهو ما انقلب إلى ضده، ورد صلاح أبو إسماعيل بقوله: إن كلمة من المعتقل التى هى أول الرسالة تجب ما بعدها فهى تصور ما كنت فيه من واقع مرير، وتعذيب شديد بدنى ونفسى، فضج المسجد بالتكبير تأييدا لصلاح أبو إسماعيل
١٢ـ انظر قصة حياة للشيخ محمد الغزالى
١٣ـ انظر مذكرات د. عبد العزيز كامل (فى نهر الحياة) ص٥٣ طبعة المكتب المصرى الحديث
١٤ـ انظر قصة حياة للشيخ محمد الغزالى
١٥. انظر ابن القرية والكتاب للقرضاوى الجزء الخامس تحت الإعداد
١٦ـ انظر أمثلة على التربية الحضارية عند البنا للدكتور سيد دسوقى

جـــــلال أمــــــين



يعود دكتور جلال أمين أستاذ الاقتصاد بهذا المقال الذي يضمه كتاب يصدر عن دار الشروق «في فلسفة علم الاقتصاد» إلى أكاديميته أو بالأحرى إلى الأكاديميين. ليستكمل مابدأه قبل سنوات بكتابه المهم «كشف الأقنعة» عن نظريات التنمية الاقتصادية. موضحا ابتداء أن فلسفة علم الاقتصاد شيء مختلف عما يمكن أن تعنيه عبارة «الفلسفة الاقتصادية». وداعيا القارئ المتخصص وغير المتخصص إلى أن يتوقف ليتحقق مما إذا كان علم الاقتصاد كما ندرسه اليوم وكما ظل يدرس لعشرات السنين «يقوم على أسس غير علمية».. معتبرا في هذا المقال / الكتاب - الذي من شأنه أن يثير جدلا أكاديميا - أن الكشف عن هذه التحيزات وهذه الأسس غير العلمية وإبرازها، قد تكون له فائدة لا تقل عن فائدة دراسة علم الاقتصاد نفسه..

المحـــرر

■ ■ نعم للاقتصاديين تحيزات وأهواء، بل يندر ألا يكون لهم هوى يؤثر فيما يدعون إليه من سياسات اقتصادية، بل وحتى فيما يقدمونه من نظريات. نعم، من الممكن جدًا أن تجتمع التحيزات والعلم، بل من النادر ألا يجتمعا. ومن الممكن أن يكون للعلم أسس غير علمية، ميتافيزيقية أو أيديولوجية أو فلسفية، توجّه البحث العلمي في اتجاه دون آخر، وتؤثر في أسئلته وإجاباته.

إذا كان هذا صحيحا، فما أجدر هذا الموضوع بالبحث. إن الكشف عن تحيزات الاقتصاديين وأهوائهم، وعن الأسس غير العلمية لعلم الاقتصاد، لابد أن تكون له منافع جمة، وقد تكون بالغة الأهمية. فهذا الكشف، إذا نجحنا فيه، لا تقتصر فائدته على تنبيهنا إلى قصور النظرية الاقتصادية عن الإحاطة بالحقيقة، وإلى تصويرها لبعض الأمور المهمة على غير حقيقتها، بل قد تصل فائدته إلى حد «التحرر النفسي»، وخلق فرص للإبداع لم تكن متاحة من قبل.

فمن ناحية، يمكن أن يؤدي كشف التحيز في العلم إلى لفت النظر إلى زوايا أخرى يمكن منها دراسة الموضوعات التي يتناولها هذا العلم، ورؤية أشياء كانت غائبة، والتأكيد على جوانب لم يجر من قبل التأكيد عليها، مع استحقاقها لهذا التأكيد. ومن ناحية أخرى، يمكن أن يؤدي اكتشاف التحيزات والأسس غير العلمية لعلم من العلوم، إلى إفساح المجال لتحيزات أخرى كانت مهملة، ولأيديولوجيات كانت مستبعدة. وقد تكون هذه التحيزات المهملة والأيديولوجيات المستبعدة أنسب وأكثر ملاءمة للأمة التي ينتسب إليها الباحث من تلك التي استخدمها العلماء في الماضي، وأكثر مراعاة لذوقها وتقاليدها ونظرتها إلى الحياة، ومن ثم قد تكون أكثر فاعلية في حل مشكلاتها، بل وأدعى إلى نهضتها.

إن اكتشاف تحيزات الغير يمكن أن يكون شرطا أساسيا للتحرر من سطوته. فالعبد الأسود لا يمكن أن يتحرر من القهر الذي يمارسه عليه سيده الأبيض طالما شارك اعتقاد هذا السيد بأن الأسود عبد بطبيعته، وأن اختلاف اللون يعطي البعض حق السيطرة على الآخرين.

للاستزادة
فلسفة علم الاقتصاد: بحث في تحيزات الاقتصاديين وفي الأسس غير العلمية لعلم الاقتصاد
جلال أمين
دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٨


توماس هوبز
١٥٨٨ - ١٦٧٩

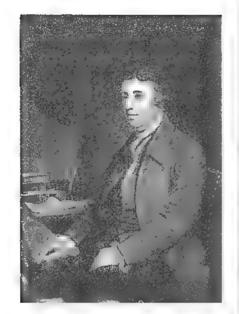
واكتشاف تحيزات الحضارة العربية قد يكون شرطا أساسيا لتحرر الأمم الخاضعة للاحتلال والاستغلال من جانب أصحاب هذه الحضارة، إذ قد يقضي هذا الاكتشاف على أي مبرر لهذا الاحتلال وهذا الاستغلال. كذلك قد يكون اكتشاف التحيز في علم من العلوم، خاصة في العلوم الاجتماعية، شرطا ضروريا لأن يسمح المرء لنفسه بالنظر نظرة جديدة إلى الظواهر التي يتناولها هذا العلم، فإذا بنوع «الفهم» الجديد لهذه الظواهر يدفع الناس إلى تبني نظام سياسي أو اجتماعي غير النظام السائد.

هل كان من الممكن مثلا أن نتصور أن يقيم الاتحاد السوفيتي دولة «اشتراكية»، دون كشف تحيز الفكر الاقتصادي الرأسمالي؟ وهل كان من الممكن للنظام الذي أقامه «تيتو» في يوجوسلافيا، خلال ربع القرن التالي للحرب العالمية الثانية، أن يوجد دون كشف تحيزات الفكر الاقتصادي الرأسمالي والاشتراكي على السواء؟ بل قد أذهب إلى حد التساؤل، عما إذا كان من الممكن لأي أمة أن تحقق أي نهضة دون أن تكتشف أولا تحيزات عصر سابق؟



اعتاد مؤرخو الفكر الاقتصادي أن يعتبروا أن آدم سميث Adam Smith ذلك الاسكتلندي الفذ، وأستاذ الفلسفة في جامعة جلاسجو، هو أبو علم الاقتصاد. وأن هذا العلم، وإن كانت ولادته قد ظهرت لها بشائر أو بوادر قبل ظهور كتاب سميث الشهير «ثروة الأمم» (The Wealth of Nations) في كتابات مجموعة من الكتاب البريطانيين والفرنسيين الأقل شهرة بكثير من آدم سميث، فإن ظهور كتاب سميث في عام ١٧٧٦ قطع أي شك في ظهور علم جديد هو علم الاقتصاد.

لا ينفي المؤرخون بالطبع وجود «كتابات» اقتصادية قبل سميث، بل وقبل هذه المجموعة من الكتاب البريطانيين والفرنسيين الذين نشرت أعمالهم خلال القرن السابق على كتاب سميث، ولكنهم ينفون عنها صفة «العلم»، أو على الأقل يشيرون إلى قلة حظ هذه الكتابات من التجرد العلمي الواجب، فيبيّنون كيف نظر السابقون على سميث إلى الظواهر الاقتصادية، نظرة «أفسدها» إقحام الأخلاق على العلم، كما فعل فلاسفة اليونان مثلا، أو إقحام الدين على العلم، كما فعل مثلا كتاب العصور الوسطى، أو انصراف الاهتمام إلى السياسة الاقتصادية



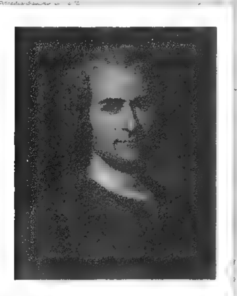
Edmund Burke



Adam Smith (1723-1790)



David Hume (1711-1776)



Jean Jacques Rousseau (1712-1778)



Erich-Fromm



A-R-J Turgot (1727-1781)



Montesquieu (J1689-1755)



Knut-Hamsun-Postcard (1910)



Sir William Petty (1623-1687)

المرغوبة، دون اهتمام كاف، أو دون اهتمام على الإطلاق، ببيان الأسس العلمية لتفضيل سياسة اقتصادية على أخرى، كما فعل مثلا أصحاب «المذهب التجاري» خلال عصر النهضة الأوروبي.

وليس لدينا على هذا التصوير للأمر إلا تحفظ واحد، ولكنه تحفظ مهم، هو في الحقيقة الهدف الأساسي من هذا الكتاب. وأقصد به: أن ما حدث بظهور كتاب ثروة الأمم، وما شهده القرن السابق عليه مباشرة من محاولات للسير في نفس الطريق، لم يكن بالضبط هجرانا لمواقف غير علمية في شرح الظواهر الاقتصادية، وإحلالاً «للموقف العلمي» محلها. بل كان في الحقيقة أقرب إلى إحلال نظرة غير علمية محل نظرات أخرى غير علمية بدورها، أو بعبارة أخرى إحلال تحيزات محل تحيزات. والسبب في رأيي، في غياب هذا الأمر عن معظم مؤرخي الفكر الاقتصادي أو تجاهلهم له، هو أنهم هم أنفسهم يحملون نفس التحيزات التي بدأت تتبلور في تلك الفترة التي نشأ فيها علم الاقتصاد، أي خلال القرن الممتد بين حوالي ١٦٧٦ - ١٧٧٦. وقد سبق أن أشرت في الفصل السابق إلى أن صاحب التحيز هو أقل الناس قدرة على اكتشافه. فنحن قد نكتشف تحيزات الآخرين بسهولة ولكن من أصعب الأمور اكتشاف تحيزاتنا نحن. بعبارة أخرى: الاقتصاديون اليوم يحملون نفس تحيزات آدم سميث وأصحابه أثناء دراستهم أو تفكيرهم في الظواهر الاقتصادية، أو يحملون تحيزات قريبة جدا منها، بل الأرجح أن هذه التحيزات قد تغلغلت في أذهانهم بدرجة أعمق بكثير مما كانت لدى آدم سميث وأصحابه. فكيف ينتظر منهم أن يكتشفوا ويتبينوا مدى تأثير هذه التحيزات فيما يصلون إليه من نتائج أو بالأحرى، مدى تعكيرها لصفاء هذه النتائج ونقائها؟



لنبدأ أولاً بكلمة سريعة في التعريف بهؤلاء الكتّاب (أو الاقتصاديين) الذين يمكن ضمهم في زمرة واحدة مع آدم سميث باعتبارهم «مؤسسي علم الاقتصاد». ولنلاحظ في البداية أن كلهم (باستثناء واحد هو الأيرلندي كانتيلون R. Cantillon) من البريطانيين أو الفرنسيين. وليس هذا شيئا غريبا. حيث كانت بريطانيا وفرنسا في هذا الوقت قد قطعتا شوطا في «التحديث» الاقتصادي والاجتماعي أكثر مما قطعته أي دولة أخرى.

من هؤلاء وليام بتي Sir William Petty، الذي كان في الأصل عالما طبيعيا وعضوا، بهذه الصفة، في الجمعية العلمية الملكية في إنجلترا، وصديقا لإسحق نيوتن. ليس من الغريب إذن، إذ استهواه بحث بعض الظواهر الاقتصادية، أن يحاول أن يفعل بشأنها شيئا شبيها بما فعله نيوتن بشأن الظواهر الطبيعية، وأن يؤلف كتابا في سنة ١٦٧٦ (أي قبل قرن بالضبط من كتاب آدم سميث) يسميه «الحساب السياسي» Political Arithmetick). (وكان وصف «السياسي» يستخدم في ذلك الوقت بمعنى أقرب إلى المعنى الذي نستخدم به الآن وصف «الاجتماعي») معتقدا أن الرياضة والحساب يمكن أن يستخدما في تحليل الظواهر الاجتماعية بنفس الكفاءة التي يستخدمان بها في تحليل الظواهر الطبيعية.

بعد وليام بتي بستين عاما كتب ريتشارد كانتيلون كتابا لم ينشر إلا في ١٧٥٥، أي بعد نحو عشرين عاما من تأليفه، بعنوان: مقال في طبيعة التجارة بصفة عامة (Essai sur la Nature du Commerce en General). يرى بعض مؤرخي الفكر الاقتصادي أنه في كثير من الموضوعات لا يقل أهمية عن كتاب آدم سميث.

ومن بين هؤلاء الرواد الأوائل لعلم الاقتصاد الفيلسوف البريطاني الشهير دافيد هيوم David Hume، الذي يعتبره بعض الفلاسفة المعاصرين في بريطانيا وخارجها أهم فلاسفة الغرب على الإطلاق، إذ بدأ أو على الأقل دعم بشدة الاتجاه نحو «فض الاشتباك» بين الفكر العلمي والميتافيزيقا. ويبدو أنه فعل شيئا مشابها (أو على الأقل حاول أن يفعل) في الفكر الاقتصادي، ومن ثم أسهم مساهمة مهمة في تدشين استقلال الكتابة الاقتصادية «كعلم» من العلوم.

من هؤلاء الرواد أيضًا الكاتب الإنجليزي جيمس ستيوارت James Steuart، الذي نشر كتابا في عام ١٧٦٧ يحمل نفس العنوان الذي استخدمه فيما بعد اقتصادي بريطاني شهير بعد آخر، من ريكاردو إلى مالتس إلى جون ستيوارت ميل، وهو عنوان «مبادئ الاقتصاد السياسي» (Principles of Political Economy). وكأنه لم يعد هنالك شك الآن في أن علما جديدا له موضوعاته المعروفة ومبادئه التي يمكن اكتشافها، قد ظهر إلى الوجود.

أسهم أيضًا في بلورة هذا الاتجاه الجديد، تيرجو A.R.J. Turgot في فرنسا، بكتاب بعنوان (Reflections on the Formation and Distribution of Wealth) نشر في عام ١٧٧٠، كما أسهمت في ذلك أيضا مدرسة الطبيعيين (Physiocrats) الشهيرة، في فرنسا أيضًا، التي أثرت في تفكير آدم سميث تأثيرًا كبيرًا، والتي قال عنها جوزيف شومبيتر J. Schumpeter: إنه في ١٧٦٠ لم يكن أحد قد سمع عنها، وفي السبعينيات لم يكن الباريسيون يتكلمون إلا عنها، وفي ١٧٨٠ كانت قد نسيت تمامًا. وهي ظاهرة يمكن تفسيرها بأن كتابات الطبيعيين، كانت تحتوي على نوعين من الخطاب: نوع ينتمي في الحقيقة إلى عصر انقضى أو على وشك الانقضاء إلى غير رجعة، وهو يدور في الأساس حول تمجيدهم للزراعة والأرض باعتبارها المصدر الوحيد للثروة، ونوع آخر يعكس روح العصر الجديد الذي بدأ يتبلور في أوروبا، ويدعو إلى الحرية الاقتصادية وسحب يد الدولة من التدخل في الاقتصاد، وهو الجزء الذي أعجب به آدم سميث أيما إعجاب، وجعله يصف كتابات الطبيعيين بأنها أقرب الكتابات الاقتصادية إلى الحقيقة. إن الجزء الذي ينتمي إلى عصر آخذ في الزوال (أو الرجعي)، لم يكن من المقدر له أن يستمر طويلا في إثارة اهتمام الناس، وأما الجزء

كان لا بد أن يؤدي
النمو الصناعي ونمو
الطبقة المتوسطة وظهور طوائف جديدة
منها، إلى إثارة
أسئلة جديدة



«التقدمي»، أو الأقرب إلى روح العصر الحديث، فقد تبناه آدم سميث وأضاف إليه وجعله أكثر «علمية» في كتاب «ثروة الأمم»، فلم تعد ثمة حاجة، بعد ظهور هذا الكتاب، إلى قراءة كتابات الطبيعيين، أو على الأقل إلى الاهتمام كثيرا بهم.



ثلاثة تطورات مهمة، شهدتها أوروبا (وعلى الأخص بريطانيا وفرنسا) في هذه المائة عام السابقة على ظهور كتاب آدم سميث، ويمكن بها تفسير مجيء هذا المخلوق الجديد المسمى بعلم الاقتصاد. النمو السريع في العلوم الطبيعية. والنمو السريع في الإنتاج الصناعي. والنمو السريع في الطبقة المتوسطة. وسأتناول الآن كلا من هذه التطورات لبيان الدور الذي لعبه كل منها في نشوء علم الاقتصاد، واتسامه بتلك السمات التي سبق أن ذكرت أنها لا تنتمي في الحقيقة إلى طبيعة «العلم»، والتي بقيت مع علم الاقتصاد حتى الآن

أما النمو السريع في العلوم الطبيعية فيكفي بشأنه أن نشير إلى أن هذه الفترة التي نتكلم عنها، يتحد جزء كبير منها مع فترة حياة إسحق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧)، وهو الرجل الذي طبقت شهرته الآفاق في عصره، وأصبح اسمه واسم اكتشافاته العلمية من الكلمات المتداولة حتى بين قليلي الصلة بالعلم أو التعليم. ثمة عالم شهير آخر كان قد توفي قبيل بداية الفترة التي نتكلم عنها بقليل وهو جاليليو الإيطالي الذي توفي عام ١٦٤٢، وكذلك رياضي وفيلسوف شهير آخر، وهو الفرنسي ديكارت الذي توفي ١٦٥٠، وأسهمت فلسفته مساهمة مهمة في تطور التفكير العلمي، وكان قد توفي قبله بقليل البريطاني فرانسيس بيكون (١٦٢٦) الذي اشتهر بأنه الأب الحقيقي للمنهج العلمي الحديث.

لم يكن غريبا بالمرة، في مناخ يسوده الانبهار بقدرة العلم على الكشف عن خبايا العالم الطبيعي، والتفاؤل بقدرة العلم في المستقبل على كشف ما نجهله في الوقت الحاضر، ومن ثم بقدرة الإنسان على زيادة سيطرته على الطبيعة وتسخيرها لخدمته، أن تتجه أذهان بعض المهتمين بخبايا الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتواقين إلى كشف أسرارها، إلى محاولة استخدام نفس المنهج الذي تبناه علماء الطبيعة لتطبيقه على المجتمع والاقتصاد والسياسة. كان من أوائل من

حاول ذلك فى علم السياسة. فى نفس الفترة، الفيلسوف البريطانى توماس هوبز Hobbes، وفى علم الاجتماع، فى نفس الفترة أيضاً، الكاتبان الفرنسيان روسو J. Rousseau ومونتسكيو L.C. Montesquieu، بالإضافة إلى الأسماء التى ذكرتها منذ قليل فى علم الاقتصاد.

ولكن إذا كان هذا النمو السريع فى العلوم الطبيعية قد أسال لعاب المهتمين بالأمور الاقتصادية، ومنحهم الثقة فى قدرتهم على تأسيس علم جديد يتناول هذه الأمور، فإن النمو السريع فى الإنتاج الصناعى، وظهور عصر «الرأسمالية الصناعية»، عندما أصبحت الصناعة، بدلا من التجارة، هى المصدر الأساسى لنمو الثروة، قد زود أصحاب هذا العلم الجديد بالأسئلة التى يمكن أن يحاول هذا العلم تقديم إجابات عنها. صحيح ان هذا القرن السابق على ظهور كتاب «ثروة الأمم»، لم يكن قد شهد بعد قيام ما سمى فيما بعد «بالثورة الصناعية»، بل إن كتاب سميث نفسه، ظهر قبل الفترة التى تنسب إليها عادة هذه الثورة. ولكن الثورة الصناعية التى اتت فى العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر والعقود الاولى من القرن التالى، لم تكن فى الحقيقة إلا تتويجا لنمو سريع فى الإنتاج الصناعى يعود إلى نحو قرن من الزمان، ولتراكم سريع فى الثروة ورؤوس الأموال بدأ قبل الثورة الصناعية بأكثر من قرنين

اقترن هذا النمو السريع فى الإنتاج الصناعى، وتراكم رؤوس الاموال، إذا قورن بدرجة عالية من الركود الاقتصادى التى اتسمت بها العصور الوسطى فى أوروبا، بنمو سريع أيضاً فى الطبقة الوسطى. كان مجتمع العصور الوسطى فى أوروبا يتسم باستقطاب حاد بين طبقة صغيرة للغاية على قمة الهرم، هى فى الأساس طبقة ملاك الأراضى، وطبقة تكاد تشمل بقية المجتمع، وتتكون أساسا من المزارعين الفقراء الذين يقومون بزراعة أرض لا يملكونها. ثم أدى نمو التجارة فى عصر النهضة الأوروبى، إلى بزوغ طبقة وسطى بين هاتين الطبقتين، كما أدى نمو الصناعة والتجارة فى القرن الذى نتكلم عنه، إلى نمو أسرع بكثير فى هذه الطبقة الوسطى التى تتكون من أشخاص يتمثل مصدر ثروتهم ودخلهم فى رأس المال المستخدم فى التجارة أو الإنتاج الصناعى، أو فى الاشتغال بمختلف المهن التى شجع على نموها النمو التجارى والصناعى نفسه، كالاشتغال بالهندسة أو الطب أو المحاسبة أو المحاماة أو التدريس، أو بمختلف الحرف والفنون التى شجع على نموها نمو الثروة نفسها، وزيادة الترف وأوقات الفراغ التى تقترن بزيادة الثروة.

تداخلت هذه التطورات الثلاثة: نمو العلوم الطبيعية، ونمو الصناعة، ونمو الطبقة الوسطى، فغذى كل منها التطورين الآخرين، فى عملية تراكمية باهرة. فالتقدم العلمى أدى إلى تقدم تكنولوجى زاد من معدل نمو الصناعة، وأدى نمو الصناعة بدوره إلى إثارة مشاكل عملية جديدة حفزت على مزيد من التقدم فى التكنولوجيا والعلم. وقد أدى نمو الصناعة والتجارة إلى زيادة الدخول، مما زاد الطلب على مختلف الحرف والخدمات، ومن ثم من سرعة نمو الطبقة المتوسطة. ولكن النمو فى الطبقة المتوسطة والتقدم العلمى أديا معا إلى زيادة الطلب على التعليم مما أدى بدوره إلى مزيد من التقدم العلمى من ناحية، وإلى نمو اكبر فى الطبقة المتوسطة من ناحية أخرى.

كان لا بد أن يؤدى النمو الصناعى ونمو الطبقة المتوسطه وظهور طوائف جديدة منها، إلى إثارة اسئلة جديدة، لم تكن مثارة من قبل، وتسليط الضوء على قضايا لم تستلفت النظر من قبل بنفس الدرجة. وهى أسئلة وقضايا مما يمكن أن يندرج تحت علم جديد هو علم الاقتصاد. فما الثروة بالضبط؟ وما عناصرها وعوامل نموها أو نضوبها؟ وما عناصر الإنتاج التى يمكن أن ترد إليها كل السلع والخدمات؟ وما الذى يزيد أو يخفض من إنتاجية العمل، مما يمكن أن يسمى بمزايا «تقسيم العمل»؟ وما العوامل المحددة للثمن؟ حجم الطلب ام مستوى النفقات؟ وما النظام الأمثل الذى يؤدى إلى أعظم قدر من الإنتاج؟ المنافسة الكاملة أم الاحتكار؟ تدخل الدولة فى قرارات المنتجين أم تركهم أحرارا؟ وما العوامل التى تحدد توزيع الناتج القومى بين طبقات المجتمع: ملاك الأراضى وملاك المصانع (أو الرأسماليون) والعمال؟ وما طبيعة العلاقة بين هذه الطبقات الثلاث: تعاون أم تضاد؟ وهل تتعارض مصلحة بعض الطبقات مع مصالح غيرها من الطبقات أم ان مصالح الطبقات كلها منسجم بعضها مع البعض الأخر؟ وما مصير كل نوع من أنواع الدخول فى المدى الطويل هل تميل الاجور الى الزيادة أم الثبات؟ وهل يميل معدل الربح الى الزيادة ام النقصان؟ وحجم الريع الذى يحصل عليه مالك الأرض، هل يميل إلى الزيادة مع زيادة السكان؟ وهل هو نوع متميز عن بقية أنواع الدخول بالنظر إلى أن ملكية الأرض لا تستند إلى بذل اى جهد او تضحية، بعكس العمل الذى يمثل مشقة بلا شك، وربح الرأسمالى الذى يتطلب ادخارا مما ينطوى على التضحية بالاستهلاك الفورى؟ كل هذه أسئلة مهمة بلا شك، أو هكذا على الاقل بدت للبعض ابتداء من أواخر القرن السابع عشر، وزاد الاهتمام بها قوة وانتشارا مع حلول الثورة الصناعية. واستمر الاهتمام بها حتى اليوم. ولكن هذه الاسئلة ربما لم تعد تبدو لنا اليوم أسئلة «مصيرية»، مثلما كانت تبدو للاقتصاديين الكلاسيك (أو التقليديين) فى بريطانيا ولقرائهم، فى النصف الاول من القرن التاسع عشر، عندما كان تعلم «علم الاقتصاد»، ولو فى البيت على يد مدرسين خصوصيين يستأجرون لهذا الغرض، يعتبر جزءا أساسيا ولا غنى عنه من تعليم أى شاب يطمح إلى المشاركة فى الحياة العامة.

من المفهوم تماما أن تثير هذه الاسئلة وأمثالها كل هذا الاهتمام فى ذلك الوقت، ولكن من المفهوم تماما أيضا غياب هذه الاسئلة وأمثالها، غيابا يكاد أن يكون تاما، فى العصور السابقة، أى القرون السابقة على نيوتن، والسابقة على نمو الرأسمالية الصناعية، والسابقة على هذا النمو السريع فى الطبقة الوسطى.

لم يقتصر أثر هذه التطورات الجديدة التى طرأت على الاقتصاد والمجتمع الأوروبى على إثارة أسئلة لم تكن مثارة أو لم تكن محل اهتمام كبير قبل ذلك القرن الذى نتكلم عنه، بل أدت هذه التطورات أيضاً إلى تكرار بعض الظواهر الاقتصادية بدرجة كافية تسمح وتغرى بالتعميم، أى تغرى بالبحث عن «قوانين عامة» تحكم هذه الظواهر، مثلما تحكم القوانين التى اكتشفها نيوتن كثيراً من الظواهر الطبيعية.

الذى اقصده بالقول «بتكرار بعض الظواهر الاقتصادية بدرجة كافية تسمح وتغرى بالتعميم»، إنه فى هذه الفترة التى نتكلم عنها (١٦٧٦ - ١٧٧٦) اقترب النظام الاقتصادى

فى بريطانيا وفرنسا من النظام الذى تعرفه النظرية الاقتصادية باسم «المنافسة الكاملة» (Perfect Competition)، ربما بدرجة أكبر مما عرفته أوروبا فى أى عصر آخر. إن النظرية الاقتصادية تعتبر الشروط الأساسية لنظام المنافسة الكاملة هى كثرة عدد المنتجين والمشترين لسلعة ما لدرجة فقدان أى منتج بمفرده، أو أى مشتر بمفرده، لأى قدرة على التأثير فى سعر هذه السلعة؛ والتجانس التام بين وحدات السلعة بحيث يتعذر التمييز بين وحدة وأخرى؛ وتوفر المعرفة الكاملة لدى المنتجين والمشترين بظروف السوق من حيث انعدام قدرة المنتج الواحد أو المشترى الواحد على التأثير فى الثمن، ومن حيث توفر هذا التجانس التام بين وحدات السلعة؛ وأخيراً عدم وجود قيود على انضمام أى منتج جديد إلى المنتجين الحاليين. إن هذه الشروط يصعب تصور انطباقها انطباقا كاملا وبحذافيرها فى أى وقت أو أى بلد، وإنما هى تمثل أحد طرفين نقيضين، وهو الطرف الذى يتحقق عنده أكبر قدر من المنافسة بين المنتجين والمشترين، بينما يمثل الطرف الآخر حالة الاحتكار الكامل (وهى أيضا حالة يصعب تحققها فى الواقع تحققا كاملا) حيث يكون المنتج ذا قدرة كاملة على التحكم فى المشترين كما يشاء.

لقد ذكرت أن الفترة التى نتكلم عنها، والتى نشأ فيها علم الاقتصاد، هى الفترة التى تحقق فيها نظام المنافسة الكاملة بدرجة أكبر مما عرفته أوروبا فى أى عصر آخر، على أساس أن السلع الزراعية كانت لا تزال تمثل الجزء الأكبر من السلع المنتجة فى أى بلد أوروبى، وهى سلع تتحقق فيها المنافسة عادة بدرجة أكبر مما تتحقق فى السلع الصناعية، وأن السلع الصناعية الآخذة فى النمو فى تلك الفترة كانت لا تزال قريبة فى طبيعتها من السلع الزراعية (كالمنسوجات مثلا)، ويقوم بإنتاجها عدد كبير من الورش الصغيرة أو العاملين فى منازلهم، قبل أن تنتشر أى صورة من صور الاحتكار التى عرفتها أوروبا فيما بعد. فى مثل هذه الظروف (أى عندما تقترب حالة السوق إلى هذه الدرجة من نظام المنافسة الكاملة، حيث يكثر عدد المنتجين والمشترين لنفس السلعة مع التجانس التام، أو شبه التام، بين وحدات السلعة) يمكن أن نتصور تكرر نفس النشاط الاقتصادى بنفس السمات، المرة تلو الأخرى، مما يسمح بالتعميم، أو بالبحث عن «قوانين» عامة تحكم هذا النشاط وتفسره (كمحاولة تفسير لماذا تباع هذه السلعة دائما بهذا السعر، أو لماذا يحصل العمال المنتجون لسلعة ما على هذا الأجر وليس على أجر أعلى منه أو أقل)، ويبدو النشاط الاقتصادى فى هذه الحالة قريب الشبه بالظواهر الطبيعية التى تتمتع بالاستقلال عن إرادة الإنسان، ومن ثم تغرى بمحاولة اكتشاف القوانين الحاكمة لها. وذلك بعكس حالة الاحتكار، حيث يستطيع المنتج الوحيد أن يتحكم فى سعر السلعة بدرجة تجعل من الصعب التنبؤ بما سوف يفعله، وبالسعر الذى سيفرضه، ومن ثم تتضاءل فرصة الوصول إلى تعميم صحيح أى إلى اكتشاف قوانين اقتصادية عامة.

هكذا كانت الظروف مهيأة تماماً فى ذلك القرن الذى نتكلم عنه لميلاد علم جديد هو «علم الاقتصاد»: نجاح العلوم الطبيعية فى الكشف عن المجهول فى مسار الظواهر الطبيعية يغرى بمحاولة تحقيق نجاح مماثل فى الكشف عن المجهول فى مسار الظواهر الاجتماعية، ومنها مختلف أوجه النشاط الاقتصادى. والنمو السريع فى الصناعة وفى حجم الطبقة الوسطى يثير أسئلة جديدة تغرى بمحاولة الإجابة عنها. وسيادة نمط «المنافسة الكاملة» فى الأسواق يسمح بتكرر بعض الظواهر الاقتصادية عددا كافيا من المرات يغرى بإمكانية التعميم، أى باكتشاف قوانين عامة تحكم هذه الظواهر.

فى هذه الظروف نشأ علم الاقتصاد: مجتمع صناعى طبقى، تسوده قيم الطبقة الوسطى، أو على الأقل تزداد فيه قيم هذه الطبقة قوة ونفوذا يوما بعد يوم، وهى طبقة تسكن أساسا فى المدن، ولها نظرة معينة للحياة، وتطلعات وآمال معينة فيما يتعلق بمستقبلها الاقتصادى. وقد نشأت وترعرعت فى ظل تقدم سريع للعلوم الطبيعية والتكنولوجيا، فاكتسبت ثقة عالية بالعلم والعقل الإنسانى وبمقدرة الإنسان على التحكم فى مصيره، وفى ظل مناخ ثقافى وفكرى يقدس «التنوير»، ويتهكم على الميتافيزيقا، ويؤكد على تحكيم العقل فى كل مناحى الحياة. وقد اقترن الصعود الاقتصادى لهذه الطبقة بوجود حافز قوى للنجاح وإثبات الذات وتحقيق مستوى أعلى للاستهلاك. ولكن هذا الصعود الاقتصادى أدى أيضاً إلى صعود اجتماعى وسياسى وتحسن مركز أفراد هذه الطبقة النسبى فى المجتمع، فهم مدينون إذن لتقدمهم الاقتصادى بتقدمهم فى مختلف جوانب الحياة الأخرى، كما أنهم مدينون فى تقدمهم الاقتصادى وغير الاقتصادى، لجهودهم الخاصة وليس لجهود غيرهم أو جهود الدولة.

من السهل أن نرى أن هذه الظروف التى نشأ وترعرع فيها علم الاقتصاد ظروف خاصة جداً، ذات سمات اقتصادية واجتماعية وثقافية وتكنولوجية معينة، لبلاد بعينها، فى فترة تاريخية محددة، ومن الصعب تصور تكررها بحذافيرها فى بلاد أخرى أو فترات تاريخية مختلفة. فإذا كان الأمر كذلك، فكيف لا نتوقع ألا تكون لعلم الاقتصاد الذى نشأ فى هذه الظروف، سمات معينة تعكس هذه الظروف وتتلون بلونها؟ هذا هو بالفعل ما يجب أن نتوقعه. ولكن من المهم أيضاً أن نلاحظ أن هذه السمات قد لا تكون لها أى علاقة بالعلم كما نفهمه، أو بالموضوعية أو بالحياد، بل من الممكن جداً أن تكون سمات تعكس تحيزات وأهواء مجتمع معين، أو تحيزات طبقة معينة داخل المجتمع، نمت وترعرعت فى ظروف بعينها فاكتسبت تحيزاتها وأهواءها من هذه الظروف. هذا هو بالضبط ما نميل إليه ونرمى إلى توضيحه هنا. وهذه السمات الخاصة والتى اكتسبها علم الاقتصاد من ظروف نشأته ولايزال يتسم بها حتى الآن.



(١) هناك أولا ذلك الميل القوى لدى الاقتصادى إلى افتراض العقلانية، أى افتراض أن الإنسان فى سلوكه الاقتصادى، مستثمرا أو منتجا أو مستهلكا، لا يحتكم إلا لمقتضيات العقل، بجمع المعلومات اللازمة لاتخاذ القرار الصحيح، ويقارن بين منافع كل قرار ممكن وبين نفقاته أو أعبائه، ويتخذ القرار الذى يحقق أقصى نفع صاف، بعد طرح النفقات والأعباء. هذه هى صورة «الإنسان الاقتصادى» (Economic Man) الذى ظهر على استحياء لأول مرة على يد الاقتصاديين الأوائل الذين مهدوا الطريق لآدم سميث، ثم اتضحت صورته على يد سميث، ثم بلغت أقصى درجة من الوضوح على يد الكلاسيكيين المحدثين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. هذا «الإنسان الاقتصادى»، كما صوره الاقتصاديون، هو نموذج مجرد للإنسان، مجرد من أى دوافع عدا دافع تعظيم الفارق بين العوائد والنفقات، فهو إنسان بلا عواطف ولا تاريخ ولا ذكريات ولا وطن ولا أسرة، إنه إنسان «اقتصادى» فحسب، فكيف لا يكون العقل، والعقل وحده، هو محركه؟

قد يكون افتراض العقلانية ملائما لدراسة النشاط الاقتصادى بالذات أكثر من ملاءمته لغيره من أنواع النشاط الإنسانى، حيث إنه نشاط يلعب فيه هدف تعظيم النفع الصافى دوراً أكبر من غيره، ويمكن قياسه بالنقود أكثر مما يمكن فى غيره، ومن ثم يمكن القول: بأن افتراض العقلانية فى دراسة النشاط الاقتصادى، ليس قراراً تحكميا نشأ فى ظروف تاريخية معينة، بل هو قرار ضرورى فرضته طبيعة النشاط الاقتصادى، ومن ثم لا مجال هنا للكلام عن «تحيز» بعض الاقتصاديين أو خضوعهم لأهواء وأفكار مسبقة فرضتها عليهم ظروف نشأة هذا العلم. ولكن من الممكن الرد على هذا القول بالإشارة إلى مختلف أنواع «اللاعقلانية» التى تحكم تصرفات المستهلكين وقراراتهم سواء تعلقت بنوع السلع والخدمات التى يقبلون على شرائها، أو الكميات التى يشترونها منها، والأسعار التى يقبلون أو يرفضون دفعها. بل حتى المستثمرين والمنتجين، الذين تبدو قراراتهم أكثر



هذا التحيز وهذه الأفكار المسبقة لابد أن تكون لها جذور فى ظروف النشأة التاريخية لعلم الاقتصاد

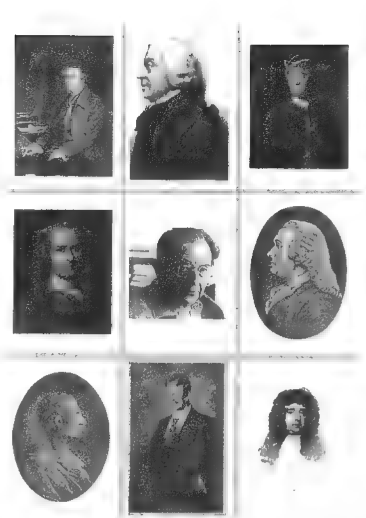


«عقلانية» بالمعنى المتقدم. كثيرا ما يتخذون قراراتهم بناء على اعتبارات عاطفية أو تاريخية لا تتفق مع مقتضيات «تعظيم العائد الصافى»، على النحو الذى سنبينه بالتفصيل فى الفصلين المتعلقين بالإنتاج والاستهلاك.

فإذا كان هذا صحيحا، ألا يبدو تركيز الاقتصادى على بحث الجوانب «العقلانية» للنشاط الاقتصادى، نتيجة تحيز أو أفكار مسبقة؟

هذا التحيز وهذه الأفكار المسبقة لابد أن تكون لها جذور فى ظروف النشأة التاريخية لعلم الاقتصاد، والتى ذكرنا بعضها بإيجاز فيما تقدم. ظروف اجتماعية وثقافية تتسم بتقديس العقل، حتى أطلق بعض المؤرخين على ذلك العصر الذى نشأ فيه علم الاقتصاد «عصر العقل» (The Age of Reason)، وبثقة بالغة بقدرة العقل على كشف أسرار السلوك الإنسانى، وبوجود سبب «عقلى» للظواهر الاجتماعية. أضف إلى ذلك الافتتان بدرجة الدقة التى بلغها علماء الطبيعة، وطموح المشتغلين بالدراسات الاجتماعية إلى بلوغ نفس الدرجة من الدقة واليقين، ولكن هذه الدقة وهذا اليقين لا يمكن بلوغهما إلا بافتراض «العقلانية»، إذ إن اللاعقلانية لابد أن تطيح بكل النتائج وتجعل التعميم مستحيلا أو شبه مستحيل، ناهيك عن التعميم القابل للتعبير عنه بالأرقام.

(٢) هناك ثانيا، الميل القوى أيضا لدى الاقتصادى إلى افتراض أن الإنسان لا تحركه إلا مصلحته الخاصة. لا شك أن مثل هذا الزعم لو كانت قد بلغت بأحد الجرأة على القول به فى أحد قرون العصر الوسيط فى أوروبا، لاعتبر منه ذلك إمعانا فى اللا أخلاقية، فضلا عن اعتباره مخالفا تماما للحقيقة. فالشيطان وحده هو الذى يمكن أن يسعى إلى تحقيق مصلحته الخاصة ولو كانت متعارضة مع أوامر الله ومصالح سائر الناس. وهكذا عندما قال الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز بذلك فى منتصف القرن السابع عشر اعتبر ذلك أيضاً جراءة شديدة، ومع ذلك فقد راج كتابه رواجاً شديداً ورحب به الكثيرون وتأثروا به. كانت أوروبا قد بدأت تتغير وبدا من الممكن الكلام عن الإنسان بوجه عام وكأنه فى مختلف تصرفاته تحكمه نفس الدوافع التى تحكم رب العمل المشتغل بالتجارة أو الصناعة فى سعيه إلى تحقيق أقصى ربح. فلما قال آدم سميث شيئا مماثلا بعد هوبز بمائة عام، واعتبر السعى إلى تحقيق المصلحة الخاصة الأساس الذى يقوم عليه النظام الاقتصادى بأكمله، اعتبر كتاب سميث الكلمة النهائية فى الأمر، ولايزال هذا المبدأ يعتبر حتى الآن أساس الفلسفة الاقتصادية التى يتبناها الاتجاه الغالب فى علم الاقتصاد.



لاشك فى أن الجاذبية التى يتمتع بها هذا المبدأ (أو هذا الافتراض)، والتى تدفع الكثيرين إلى قبوله دون تردد، ترجع إلى أمرين: أولهما كثرة الحالات التى يتحقق فيها، أى كثرة الحالات التى يبدو فيها أن الإنسان يسعى بالفعل إلى تحقيق مصلحته الخاصة ولو تعارضت مع مصالح غيره، وثانيهما أن هذا المبدأ يمكن أن يفهم (ويصاغ) على نحو يجعله صحيحا دائما، وذلك إذا فهم بمعنى أن الإنسان إذا ووجه بالاختيار بين عدة أمور سوف يختار دائما ما يرضيه أو ما يرتاح إليه. ولكن فهم مبدأ السعى إلى تحقيق المصلحة الخاصة على هذا النحو، لا يجعل هذا المبدأ صحيحا دائماً إلا بسبب كونه بديهياً، إذ إنه لا يختلف عن القول بأن الإنسان يختار دائما ما يفضله، أو أنه يفضل ما يختاره، وهو قول صحيح لأنه بمثابة «تعريف الماء بعد الجهد بالماء»، ولكننا متى صرفنا النظر عن هذا الفهم لمبدأ السعى لتحقيق المصلحة الخاصة نجد أنه ليس دائما صحيحا فما أكثر ما يختار المرء سلوكا معينا، ولو أنه يحدث بعض الضرر به شخصيا، لمجرد أنه فى صالح فرد آخر يهمه أمره، أو جماعة يريد خدمتها، أو بسبب اعتناقه لمبدأ يؤمن به. لقد ولد كل منا ولديه استعداد طبيعى للتصرف على النحو الذى يضمن له البقاء، وهذا قد يدفعنا فى معظم الأحوال إلى تفضيل المصلحة الخاصة على مصالح الغير، ولكن كلا منا يولد أيضاً ولديه استعداد طبيعى لحماية الجماعة التى ينتمى إليها ويحقق لها البقاء والاستمرار، وهذا قد يدفع المرء فى حالات كثيرة إلى تفضيل مصلحة الغير على مصلحته الخاصة. بل حتى هدف حماية المرء لنفسه وضمان بقائه هو كفرد، قد يدفعه فى كثير من الأحيان إلى التضحية بمكاسب شخصية مباشرة من أجل أن يكسب رضا الآخرين عنه، أو محبتهم له، أو من أجل حثهم على الدفاع عنه. فى هذه الحالة قد تكون التضحية ببعض المصالح الخاصة شرطا لتحقيق مصالح خاصة أخرى أكثر أهمية ولكنها لا تتحقق إلا فى الأجل الطويل.

إذا كان كل هذا صحيحا فليس هناك فيما يبدو ما يبرر الاقتصادى على افتراض الأنانية كمحرك للسلوك الاقتصادى، اللهم إلا تحيز وأفكار مسبقة اكتسبها فى فترة معينة من تاريخ هذا العلم، هى فترة بزوغ الرأسمالية الصناعية حينما رحبت البورجوازية الصاعدة بأى نوع من الكتابة يعيد رسم العالم فيجعله يتخذ صورة البورجوازى الصاعد نفسه، بكل بواعثه وطموحاته.

(٣) لا يكتفى الاقتصادى بافتراض أن الأنانية هى الباعث الأساسى للسلوك الاقتصادى بل إنه وجد دائما من السهل أن يفترض أن سعى المرء لتحقيق مصلحته الخاصة يؤدى دائما إلى تحقيق المصلحة العامة للمجتمع ككل.

عندما نشر الكاتب الفرنسى ماندفيل B. Mandeville فى سنة ١٧١٤ كتابا بعنوان «خرافة النحل» (The Fable of the Bees)، أعطى له عنوانا فرعيا هو «الرذائل الخاصة منافع عامة» (Private Vices Public Benefits) وهذا العنوان الفرعى يلخص فكرته الأساسية: وهى أن الإنسان وهو يسعى إلى تحقيق مصالحه الخاصة، مدفوعا ببواعث أنانية بحتة (وهذه هى الرذائل الخاصة)، إنما يحقق فى نفس الوقت مصلحة للمجتمع ككل (منافع عامة).

فالرجل الثرى إذ ينفق ماله على ملذاته الخاصة، لا يستهدف بذلك إلا إشباع حاجاته الخاصة التى قد تكون محض رذائل، ولكنه يخلق بهذا الإنفاق فرص عمل جديدة للعمال المتعطلين، وهى نتيجة مفيدة لغيره لم تكن قط هدفا من أهدافه.

كان قول مثل هذا الكلام فى ذلك الوقت (أوائل القرن الثامن عشر) يعتبر فى حد ذاته «رذيلة»، إذ إنه ينطوى على تقديم تبرير ما لإطلاق العنان لإشباع رغبات الإنسان الخاصة، مهما كانت شريرة، بحجة أنها تؤدى إلى تحقيق بعض النفع لأشخاص آخرين. وهذا موقف يستنكره الدين وتأباه الفضيلة. لا عجب أن استقبل الكتاب فى وقته بالهجوم الشديد والتشهير بصاحبه الذى كان اسمه يعطى الفرصة لهذا التشهير، فبدلا من «ماند فيل» كان ينطق الاسم «مان ديفيل» (Man-Devil) الذى يعنى بالإنجليزية (الرجل الشيطان).

هذه المقولة التي سببت كل هذا الهجوم على ماندفيل. كانت هي نفسها إحدى المقولات الأساسية التي جلبت المجد لآدم سميث عندما قالها في كتابه «ثروة الأمم»، بعد ماندفيل بستين عاما. لا بد أن من بين أسباب هذا الاختلاف في معاملة الرجلين، أن سميث كان يكتب كلاما «أكاديميا»، لقراء من الخاصة، بينما كان ماندفيل يخاطب جمهورا أوسع. ولكن لابد أن كان من أسباب اختلاف المعاملة أيضا ما حدث في بريطانيا خلال هذه الستين عاما. إذ لا شك أن التطورات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، التي المحت إلى بعضها، قد هيأت الأذهان، أكثر مما كانت مهيأة من قبل، لقبول هذه الفكرة الجديدة: «دع الناس يتصرفون بحرية، ولا تحاول كبح جماح الباعث الخاص، فإنك إذا فعلت هذا تضر بمصلحة المجتمع ككل».

هذه الفكرة البسيطة هي في الحقيقة أحد الأعمدة الأساسية التي قام عليها الفكر الرأسمالي بأسره، ولا يزال يستند إليها حتى اليوم، ولكنها ليست أقرب إلى «العلم» من ضدها، أي من القول بأن مصلحة الفرد كثيراً ما تتعارض مع مصلحة المجتمع ككل. صحيح أن قيام الرأسمالي بالادخار والاستثمار قد يؤدي إلى تشغيل بعض العمال المتعطلين، ولكن ألا يمكن أن يؤدي إلى إحلال الآلات محل بعض العمال فيزيد بذلك حجم البطالة؟ صحيح أيضاً أن المنافسة الكاملة قد تضطر الرأسمالي إلى أن يرفع مستوى الأجر الذي يدفعه للعامل إلى أعلى مما كان يرغب في دفعه، ولكن ألا يحدث العكس في ظل الاحتكار؟ الأمثلة إذن كثيرة على تعارض المصلحة الخاصة مع المصلحة العامة، كما أن الأمثلة كثيرة أيضا على اتفاق المصلحتين. فما الذي دفع آدم سميث ومن بعده بقية الاقتصاديين الكلاسيك (ومن قبله ماندفيل) إلى التأكيد على الاتفاق بدلا من التعارض إلا تحيز ما، وميل مسبق لم يكن مصدرهما العلم، بل مصادر أخرى لا صلة لها بالعلم؟

(٤) من حسن حظ الإنسان (أم الأصح أن نقول: من سوء حظه؟) أن ذهنه لا يتلقى من العالم الخارجي صورة هي طبق الأصل بالضبط، مثلما تنقل الآلة الفوتوغرافية صورة العالم، بل يتلقى الذهن ما تتلقاه الحواس بصورة معدلة أو محرفة أو ملونة. ويمكن أن يتخذ هذا التعديل أو التحريف أو التلوين أشكالا متعددة تشبه في اختلافها، الفروق التي نجدها بين المدارس المختلفة في الرسم. فهناك المدرسة التي ترى الأشياء وكأنها «مكعبات»، وهناك المدرسة التي ترى الأشياء وكأنها تتكون من ذرات صغيرة، وأخرى ترى الأشياء قاتمة وكأنها ترى من خلال سحابة أو غمامة، ولكن هناك أيضا المدرسة «الواقعية» التي ترى الأشياء كما تنقلها الآلة الفوتوغرافية. لابد أن نتوقع أن يوجد اختلاف في التصور العقلي للإنسان وتصرفاته، يماثل هذا الاختلاف في تصور العالم المادي. وقد كان الفيلسوف الفرنسي ديكارت Decartes من أوائل من رأى في الإنسان شيئا شبيها جداً بالآلة، وسار في هذا الاتجاه عدة فلاسفة بعد ديكارت، مثل هوبز، الذي قال: إن الحياة ليست إلا «حركة الأطراف»، والقلب ليس إلا لولبًا (زنبرك)، والأعصاب خيوط أو حبال. كما أن من الممكن أن نلمس اتجاها مماثلا لدى الرواد الأوائل لعلم الاقتصاد، وعلى الأخص لدى آدم سميث، ولكن هذا الاتجاه ظل سمة ثابتة من سمات علم الاقتصاد حتى اليوم، بل وربما مع تزايد في القوة.

لا يمكن لأحد أن ينكر وجود بعض أوجه الشبه بين الإنسان والآلة، ومن ثم وجود بعض أوجه الشبه أيضًا بين السلوك الاقتصادي للإنسان، وسلوك الآلة. الآلة تكرر نفس العمل بحذافيره المرة بعد الأخرى، وكذلك قد يفعل الإنسان. الآلة تعمل بغير تفكير، وكذلك يعمل الإنسان أحيانا، أو هكذا يبدو لنا أحيانا. الآلة قد تستقبل المادة الأولية، وقد تحللها أو تمزجها بمواد أخرى، ثم تخرج ما دخل فيها في صورة مختلفة بعض الشيء عن الصورة التي كانت عليها عند دخولها، دون إضافة مهمة من الآلة نفسها غير هذه العملية من الخلط أو المزج، وكذلك قد يفعل الإنسان، عندما يقتصر دوره على إخراج ما استقبله دون إضافة مهمة من جانبه. سلوك الآلة منضبط ويمكن التنبؤ به، وكذلك سلوك الإنسان أحيانا. وهكذا يمكن ذكر أوجه شبه متعددة بين الآلة والإنسان. ولكن من المؤكد أن الإنسان كثيراً أيضاً ما يتصرف تصرفا «غير آلي»، لسبب بسيط وهو أن الإنسان بعكس الآلة كائن حي. فالإنسان أقل قدرة من الآلة على تكرار نفس العمل بحذافيره، بل قد يجد في هذا التكرار عملية ممضة ومؤلمة لمنافاتها لطبيعته. والإنسان أيضاً أقل قدرة من الآلة على الحفظ، وإعادة إخراج ما حفظ كما هو دون أن يختلط بشيء من نفسه ولو كان مجرد «الخطأ»، وهذا الخطأ هو مظهر من مظاهر ضعف الإنسان ومن مظاهر قوته في نفس الوقت. والإنسان بعكس الآلة كائن عاطفي يصعب أو يستحيل عليه ألا يخلط المعلومات التي يستقبلها بتجاربه وذكرياته ومن ثم ألا يتخذ «موقفا» من هذه المعلومات. «فالتحيز» إذن، كما رأينا، من طبيعة الإنسان ولكنه ليس من طبيعة الآلة.

لسبب ما، مع ذلك، أو لعدة أسباب، مال الاقتصاديون منذ أيام النشأة الأولى لعلم الاقتصاد إلى النظر إلى الإنسان وكأن أوجه الشبه بينه وبين الآلة، أهم من أوجه الاختلاف. ومن الطريف أن نلاحظ المفارقة الصارخة بين هذا الميل لدى الاقتصاديين في هذه الفترة، إلى النظر إلى الإنسان الحي وكأنه آلة لا حياة فيها. وبين الميل العكسي بالضبط لدى فلاسفة الإغريق القدماء عندما كانوا كثيرا ما يتكلمون عن الجماد أو النبات وكأنه ذو إرادة كالإنسان. فيتكلمون مثلا عن «نزوع» الثمرة إلى السقوط على الأرض! هل كان السبب في ظهور هذا الميل لدى رواد علم الاقتصاد هو انبهار الناس بالآلة في بداية العصر الصناعي الحديث، وافتتانهم بقدراتها، فمالوا إلى تعظيم هذا الجانب في الإنسان على حساب الجوانب الإنسانية البحتة؟ أم السبب أن التركيز على الصفات «الآلية» في الإنسان يسمح بالوصول إلى تعميمات أكثر دقة ويسمح بالقول بوجود «قوانين» تحكم السلوك الإنساني، أشبه بتلك التي تحكم سلوك الظواهر المادية، (بما في ذلك سلوك الآلة نفسها)، بعكس الجوانب الإنسانية البحتة التي يؤدي الاعتراف بها أو تأكيدها إلى صعوبة صياغة قوانين منضبطة عن السلوك الإنساني وإلى صعوبة أو استحالة التنبؤ به؟

أيا كان السبب فهذا هو ما حدث: مال الاقتصاديون أكثر فأكثر، منذ نشأة علم الاقتصاد وطوال القرون الثلاثة التالية، إلى صياغة تعميمات وقوانين عن السلوك الاقتصادي يبدو الإنسان فيها وكأنه شيء شبيه بالآلة، يفتقد المشاعر والتعاطف مع الغير كما يفتقد القدرة على التخيل، بل وحتى الإرادة.

هكذا يبدو المستثمر الذي يتخذ ميدان استثماره بناء على اعتبارات تعظيم الربح وحدها، والمنتج عندما يتخذ قراراته المتعلقة بالكمية التي يقوم بإنتاجها والسعر الذي يبيعها به، والمستهلك الذي يختار السلع والكميات التي يشتريها بناء على اعتبارات لا تختلف كثيرا عن اعتبارات تعظيم الربح لدى المنتج، وهي اعتبارات «تعظيم المنفعة». وهكذا تصور الاقتصاديون شيئا سموه «نظام السوق»، الذي هو حصيلة تفاعل إرادات المنتجين والمستهلكين، ولكنه يعمل وكأنه مدفوع بقوة عمياء ليصل إلى نتيجة مستقلة عن كل هذه الإرادات. «فالسوق»، الذي لا يعني مكانا بعينه يلتقي فيه المنتجون والمشترون، يعمل بصورة تلقائية، ولا يتأثر بأي إرادة منفردة لهذا المنتج أو هذا المشتري بالذات، بل يعكس بشكل «محايد» تماماً محصلة اجتماع إرادات المنتجين والمشترين جميعا، كما يعبر عنها «جهاز الثمن» (price mechanism)، وهو «جهاز» محايد بدوره، يعمل بطريقة أتوماتيكية، بمعنى أنه مجرد من أي صفة من الصفات الإنسانية، فلا يخرج منه أكثر مما دخل فيه. فإذا حدث وطرأ عليه تغير بسبب تغير أحد العوامل المؤثرة فيه (من عوامل العرض أو الطلب) استجابت على الفور عناصر أخرى في هذا الجهاز، كما يحدث في أي جهاز مادي، مما يدفع الثمن إلى التوازن (equilibrium) من جديد، ولو عند مستوى مختلف عن مستواه الأصلي. هذا المستوى الجديد للثمن، الذي قال آدم سميث إن الثمن لابد أن «ينجذب إليه» (gravitate)، يستقر عنده الثمن ما لم يطرأ تغير جديد على أحد العناصر المحددة له. الإرادة الإنسانية إذن غائبة تماماً أو شبه غائبة، مما يجعل من الممكن صياغة قوانين عامة عن السلوك الاقتصادي



مال الاقتصاديون منذ أيام النشأة الأولى لعلم الاقتصاد إلى النظر إلى الإنسان وكأن أوجه الشبه بينه وبين الآلة، أهم من أوجه الاختلاف



ويسمح بالتنبؤ بسلوك الإنسان في المستقبل.

هذا هو في رأيي أحد الأسباب الرئيسية وراء الاستقبال الحافل الذي لقيه كتاب آدم سميث «ثروة الأمم»، والمكانة التي ظل يحتلها بعد ذلك بين الاقتصاديين. فقد دشّن هذا الكتاب بدرجة عالية من الشمول والكفاءة، هذه النظرة الجديدة للسلوك الاقتصادي، التي يمكن وصفها بالنظرة الميكانيكية، حيث يبدو فيها السلوك الاقتصادي أشبه بسلوك الآلة منه في أي تصوير سابق، وفي مناخ بدأت تهب فيه رياح الثورة الصناعية، وتحتل فيه اكتشافات نيوتن تلك المكانة العالية، وتشيع فيه الرغبة في اكتشاف قوانين تحكم سير المجتمع وتشبه تلك التي تحكم الظواهر الطبيعية، كان لابد أن يتمتع كتاب مثل كتاب ثروة الأمم بكل هذا الاهتمام.

ولكن لحسن الحظ أن هذه ليست هي النظرة الوحيدة الممكنة للسلوك الاقتصادي، وقد دفع دارسو علم الاقتصاد ثمناً باهظاً في رأيي لانسياقهم وراء هذه النظرة. فإذا كانت هذه النظرة الميكانيكية للسلوك الاقتصادي قد سمحت للاقتصادي بأن يصوغ قوانين أكثر دقة، فإنها كثيراً ما جعلته، فيما يبدو لي، أبعد عن الواقعية وأقل حكمة. لقد قيل مرة عن الاقتصادي: إنه بدلاً من أن يقنع بأن يقترب بشكل عام من الحقيقة فيعطينا صورة تقريبية لها (broadly correct) حتى ولو لم يصبها كلها، انتهى إلى نتائج بالغة الدقة ولكنها خاطئة، (precisely wrong) وهو وصف صحيح في رأيي لكثير من بحوث الاقتصاديين ونظرياتهم.

لقد سبق أن ذكرت دأب الاقتصاديين على افتراض العقلانية في السلوك الاقتصادي، وأنه افتراض أسهم في إبعاد التحليل الاقتصادي عن الواقع، ولكن هناك أيضاً افتراض القابلية للتجزئة، سواء في سلوك المستهلك أو المنتج، وهو افتراض قد يصف الحقيقة في الظواهر المادية ولكنه بعيد عن حقيقة الكائنات الحية. والاقتصادي يفترض أيضاً أن قدرة الإنسان على جمع المعلومات عن السلع المعروضة عليه، وعلى المقارنة بين أسعارها وأنواعها، قدرة لا نهائية، والواقع يدل على غير ذلك، فالإنسان ليس لديه قدرة الكومبيوتر على تخزين المعلومات وترتيبها وتصنيفها. والاقتصادي يفترض أن قدرة الإنسان على تعظيم (maximization) بعض المنافع لا تضر بقدرته على التمتع بمنافع أخرى، وهذا شيء قد يتوفر في الأشياء غير الحية ولكنه لا يتوفر في الإنسان. والاقتصاديون كثيراً ما يتبنون مفهوماً معيناً لفكرة العدالة، يجعلها مرادفة «للمساواة». ولكن المساواة، وإن كانت كثيراً ما تصلح هدفاً في التعامل مع الأشياء المادية المتماثلة، قد لا تكون شيئاً مرغوباً فيه في التعامل مع الكائنات الحية المختلفة فيما بينها في صفاتها واحتياجاتها. والاقتصادي يتبنى مقياساً معيناً «للكفاءة» (efficiency) هو النسبة بين العائد والنفقات، باعتبار كل من العائد والنفقات ذا طبيعة واحدة، ومن ثم يمكن إخضاعهما لمقياس واحد، والمقارنة بينهما، وطرح أحدهما من الآخر. ولكن في الكائنات الحية كثيراً ما يكون العائد والنفقات من طبيعتين مختلفتين، فلا يمكن إخضاعهما لمقياس واحد، بل قد يكون أحدهما أو كلاهما غير قابل للقياس أصلاً. وقد تتعدد المنافع الناتجة من عمل واحد، ويستحيل جمع هذه المنافع بعضها إلى بعض أو حتى مقارنة بعضها ببعض، وقد يكون للعمل الواحد منافع وأضرار ولا توجد وسيلة لطرح الأضرار من المنافع.. إلخ.

إن الحكم على «كفاءة» سلوك اقتصادي معين أو عدم كفاءته، قد يحتاج إلى إدخال اعتبارات أخرى غير مجرد جمع وطرح الأعباء والمنافع المالية، أو ما لا يمكن تقديره بالمال من الأعباء والمنافع. فإذا اقتصرنا على هذه الأعباء والمنافع التي يمكن تقديرها بالمال وحدها، فإن حكمنا «بالكفاءة» أو عدم الكفاءة قد يكون قاصراً بشدة، وقد يؤدي بنا إلى سياسة اقتصادية بعيدة عن الحكمة.

من بين نتائج هذه النظرية الميكانيكية للسلوك الاقتصادي: الميل إلى تفضيل اعتبار «الفرد» الوحدة الأساسية للدراسة، وهو الفرد الذي لا أسرة له ولا أمة، إذ يسهل في هذه الحالة، أكثر من غيرها، قبول مفهوم الكفاءة بالمعنى الميكانيكي الضيق. لا عجب أن من الأمثلة المحببة لدى الاقتصاديين في شرح مفهوم الكفاءة والسلوك الاقتصادي بوجه عام، مثال روبنسون كروزو، ذلك الفرد الذي وجد نفسه منعزلاً في جزيرة، وكانت مشكلته الوحيدة الوصول إلى أقصى حجم ممكن من الناتج من استخدام موارد محدودة، بما في ذلك الوقت المحدود، أو تخفيض حجم الموارد المستخدمة إلى أقل حجم ممكن، بما في ذلك الوقت المستخدم، لإنتاج كمية محددة من منتج ما. ومن نتائج هذه النظرة الميكانيكية للسلوك الاقتصادي أيضاً، الميل إلى عزل الظاهرة الاقتصادية عن بقية الظواهر الاجتماعية، ودراستها وكأنها منفصلة عن بقية الظواهر ولا تتأثر بها، وقد ترتب على ذلك «استقلال» مشكوك في نفعه، لعلم الاقتصاد عن بقية العلوم الاجتماعية. ■



كيمياء السعادة

أبو حامد الغزالي

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الشافعي الطوسي. أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر المفكرين في التاريخ الإسلامي. ولد بقرية «غزالة» القريبة من طوس من إقليم خراسان عام (٤٥٠هـ - ١٠٥٨م)، وإليها نسب.

نشأ الغزالي في بيت فقير لأب صوفي لا يملك غير حرفته، وحينما حضرته الوفاة عهد إلى صديق له متصوف برعاية ولديه، وأعطاه ما لديه من مال يسير، وأوصاه بتعليمهما وتأديبهما.

درس الغزالي في صباه على عدد من العلماء والأعلام، أخذ الفقه على الإمام أحمد الرازكاني في طوس، ثم سافر إلى جرجان فأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي، وعاد بعد ذلك إلى طوس حيث بقي بها ثلاث سنين، ثم انتقل إلى نيسابور والتحق بالمدرسة النظامية، حيث تلقى فيها علم أصول الفقه وعلم الكلام على أبي المعالي الجويني إمام الحرمين ولازمه فترة ينهل من علمه ويأخذ عنه حتى برع في الفقه وأصوله، وأصول الدين والمنطق والفلسفة وصار على علم واسع بالخلاف والجدل. وكان الجويني لا يخفي إعجابه به، بل كان دائم الثناء عليه والمفاخرة به حتى إنه وصفه بأنه «بحر مغرق».

توفي أبو حامد عام ٥٠٥ هـ. ١١١١م، في مدينة طوس، عن عمر بلغ خمسة وخمسين عاماً، وترك تراثاً صوفياً وفقهياً وفلسفياً كبيراً، بلغ ٤٥٧ مصنفاً ما بين كتاب ورسالة، كثير منها لا يزال مخطوطاً، ومعظمها مفقود.

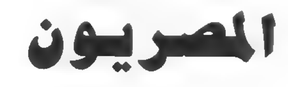
من أهم مؤلفاته: «إحياء علوم الدين» و«تهافت الفلاسفة» أما رسالته هذه «كيمياء السعادة» فكان قد كتبها بالفارسية قبل أن يصير إلى ترجمتها.



إنفاق مذهل وعائد هزيل!

كم











■■ لسوف يذهل قارئ هذا الكتاب كما تولانى الذهول بأن مجموع ما تحملته الأسرة المصرية خلال عام ٢٠٠٤/٢٠٠٥ قد تراوح ما بين ٣٧ مليار جنيه كحد أدنى، و٥٤ مليار جنيه كحد أعلى حسب مشهد السيناريو المنخفض أو المرتفع أو ما بين هذين الرقمين. ومع إضافة ما تنفقه الدولة فى نفس السنة يتراوح الإنفاق المجتمعى العام (للدولة والأسرة) ما بين ٦٣ مليارا إلى ٨٠ مليارا من الجنيهات -إنفاق مذهل وعائد هزيل!!.



تتفرد هذه الدراسة بشموليتها -كما سيتضح فيما بعد- بالنسبة للدراسات التى اقتصرت فى معظمها على التركيز على تحليل الإنفاق الحكومى من الموازنة العامة للدولة، أو من الناتج المحلى الإجمالى، أو على تكلفة تعليم الطالب، أو على مصروفات التعليم الخاص، أو غيرها مما اقتصرت عليه مرحلة تعليمية محددة.

وأياً ما كانت مستويات الإنفاق على التعليم ومهجية قياسها، فإن تنمية الثروة البشرية التى تقع فى المقام الأول على كاهل مؤسسات الدولة التعليمية قضية لا تقتصر فى قياسها على حسابات التكلفة، وإنما تقدر كذلك بالناتج النهائى المتمثل فى إعداد المواطن الذى ينشده المجتمع من الخريجين فى مختلف مراحل التعليم. وهذا يعنى ضمن ما يعنيه كم ونوع التعليم الذى يتاح لكل مواطن. ومن المؤشرات فى هذه الدلالة تقدير مدى ما يتعرض له الإنسان المصرى من سنوات التعليم والذى لا يزيد فى المتوسط على خمس سنوات ونصف فى تعليم مؤسسى منظم وذلك مع أحسن التقديرات. وهذا عدد متدن من السنوات فى الوقت الذى يبلغ فيه متوسط سنوات التعليم فى الدول المتقدمة ما يتجاوز تسع سنوات، إذ الحد القياسى الأقصى المستخدم عشر سنوات تعليمية.

إن ذلك المؤشر انعكاس للقصور فى معدلات القيد والاستيعاب الكمى فى مختلف مراحل التعليم حسب بيانات عام ٢٠٠٥/٢٠٠٦، فمعدل القيد الإجمالى فى مرحلة رياض الأطفال (أى الفئة العمرية من ٤ - أقل من ٦ سنوات من مجمل هذه الفئة فى مجموع السكان) لا يتعدى ١٨٪. وفى التعليم الأساسى الإلزامى فى حلقته الابتدائية يبلغ معدل القيد الصافى للفئة العمرية من (٦-١١ سنة من السكان) حوالى ٩٦٪؛ أى بعدم التحاق ٤٪ من هذه الفئة من الأطفال فى المدرسة الابتدائية أو تسربوا منها، وهذه النسبة تقدر بحوالى ٤٨٠٠ طفل. وفى الحلقة الثانية فى التعليم الإعدادى (للفئة العمرية من ١٢ إلى ١٥ سنة يصل المعدل إلى حوالى ٩٦٪ وهذا يعنى أن (٥,١) مليون طفل لا يواصلون تعليمهم بعد المرحلة الابتدائية. وفى التعليم الثانوى بقسميه العام والفنى يتدنى معدل القيد للفئة العمرية من (١٥-١٨) إلى حوالى ٧٨٪، وهذا يعنى أن حوالى مليون من الشباب فى هذه السن يتوقف عند المرحلة الإعدادية. وتصل النسبة إلى حوالى ٣٠٪ من الفئة العمرية (١٨-٢٢ سنة) من الملتحقين بالجامعات والمعاهد العليا والمعاهد الفنية المتوسطة. وهذه نسبة متدنية أيضا إذا ما قورنت بالدول المتقدمة أو ببعض دول جنوب وشرقى آسيا .



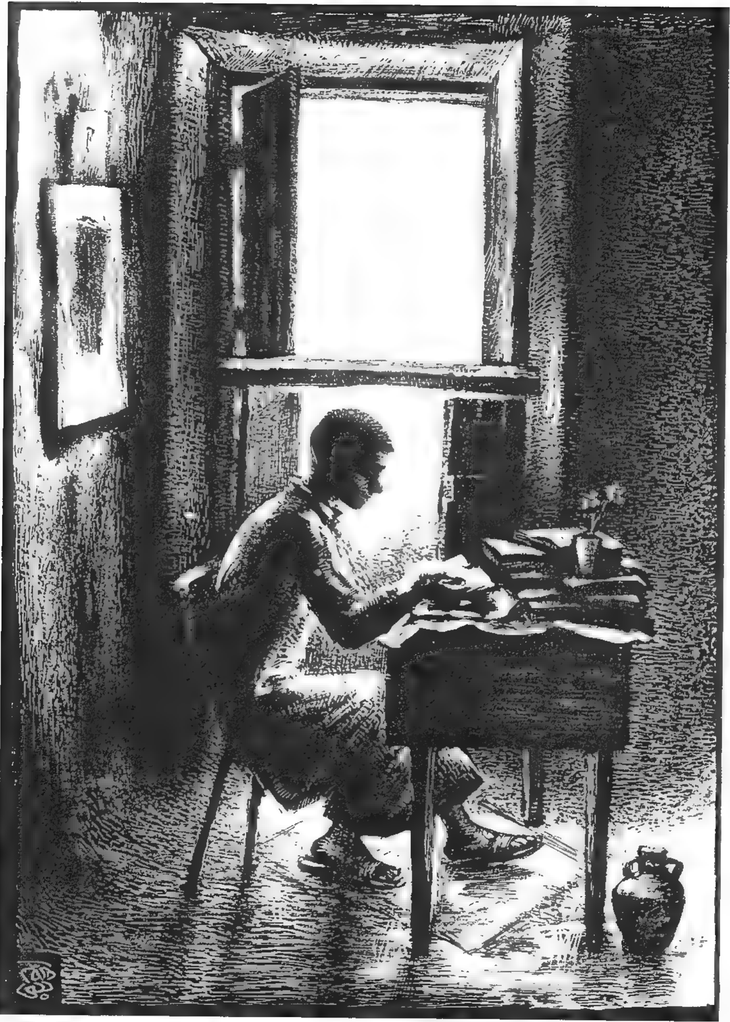
وهذه الإلمامة السريعة بمعدلات القيد تبرز مدى القصور الكمى فى حركة المنظومة التعليمية فى استيعابها الكمى للأطفال والشباب الذين ينبغى أن يتمتعوا بحق التعليم للجميع. ولعلنا نتذكر أيضاً أن نسبة الأمية تقدر بحوالى ٢٩٪ بين الكبار (١٠سنوات فما فوق). ويسوقنا هذا إلى ما تنفقه الدولة فى نفس العام (٢٠٠٥/٢٠٠٦) من



مجموع ما أنفقته
الأسر المصرية على
التعليم خلال عام ٢٠٠٤/٢٠٠٥
تتراوح ما بين ٣٧ و ٥٤
مليار جنيه



كم ينفق المصريون على التعليم؟
عبدالخالق فاروق
دار العين للنشر ـ القاهرة ٢٠٠٨



كم ينفق المصريون على التعليم ؟



الميزانية العامة السنوية والذى يقدر بحوالى ٢٨ مليارا، وهو فى حجمه المطلق أعلى رقم بلغته منذ بداية هذا القرن، مع أنه يعتبر من أدنى الأنصبة المخصصة للتعليم بالنسبة للإنفاق الحكومى السنوى العام خلال تلك الفترة، وهى نسبة (١٤٪) من ذلك الإنفاق العام، ويصل نصيب التعليم العالى إلى حوالى ٣٠٪ من الميزانية العامة المخصصة لقطاع التعليم، أو حوالى ٤,٣٪ من الإنفاق العام. وتلك النسبة من الإنفاق الحكومى من الميزانية العامة على التعليم بمختلف مراحله تعتبر أيضًا بمقارنتها مع الدول المتقدمة وكثير من الدول النامية وحتى مع بعض الدول العربية نسبة متدنية، حيث يبلغ متوسط نسبة تلك الدول ما بين ٢٠٪ ٢٢٪ من ميزانياتها السنوية ويترتب على ذلك الإنفاق المتواضع فى مصر أن تكون تكلفة التعليم بالنسبة للطالب فى المرحلة الابتدائية ٢٨٢ جنيهـًا، والإعدادية ٤٠٥ جنيهات، والثانوية ١٤٨٩ جنيهًا، والعالى حوالى ٣٥٠٠ - ٥٠٠٠ جنيه بسعر السوق. ومن حجم تلك المخصصات يتبين تدنى نصيب الطالب من الإنفاق الحكومى (انظر جداول رقم ٥، ٦، ٧، ٨) فى هذا البحث.

وقد لجأنا إلى إيراد المؤشرات السابقة لبيان حجم التعليم كمًا وحجم الإنفاق عليه لسببين رئيسيين. أولهما: ظاهرة العلاقة بين حجم الإنفاق ومستوى التقدم فى إعداد الثروة البشرية ومؤهلات قوة العمل صانعة المستقبل. وثانيهما: الارتفاع فيما تتحمله الأسرة من إنفاق إضافى على الموارد الحكومية مرتبطًا بالقصور الكمى والكيفى من جانب الدولة فى الوفاء بمسئوليتها الكبرى فى تعليم أطفالها وشبابها، ولعل فى ذلك العرض ما يمهد لحالة الذهول مما تتحمله الأسرة فى قطاع التعليم مما توضحه هذه الدراسة القيمة والمثيرة فى هذا الكتاب، حيث تنفق فى أدنى التقديرات حوالى ٣٨ مليارا، وضعف ما تنفقه الدولة على مرفق التعليم فى أعلى التقديرات وهو ٥٦ مليار جنيه، ولا شك فى أن قسطًا كبيرًا من هذا الإنفاق إنما يمثل تعويضًا كميًا وكيفيًا عن تدنى

هـــذا الكتـــاب

تجسد حالة التعليم فى بلد من البلدان، طبيعة العلاقات المعقدة التى قد تنشأ بين كافة مكونات هذا المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ووسط بيئة سياسية معينة.

ويستطيع الدارس لتطور النظام التعليمى فى مصر، أن يكتشف بسهولة تلك العلاقات المتشابكة بين كافة مكونات المجتمع المصرى ودرجة تفاعلاتها - سلبا أو إيجابا - ومستوى الازدهار أو التدهور الذى تعرض له هذا النظام التعليمى.

وإذا جاز أن نؤرخ للتعليم المدنى الحديث فى مصر، فقد جاء بصحبة ذلك المشروع النهضوى الذى حاوله «محمد على باشا» فى مطلع القرن التاسع عشر، والذى تعثر بعد انهيار تجربته وهيمنة القوى الاستعمارية - بريطانيا وفرنسا - على القرار السياسى والاجتماعى فى البلاد فى عهدى سعيد وعباس وخلفائهما.

ولم يكتب للتعليم فى مصر النهوض مرة أخرى إلا بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢، وتركيز الاهتمام على تعويض أبناء الفقراء عن حرمانهم الطويل من التعليم، فشهدت الفترة الممتدة من ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا نموا مطردا فى أعداد المتعلمين، وانتشار الإقبال على التعليم وزيادة البعثات التعليمية إلى الخارج.

صحيح أن هذا التطور الإيجابى قد تعرض لانتكاس بعد العدوان الإسرائيلى فى الخامس من يونية عام ١٩٦٧، وهزيمة المشروع الناصرى، مما أدى لإعادة ترتيب أولويات النظام والحكم لصالح «إزالة آثار العدوان»، بيد أن مسيرة الأعداد المتزاحمة إلى التعليم لم تتوقف يوما، وإن كانت أحداث الخامس من يونية قد أثرت سلبا على تدهور الأداء الكيفى والنوعى للعملية التعليمية ككل.

ولم يتوفر للقيادة السياسية التى تولت شئون الحكم فى الدولة بعد وفاة الرئيس «جمال عبد الناصر» عمق البصيرة وبعد النظر، حينما لاحت لها الفرصة لتعويض ما فات بعد السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣، عبر تعزيز فرص المقايضة التاريخية والمالية مع أثرياء النفط العرب، وتدعيم نظام التعليم العام، فاندفع الرجل دون حصافة إلى فتح أبواب الجحيم على المجتمع وفئاته الفقيرة تحت شعارات «الانفتاح الاقتصادى» و«تحفيز الاستثمار».

فتدهور دور ومكانة المدرسة العامة، لصالح المدارس الخاصة والاستثمارية، ولم يكد يمر عقدان من الزمان على تجربة «الانفتاح»، إلا واستيقظ المجتمع المصرى كله على حجم الكارثة التى تعرض لها النظام التعليمى كما وصفها بحق وزير التعليم الأسبق «د. حسين كامل بهاء الدين».

فعلاوة على نمو قطاع تعليم غير رسمى وموازٍ أو ما نفضل أن نطلق عليه «السوق السوداء التعليمية» بصورة وحشية وقاسية، فقد تصاحب معه بقوة الأمر الواقع انهيار شامل فى قيم «القدوة» و«الأستاذية» ومنظومة التربية كلها.

وهكذا سادت فوضى شاملة - بالمعنى الحقيقى لا المجازى - للكلمة فتمددت الأنساق التعليمية والقيمية، وتلاشى - أو يكاد - مفهوم الهوية الثقافية واللغوية، وتاهت فى زحمة غياب الرؤية السياسية والأهداف الاستراتيجية للدولة والقائمين عليها القضايا القومية التى تكفل وحدها تمتين الوحدة الوطنية، وتشد الناس شدا إلى المشاركة بالرأى والعمل فى نهضة البلاد.

وأفاق الجميع على مشاهد حزينة وبائسة منذ منتصف التسعينيات حيث حالات الهروب شبه الجماعى للشباب عبر القوارب فى البحار والمحيطات إلى المجهول، وغالبا إلى الموت.

ووسط كل هذا تخبطت الدوائر المسئولة حول تقدير حجم الإنفاق الحقيقى على التعليم، وطبيعة أزمته، وسبل الخروج منه، وتحكمت فى الكثير من الأفكار المطروحة جماعات ضغط، وجماعات مصالح، أصبحت سوق التعليم المصرى مغنما هائلا يستحيل التخلى عنه حتى لو كان الثمن هو استمرار هذه الفوضى المدمرة.

والمدخل الصحيح للتعرف على حجم تأثير هذا «اللوبى» الخطر هو التعرف على حجم هذه السوق التعليمية الضخمة، والأطراف الفاعلة فيه، والأطراف المستفيدة من استمراره، وعلاقتها بدوائر صنع السياسات الفوضوية تلك، وجماعات اتخاذ القرارات فى الدولة.

إننا هنا لا نتعرض لمسألة اقتصادية «بحته»، ولا قضايا فنية تندرج فى تخصصات علم الاقتصاد وعلم المالية العامة، بقدر ما نحاول أن نتدلف منه إلى طبيعة الخريطة الاجتماعية والقوى الطبقية المتحكمة فى مصر ومصيرها ومستقبل أجيالها القادمة. علنا بهذا التشخيص نستطيع أن نرسم خطى سياسات جديدة وبديلة لكل هذا الذى ساد طوال الأربعين عاما الماضية، وأوصلنا فى النهاية إلى حد الكارثة.

عبد الخالق فاروق



الإنفاق الحكومي في مقابل الطموحات الأسرية لتعليم أبنائها وبناتها.

وبعد هذه التمهيدات نعود إلى مزايا هذا البحث الذي لم نصفه بالمفرد وغير المسبوق مجاملةً أو إنشاءً لفظياً، وإنما لما اتسم به من شمولية ومنهجية سلمية دقيقة في معالجة لظاهرة الإنفاق الذي تنوء معظم الاسر المصرية بتحمل أعبائه. كذلك تدعونا نتائجه إلى تبيان المفارقة بين الخطاب السياسي ومعطيات الواقع وتجسداته في تحقيق الأهداف الكبرى للتعليم كجبهة من جبهات الأمن القومي، وكقاطرة للتنمية الذاتية وتنمية قدرات المجتمع على مواجهة تحديات التحولات العالمية ولعل من أهمها، التحرك من عصر المجتمعات الصناعية إلى ما بعد عصر الصناعة، ومن التكنولوجيا البسيطة إلى التكنولوجيا المتقدمة. هذا بالإضافة إلى التحرك من عصر التفكير المحلي اليقيني إلى التفكير النسبي الكوكبي الاستراتيجي، وفيه يتجه الاقتصاد والتجارة من السوق الضيقة إلى الاندماج في السوق العالمية بما تتطلبه من معرفة وتجديد وتميز وإبداع، وقدرات على التنافس، وخلق مجتمع التعلم، ومتابعة وإنتاج المعرفة الجديدة والمتجددة، ولكن ما أبعد الشقة المتزايدة بين هذه الطموحات ومؤشرات الواقع التعليمي والخلل في سياساته وأولوياته وإداراته إلى جانب مهدراته!!



يشير مؤلف هذا البحث إلى أن معالجته في شمولها تتناول:

(١) حجم وهيكل الإنفاق الحكومي بمراحله وأنواعه المختلفة خلال الفترة من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٥

(٢) الأحجام التقديرية للإنفاق الأسري على التعليم بأنماطه المختلفة (تعليم حكومي، تعاوني، إلخ...) وفي مواقعه المتنوعة (محافظات/ ريف/ حضر/ خاص/ أجنبي) وبمراحله الأربع، ويتضمن ذلك أنواع المصروفات والرسوم التعليمية الرسمية وغير الرسمية، وتكاليف الدروس الخصوصية ومجموعات التقوية المعترف بها داخل المدارس والكليات، والكتب والمذكرات التعليمية الداخلية والخارجية، وتكلفة الملابس والغذاء والمواصلات، وذلك في كل نمط من أنماط التعليم ومراحله بدءاً من رياض الأطفال حتى نهاية الجامعة والمعاهد العليا والمعاهد الفنية المتوسطة.

ولم يبق من مجالات الإنفاق سوى ما تنفقه بعض الأسر الغنية على ما توفده من أبنائها وبناتها للبعثات التعليمية في الخارج. أضف إلى ذلك ما تنفقه بعض الأسر على إلحاق أبنائها وبناتها بدورات تدريبية متخصصة، أو بإلحاقها ببرامج تأهيلية لتعلم لغة أجنبية أو تدريبية على مهارات الحاسوب. وفي شأن التعليم الحكومي ثمة معونات أجنبية لا تدخل في الموازنات السنوية للتعليم، إلى جانب بعض تلك المعونات التي تقدم مباشرة من الجهات المانحة لعدد من الجمعيات الأهلية لتنظيم برامج تدريبية معينة أو لتحسينات محددة في العملية التعليمية. وهذه كلها يصعب متابعتها وتحليلها، ولا يعلم بها إلا علام الغيوب كيف تنفق وما عوائدها النهائية على كم ونوع التعليم في مختلف مراحله!! ومن ثم اقتصر البحث بالضرورة كما أشار المؤلف على حجم الإنفاق على الهياكل والأنماط المرتبطة بالمنظومات التعليمية من المصادر الحكومية ومن الإنفاق المباشر للأسر المصرية مما يمكن تقصيه وتحديد مجالاته وأحجامه.

ومن الناحية المنهجية في حصر أحجام إنفاق الأسرة المصرية، استعان المؤلف - كما سبقت الإشارة - بدراسة مركز معلومات مجلس الوزراء ودعم اتخاذ القرار الذي استخدم أسلوب استطلاع الرأي لعينة عشوائية في مجال الإنفاق على الدروس الخصوصية وحدها. وهو مسح مهما كانت دقته ومداه الشمولي وتغطيته لمختلف متغيرات العينة يظل مجرد مؤشرات واستنتاجات تظل هادية خيراً من مجرد الانطباعات الشخصية الفردية أو الجماعية. لكنها لا تغطي مختلف التفاصيل والمواقع في الإنفاق مما تناولته هذه الدراسة.

لقد قام الباحث بمجموعة من التحليلات الإحصائية والمالية المرتبطة بأعداد الطلاب المقيدين في مختلف مراحل التعليم بأنواعه وتبعياته المختلفة (حكومي/ خاص/ أزهري، عربي/ لغات ..الخ.) ثم لجأ إلى منهج أنماط المحاكاة وفقاً لثلاثة مشاهد من السيناريوهات لاستخلاص أحجام الإنفاق المالي الذي يتوقع من القطاع العائلي أن ينفقه على مستوى السقف المنخفض والمتوسط والمرتفع في كل نوع ومرحلة من التعليم. وهو منهج فيه من الشمولية والتصور للحالات المختلفة ما يجعله كاشفاً عن الاحتمالات الواقعية في حجم الإنفاق. وبهذا المنهج المترابط وباحتمالاته الثلاثة يعتبر هذا البحث متفرداً في نوعه وفي خصوبة معلوماته



التفكير في إلغاء مجانية التعليم العالي في ظل الأوضاع الاقتصادية الحالية يهدد الاستقرار والأمن القومي



ولست أريد هنا أن أكشف عما تمخض عن هذا البحث من بيانات تفصيلية وتجميعية مذهلة حول محاور الإنفاق الحكومي واتجاهاته. وفي حجم الإنفاق العائلي في المؤسسات التعليمية الرسمية والخاصة والأجنبية، إلى جانب حجم الإنفاق العائلي في نظم التعليم الرسمية والموازية، أو ما يطلق عليه تسمية (السوق السوداء التعليمية).

وأود أن أشير هنا مرة أخرى، إلى أن من معالم تميز هذا البحث تركيزه على السياسات والأساليب المالية المتبعة في تقدير حجم التكلفة التي يتم إنفاقها على التعليم. وهو بُعد أساسي في أي تفكير في قضايا دراسة الواقع التعليمي وفيما يمكن تخصيصه من تقديرات لإمكانات تنفيذه. وهذا ما تفتقده الغالبية العظمى من الدراسات والبحوث والرسائل الجامعية، بل وفيما تضعه وزارتا التربية والتعليم والتعليم العالي من خطط واستراتيجيات لتطوير المنظومة التعليمية. وتبقى كل تلك الجهود التخطيطية تائهة في فضاء الينبغيات التي تتطلب موارد واستثمارات معينة تجعلها قابلة للتنفيذ. هذا إلى جانب ما تستدعيه من تطوير وتعديل في السياسات والأولويات القائمة في الإنفاق الحكومي أو العائلي



ولهذا أفرد الباحث الفصل السابع والأخير في التوجه (نحو سياسة جديدة لتمويل النظام التعليمي في مصر) موضحاً ما تتطلبه الأوضاع الحالية من تغيير ومن مصادر جديدة لتمويل التعليم، لعلها تخفف مما تتحمله الأسرة المصرية من نفقات باهظة، وبما يؤدي إلى تحريك حقيقي للتعليم في تطوره المستقبلي.

ويثير هذا البحث في خاطري تلك الآراء لبعض من يزعمون الحكمة في التخفيف من أعباء الدولة، وليس من أعباء الأسرة، في الإنفاق على التعليم باسترداد تكلفته من أسر الطلاب فيما بعد المرحلة الأساسية، أي إلغاء المجانية في المرحلتين الثانوية أو الجامعية على الأقل.

ومن بيانات هذا البحث ندرك أن الطالب الجامعي سوف يكلف أسرته مصروفات



كيمياء السعادة
أبو حامد الغزالي
في معرفة النفس (١)

اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس، كما قال سبحانه وتعالى: «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من عرف نفسه فقد عرف ربه». وليس شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك، فكيف تعرف ربك؟ فإن قلت: إني أعرف نفسي! فإنما تعرف الجسم الظاهر، الذي هو اليد والرجل والرأس والجثة، ولا تعرف ما في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النكاح، وإذا جعت طلبت الأكل، وإذا عطشت طلبت الشرب.

والدواب تشاركك في هذه الأمور.

فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة: حتى تدرك أي شيء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خلقت، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاؤك.

وقد جمعت في باطنك صفات: منها صفات البهائم، ومنها صفات السباع، ومنها صفات الشياطين، ومنها صفات الملائكة، فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب منك، وعارية عندك.



كم ينفق المصريون على التعليم؟

الدراسة التى تقدر ما بين ٣٠٠٠-٥٠٠٠ حسب نوع التخصص، إلى جانب الرسوم المدرسية ومجموعات التقوية التى تتراوح ما بين ١٠٠٠ -١٥٠٠ جنيه سنوياً، أى مجموع تكلفة تتراوح ما بين ٤٠٠٠-٦٥٠٠ جنيه سنويا، وهذا الحجم من الإنفاق يقترب من متوسط دخل الفرد السنوى كما أنه قد يتجاوزه ويلتهمه. هذا مع العلم بأن ذلك الرقم لا يأخذ فى تقديره ان فى مصر حوالى ١٣٪ ممن هم تحت خط الفقر حسب التقديرات الرسمية أو ما يقدر بحوالى ٤٠٪ من الفقراء وفق بيانات الأمم المتحدة، ومن ثم تصبح إتاحة التعليم الجامعى العالى شبه مستحيلة على معظم الشرائح الاجتماعية فى مصر المحروسة. ومن ثم فإن التفكير فى إلغاء مجانية التعليم الجامعى العالى مهما كانت المبررات، وبخاصة فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الحالية، مسألة فى غاية الخطورة، قد تكون من مهددات الأمن القومى والاستقرار الداخلى.

ولا شك فى أن مقترحات المؤلف الهادفة إلى التوجه نحو سياسات جديدة فى إتاحة التعليم كماً وتجويده تتفق مع مايتجه إليه رأى كثير من الكتاب والمثقفين في هذا البلد (منهم فاروق جويدة فى الأهرام) . موضحا بعض مصادر التمويل التى قد توفر مزيدا من الإنفاق على التعليم:

(١) امتداد يد الحكومة لتأخذ حقها من النشاط العقارى وموارده بمختلف مجالاته من تجارة المبانى والشقق وبيع الأراضى الصحراوية والزراعية .

(٢) المشروعات السياحية من الفنادق، والقرى السياحية وسلاسل المطاعم، ممن يتمتعون بامتيازات جمركية ودفع ضرائب قليلة أو تهرب منها.

(٣) أموال الخصخصة من المشروعات الاقتصادية والتجارية والبنوك وحق الدولة فيها وحق التعليم فى نصيب منها باعتباره من الخدمات العامة التى تقع مسئوليات توفيرها على الدولة فى المقام الاول.

(٤) مشروعات الخدمات مثل شركات الاتصال والخدمات الصحية والمستشفيات الخاصة وشركات الأدوية إلى غير ذلك مما تصرفت فيه الحكومات من بيع ممتلكات القطاع العام. هذا إلى جانب تحصيل ضرائب تصاعدية على دخل أصحاب المليارات والملايين ممن يتهربون منها او يزيفون في بيانات دخولهم، ودفع ما عليهم من حق الشعب فى تحسين حياته وإتاحة العيش الكريم الذي يمثل قطاعا التعليم والصحة ركيزتين لا غنى عنهما لكل مواطن ينتمى الى هذا الوطن.



يثير هذا الكتاب تأملات وخواطر وانذارات فى مدى إنفاق الأسرة المصرية على تعليم ابنائها وبناتها ومن التكلفة المجتمعية الهائلة لهذا القطاع من الخدمات واستثماراتها فى التنمية البشرية مع قصور وهدر هائل فى عوائدها كماً وكيفاً

تدق معطيات ونتائج هذا الكتاب جرساً إلى جانب أجراس أخرى لا تزال تدق، وعلى المسئولين فى الدولة وعلى قوى المجتمع بأسرها أن يفتحوا آذانهم وعقولهم وقلوبهم، على ما يجرى فى حرم التعليم من شئون وشجون، وإلى المكاشفة والشفافية فى تقييم أوضاعه. إن على الدولة، مسئوليةً وواجباً، توفير الموارد ووضع السياسات الكفيلة بتطوير مسيرته. ولن ينقذنا القطاع الخاص أو الأجنبى فى تصحيح المسيرة الحالية، بل قد يزيدها أوجاعاً وتعقيداً. إننا جميعاً بقيادة الدولة محاسبون على إعداد أجيال من المواطنين، ونحن نغالب ونصارع هيمنة قوى ومصالح خاصة لفئات الجشع والاستغلال والاحتكار فى الداخل، وموجات الضغوط والتهديدات من قوى الإمبريالية العولمية فى الخارج. ■

Six Disciplines Execution Revolution: Solving the One Business Problem That Makes Solving All Other Problems Easier

ثورة لتطبيق ست قواعد: حل مشكلة الأعمال الأساسية التي تجعل حل كل المشكلات الأخرى أسهل

Gary Harpst

جاري هاربست

Six Disciplines Publishing, 2008, 208pp., $10.15



يؤكد ميك فليمينج، المدير التنفيذي لغرفة التجارة الأمريكية، أن كتاب هاربست الجديد إنجاز رائد غير معادلة تتعامل بها المشاريع مع أكبر التحديات، ألا وهي تطبيق الإستراتيجية. فمع كل ما يواجهه رجال الأعمال الناجحون من ضغوط في الوقت الحالي، ليس هناك ما هو أكثر إلحاحاً أو تحدياً من تعلم كيفية تطبيق الاستراتيجيات.

وبينما تمتلك المشاريع الكبرى رفاهية تنظيم الميزانيات والموارد كي تجابه هذا التحدي، سوف تجد المشاريع الصغيرة أو المتوسطة الفرصة سانحة الآن حتى تعادل الفرص وتحتاز المناهج القديمة المكلفة وتشرع في دراسة تطبيق الإستراتيجية بأسلوب ثوري. وهنا يشدد الكتاب على أن التفوق يكمن في السعي المتواصل إلى إستراتيجية متوازنة: فمواصلة التخطيط والتطبيق وفي نفس الوقت التعامل مع المفاجآت المحتومة هو أكبر التحديات المهنية، والتغلب على هذا التحدي هو ما يعنيه الكتاب بحل المشكلة الكبرى لجعل كل المشاكل الأخرى أسهل، أما الإخفاق في حل تلك المشكلة فيقضي على مؤسستك بمستقبل غامض. واعتماداً على الأبحاث العملية والاختبارات الميدانية والممارسات المثبتة، فإن النسخة التي يصممها هاربست في هذا الكتاب تقدم للقارئ منهجاً جديداً للمشاريع المبتدئة لتتعامل في النهاية مع معضلات الإستراتيجية اللانهائية.

جاري هاربست المدير والرئيس التنفيذي لعدة مشاريع ناجحة. أمضى عشرين عاماً كرئيس لشركة سولومان سوفتوير التي زودت ما يزيد على ٦٠٠٠٠ مشروع بأنظمة للإدارة في شتى المجالات الصناعية قبل أن تشتريها شركة جريت بلينز ثم ميكروسوفت في النهاية. أقنعت تلك التجربة هاربست بأن أغلب المشاريع بمقدورها تطبيق خططها بصورة أفضل. وعليه شكل فريقاً واستثمر ٢٠ مليون دولار لتحديد موضع الخلل. هاربست هو مؤلف كتاب «ست قواعد للتفوق».

The War Within: A Secret White House History 2006-2008

الحرب الداخلية: تاريخ سري للبيت الأبيض ٢٠٠٦-٢٠٠٨

Bob Woodward

بوب وودورد

Simon & Schuster, 2008, 512pp., $17.60



يبدأ كتاب «الحرب الداخلية» بوصف الفوضى العراقية عام ٢٠٠٦ - العنف والضحايا الامريكيين في ازدياد بينما يرسم بوش صورة وردية ويدرك موظفوه أن إستراتيجية أمريكا في حاجة إلى المراجعة. يوافقهم بوش إلا أن السبب في الأمر هو عدم وجود موعد أخير لإتمام تلك المراجعة ووجوب تحققها «بعيداً عن الأنظار» لتجنب إثارة القلاقل خلال السنة الانتخابية. حاول الجنرال كيسي، قائد القوات الأمريكية في العراق، إقناع بوش بخفض القوات الأمريكية في العراق، ومع ذلك بدا بوش ثابتاً على موقفه الهجومي (مواصلة القتال حتى تنتهي الجثث!) أيد رامسفيلد كيسي - والواقع أن هذا كان متفقاً مع رؤيته لجيش «جديد خفيف». وهنا يتناول الكتاب طريقة اتخاذ القرار في البيت الأبيض: فالبادي أن أسلوب بوش في اتخاذ القرارات اعتمد على «حسه الداخلي»، وعليه افتقرت قراراته إلى فحص النتائج والبدائل والدوافع.

وفيما يتصاعد العنف في العراق إلى مستويات غير مسبوقة عام ٢٠٠٦، تثور جبهة ثانية على أعلى المستويات في إدارة بوش. يصحب وودورد القراء في كتابه الرابع حول الرئيس جورج بوش إلى أعماق المواقف المتوترة والنقاشات السرية والقنوات الخلفية غير الرسمية والريبة والتصميم في أركان البيت الأبيض والبنتاجون ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات والقيادة العسكرية في العراق. وفي تفاصيل دقيقة لا تضارع يصور هذا السرد الأخاذ لحالة رئيس خلال الحرب فترة من الكرب والارتياب في ثنايا الحكومة الأمريكية من عام ٢٠٠٦ وحتى عام ٢٠٠٨. إن كتاب وودورد يعري أسرار تورط أمريكا سياسياً وعسكرياً في العراق كاشفاً النقاب مجدداً - بعد ثلاثة كتب عن الحرب الأمريكية في أفغانستان والعراق - عن تفاصيل الحكومة أثناء العمليات العسكرية.

بوب وودورد مساعد مدير تحرير جريدة واشنطون بوست. عمل مراسلاً ومحرراً لما يفوق ثلاثين عاماً. ألف واشترك في تأليف ثمانية كتب حققت أعلى المبيعات على المستوى العمومي الامريكي.

■

Sarah: How a Hockey Mom Turned Alaska's Political Establishment Upside Down

سارة: كيف قلبت أم تقليدية مؤسسة الاسكا السياسية راسا على عقب

Kaylene Johnson

كيلين جونسون

Epicenter Press, 2008, 159pp., $ 8.77



تدور ضجة امريكية واسعة حول الحاكمة سارة بالين، حاكمة يرنو إليها العديد من الجمهوريين باعتبارها وجها نضراً جديداً يمثل مستقبل الحزب. برغت كعمدة سابقة لإحدى البلدات الصغيرة في الثانية والأربعين، ذات وجه ملائكي لا تعوزه الصلابة، لتصبح في عام ٢٠٠٦ مرشحة لا يتوقع أحد فوزها بمنصب حاكم الاسكا. طالبت بالين وقتها بالحفاظ على معايير أخلاقية أعلى للقيادة الحكومية. وقد أدى توقيت رسالتها الإصلاحية واندلاع فضيحة مدوية إلى إعصار ساهم في النهاية في تغيير شكل المشهد السياسي الأمريكي. ومع دهشة الجميع، نجحت بالين نجاحا غير مسبوق إذ هزمت حاكماً في الانتخابات الجمهورية الأولية وحاكماً سابقاً في الانتخابات العامة لتصبح أول امرأة تشغل منصب حاكم الاسكا واصغر حكامها على الإطلاق.

وفي غضون الحملة الانتخابية وخلال وقت مبكر من فترة حكمها الأولى، حققت الأم الطافحة بالحيوية والجاذبية - أم لخمسة أطفال - مكانة تقترب من مكانة البطلة في ولايتها. والآن هي تبدل صفحات التاريخ بعد أن باتت أول امرأة جمهورية على الإطلاق تُرشح لمنصب نائب الرئيس ليطالب العالم بأسره بمعلومات عن سارة بالين. من هي؟ كيف ارتقت إلى مكانتها الحالية؟ كتاب واحد فقط يحوي كل الأجوبة «سارة: كيف قلبت أم تقليدية مؤسسة الاسكا السياسية رأساً على عقب». ففي الكتاب تقف على خلفياتها. نجمة كرة سلة سابقة بمدرسة واسيلا الثانوية، ملكة جمال سابقة، صحفية سابقة تسر ابتسامة قاتلة وترتدي نظارات ذات ماركات شهيرة وكعوباً عالية. تشترك كل عام في سباق ثلجي لمسافة ٢٠٠٠ ميل اسمه «الكلب الحديدي». ملأت عدة ثلاجات بحيوانات موظ اصطادتها بنفسها، وهي تفضل شرائح لحم الرنة على اللحم البقري الطري! هذا فضلاً عن تفاصيل مهنية تغطي فترة حكمها الاولى لالاسكا بلغت معدلات التأييد للحاكمة الجديدة في مرحلة من المراحل ٩٠٪ مما دفع شبكة فوكس نيوز إلى وصفها بـ «سياسية صاحبة أمانة مدهلة»، وحمل بعض قادة الحزب الجمهوري إلى الإطراء عليها كنموذج أولي «للجمهوري الجديد».

كيلين جونسون كاتبة من سكان الاسكا لديها معرفة وثيقة بسارة بالين كجارة وكاتبة لسيرتها. تظهر مقالات جونسون في مجلة الاسكا وجريدة لوس انجلوس تايمز.

■

Industrial Policy in the Middle East and North Africa: Rethinking the Role of the State

السياسة الصناعية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: إعادة التفكير في دور الدولة

Edited by Ahmed Galal

تحرير أحمد جلال

American University in Cairo Press, 2008, 160pp., $24.50



تطبق معظم الحكومات في الشرق الأوسط ومنطقة شمال أفريقيا سياسة تجارية بغرض حماية صناعات معينة وتوفير حوافز ضريبية لتعزيز نوع محدد من الاستثمار وجعل المعونات المالية متاحة لشركات ذات حجم معين. ومثل هذا التدخل الحكومي المعروف باسم السياسة الصناعية هو محور هذا الكتاب. يهدف كتاب «السياسة الصناعية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» إلى تقييم إذا ما كان التدخل الحكومي يفضي إلى أرباح صافية يفوز بها المجتمع في النهاية. لماذا يتدخل صانعو السياسيات؟ كيف يمكن تحقيق توازن صحي بين الدولة والأسواق؟ يزود الكتاب القارئ بإجابات على هذين السؤالين وغيرهما في ستة فصول تتكل على أبحاث قدمت في مؤتمر انعقد بالقاهرة في نوفمبر من عام ٢٠٠٥. تشتمل الأبحاث على دراسة حالات من مصر والمغرب وتركيا والأردن. ومن بين المساهمين: أحمد جلال ونجيب حرابي ونهال المغربل ومصطفى نابلي وماركوس نولاند.

يعمل أحمد جلال مديراً لمنتدى الدراسات الاقتصادية، وهو عضو في البنك الدولي منذ عام ١٩٨٤.

■



Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت



سجاد أطفال
SGS
ISO 9001 2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
ادة صلى
www.maccarpet.com



التنمية والديموقراطية والحكم الرشيد

ثقافة التكنولوجيا





سومترا دوتا
إرينا ميا

The Global Information Technology Report 2007-2008
Soumitra Dutta, INSEAD
Irene Mia, World Economic Forum
World Economic Forum - 2008

ترجمة: غادة طنطاوى

■■ يصبح العالم أكثر ارتباطاً ببعضه البعض يوماً بعد يوم. والأمر لا يقتصر على تنامى الصلات التى تربط بين الأفراد والشركات والحكومات، ولكن هناك درجة متزايدة من الاعتراف بالعملية الاتصالية connectivity باعتبارها مكوناً أساسياً من مكونات البنية التحتية العامة. وحسب التعريفات الجديدة أصبحت خدمات الاتصال المتقدمة bandwidth خدمة ضرورية، بل ويضعها البعض فى نفس الأهمية مع خدمة توفير مياه الشرب. على سبيل المثال، فقد نشر تحالف شيكاغو الرقمى Chicago Digital Access Alliance مفهوم إتاحة البوردباند broadband باعتباره حقاً عاماً. كما اعتبرت بيانات للمفوضية الأوروبية الباندويدث bandwidth خدمة ترتبط بالمصلحة الاقتصادية العامة..

استخدام تقنيات الجيل الثانى مثل WiFi و WiMAX يتقدم بسرعة أيضا موفرا خدمة انترنت دائمة «فى كل مكان». وطبقاً لتقديرات السلطات المحلية فى أمريكا الشمالية، تتسم مهام ٤٥٪ على الأقل من الموظفين المحليين بالحركة. فموظفو الشرطة والإطفاء وإدارات المباحث، يكونون خارج مكاتبهم بشكل يومى ويحتاجون إلى وسيلة للحصول على المعلومات. ومن ثم فإن مدن الولايات المتحدة وكندا تقوم الآن بإنشاء شبكات تسمح بالاتصالات اللاسلكية فى كل مكان.

العديد من البلدان النامية أيضا يهتمون بالـ WiMAX كبديل للسلك النحاسى الذى كان يستخدم فى الماضى. وبحلول بداية ٢٠٠٧، قامت شركة Motorola and Wateen Telecom وهى تابعة لـ Warid Telecom الإماراتية بتأسيس شبكة WiMAX فى ١٧ مدينة رئيسية فى باكستان. وفى الهند، تتم الدعاية لـ WiMAX باعتباره أسرع من الجيل الثالث من المحمول بمقدار ٣٠ مرة، وباعتباره يقدم إجابة على مشكلات العملية الاتصالية والتى أعاقت انتشار الإنترنت فى الريف الهندى.

إن مزايا زيادة العملية الاتصالية فى مناطق تتوفر بها وسائل مختلفة للحصول على المعلومات، تم تسجيلها بشكل كبير فى الكتابات التى تناولت هذا الشأن. وبدرجة كبيرة، فقد ساهمت هذه المزايا فى تطوير التعليم كأساس لتنمية رأس المال البشرى الذى يتطلب استثماراً عاماً.

وهناك فوائد أخرى، محسوسة بدرجة أقل، لكنها أيضاً ذات أهمية حاسمة على صعيد تزايد العملية الاتصالية: ففى سياق اجتماعى أوسع، تم الإقرار بأن للعملية الاتصالية تأثيراً مهماً على الشفافية والحكم الرشيد والديمقراطية. كما أن هناك أيضاً آثاراً لتزايد العملية الاتصالية فى مجالات أخرى مثل النظم الحضرية وأساليب ومستوى الحياة. على سبيل المثال، وفقاً لدراسة أجريت على مدينة سانت بول فى الولايات المتحدة عام ٢٠٠٦ حول تقدير الاحتياجات التكنولوجية وأثر ذلك على التنمية الاقتصادية والاجتماعية، تبين أنه فى ظل التنافس الدولى الحاد على ذوى المواهب، فإن العملية الاتصالية العالية المتعلقة بالباندويدث bandwidth لديها القدرة على زيادة جذب المدينة للطبقة الخلاقة، من العمال المتمتعين بالمعرفة.

وعبر العالم، فإن العملية الاتصالية المتنامية أصبحت أيضاً عاملاً مهماً فى الخطاب المتعلق بتعزيز والحفاظ على الترابط الاجتماعى. كان تقليل الفجوة الرقمية بين المناطق الحضرية والريفية يمثل أولوية بالنسبة للقطاعات العامة على المستوى العالمى، بغض النظر عن مستوى نضج تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فى البلد.

وقد ساعد هذا التوجه على تهدئة المخاوف من أن التطور التكنولوجى السريع سوف يفيد المناطق الحضرية على حساب المناطق الجغرافية التى تناضل بالفعل بسبب بعدها عن

لا يجب أن نكتفي بالاستثمار في البنية التحتية لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.
ولكن علينا أيضاً أن نكون على استعداد
لتعديل البناء المؤسسي للدولة ذاتها



السوق. وفي حقيقة الأمر، كان هناك نوع من التفرقة من جانب الرؤية الحكومية بشأن فائدة نشر العملية الاتصالية على مستوى الحكومات المركزية والإقليمية والمحلية. وقد صدر التقرير العالمي لتكنولوجيا المعلومات ٢٠٠٧-٢٠٠٨ عقب إقرار أهمية القدرة الاتصالية العالية للباندويدث bandwidth بالنسبة للوضع التنافسي للدول، ونموها المستدام وتقليص الفقر بها. وأصبح تسهيل الحصول على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على قمة الأولويات القومية بشكل متزايد في معظم الاقتصاديات النامية والمتقدمة، في الوقت الذي تتزايد الموارد التي يجري استثمارها في تطوير وتنمية البنية التحتية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

ويعد التقرير المذكور هو السابع من نوعه في سلسلة من التقارير، وهو يؤسس لشراكة طويلة المدى بين المنتدى الاقتصادي العالمي وكلية الأعمال الدولية INSEAD بغرض تعزيز التفاهم بشأن مدى جاهزية شبكة المعلومات والفاعلين الأساسيين بها.

يتناول التقرير أربعة أقسام مختلفة الموضوعات. يتضمن القسم الأول نتائج مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات Networked Readiness Index ٢٠٠٧-٢٠٠٨، جنباً إلى جنب مع عدد من المقالات حول موضوعات تغطي العلاقة بين التطوير والابداع وتكنولوجيا المعلومات، و الاتصالات الموحدة (Unified Communications) والمهارات الإلكترونية وتنظيم الاتصالات في الأسواق الناشئة.

يركز القسم الثاني على دراسة حالات دول وأقاليم بعينها، وفي العام الحالي، تمت دراسة حالة سنغافورة وقطر والاتحاد الأوروبي.

يقدم القسم الثالث صورة مفصلة لكل من الاقتصاديات الـ ١٢٧ المغطاة في التقرير، معطياً صورة مختصرة ولكنها شاملة لحالة الجاهزية للاتصالات المتوفرة لدى كل من هذه الاقتصاديات، ويسمح بإجراء مقارنات دولية وتاريخية.

وأخيراً، يقدم القسم الرابع جدولا تفصيليا لبيانات الـ٦٨ متغيراً التي تكون مؤشر جاهزيه شبكة الاتصالات لهذا العام، مع وضع ترتيب للدول على أساس هذا المؤشر.

مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات

تسجل النتائج الأخيرة لمؤشر جاهزية شبكة الاتصالات النتيجة الرئيسية لمشروع بحث تم القيام به بشكل مشترك بين المنتدى الاقتصادي العالمي وكلية الاعمال الدولية INSEAD منذ ٢٠٠٢. ويهدف مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات إلى قياس قدرة الاقتصاديات على تقديم الدعم الكامل لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات من أجل رفع التنافسية والتنمية. والبناء على مزيج من البيانات التي تم جمعها من سجلات المنظمات الدولية المحترمة مثل الاتحاد الدولي للاتصالات، والبنك الدولي، والامم المتحدة. ويغطي المؤشر ١٢٧ دولة متقدمة ونامية من كافة أنحاء العالم، تنتج أكثر من ٩٥٪ من الناتج المحلي الإجمالي العالمي.

إطار جاهزية شبكة الاتصالات، الذي يرتكز عليه مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات، والذي لم يطرأ عليه تغير منذ ٢٠٠٢ يحدد العوامل التالية:

- وجود بيئة صديقة ومشجعة لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، عبر فحص عدد من السمات المتعلقة ببيئة الأعمال الأوسع، وبعض الجوانب التنظيمية، والبنية التحتية الخاصة ببرامج وأجهزة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.
- مستوى جاهزية تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لاستخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات من جانب الأطراف الثلاثة المعنية-الأفراد، وقطاع الأعمال، والحكومة.
- الاستخدام الفعلي لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات بواسطة الثلاثة أطراف المعنية المشار اليها أعلاه.

يؤكد مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات لعام ٢٠٠٧-٢٠٠٨ أن الدنمارك هي الاقتصاد الاكثر اتصالا في العالم للسنة الثانية على التوالي واستمرت دول شمال أوروبا الأخرى في اظهار قدرتها على تعزيز تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات بهدف زيادة القدرة التنافسية، حيث احتلت السويد وفنلندا وايسلندا والنرويج المرتبة الثانية والسادسة والثامنة والعاشرة على التوالي. وبين الـ ٢٠ دولة الاعلى، صعدت سويسرا درجتين لتحتل المركز الثالث، وهو ما يعد استمرارا للصعود الذي بدأته العام الماضي، بينما صعدت الولايات المتحدة ثلاث درجات لتحتل المرتبة الرابعة وكوريا التي جاءت في المرتبة التاسعة. كانت واحدة من أهم حالات التقدم، حيث كانت في المرتبة الـ ١٩ العام الماضي بين ١٢٧ دولة غطاها التقرير الدول الأسيوية التي جاءت بين الـ ٢٠ دولة الأولى كانت سنغافورة (خمسة) وهونج كونج (١١) واستراليا (١٤) وتايوان (١٧) واليابان (١٩).





وفيما يتعلق بالاقتصاديات الآسيوية الكبرى الواعدة هبطت الهند أربع درجات لتحصل على المركز الـ ٥٠، بينما تقدمت الصين خمس درجات لتحصل على المركز الـ ٥٧. وتبدو الجاهزية للاتصال في أمريكا اللاتينية والكاريبي أقل إيجابية عن العام ٢٠٠٦ ٢٠٠٧. فقد حصلت البرازيل على المركز الـ ٥٩ والأرجنتين ٧٧، وهو ما يمثل تراجعاً عن العام السابق. وكانت هناك أربع دول فقط في تلك المنطقة بين المراكز الـ ٥٠ الأولى هي تشيلي (٣٤) وباربادوس (٣٨) وبورتريكو (٣٩) وجاميكا (٤٦).

وبالرغم من التقدم المهم الذي حققته دول أفريقيا جنوب الصحراء خلال العقد الماضي فيما يتعلق بإدخال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، مازالت الغالبية الساحقة من دول المنطقة متأخرة في مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات لهذا العام، حيث حصلت جنوب افريقيا على المركز ٥١ وموريتانيا ٥٤.

وتعد الصورة أكثر ايجابية في شمال افريقيا، حيث تقدمت مصر بـ ١٧ درجة وهو التقدم الأكبر لهذا العام، والمغرب بخمس درجات، فأصبحت مصر في المركز الـ ٦٣ والمغرب ٧٤. كذلك فقد أحرزت معظم بلدان الشرق الأوسط تقدماً مهماً في المراكز، حيث حصلت قطر على المركز الـ ٣٢ والبحرين ٤٥ والأردن ٤٧ حيث تقدمت أربعة وستة و١١ مركزاً على التوالي.

طريق متوازن

يتضمن تأسيس ثقافة منتشرة وغنية حول ثقافة الإنترنت خلق بيئة الاعمال الصحيحة، وبنفس الدرجة تبني التكنولوجيا الصحيحة. وإذا ما أرادت الحكومات - حكومات الدول أو الأقاليم، أو المحليات- الاستفادة من إمكانات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، فلا يجب أن تكتفي بالاستثمار في البنية التحتية لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، والقدرات اللازمة لدعم هذه البنية، ولكن عليها أيضاً أن تكون على استعداد لتعديل البناء المؤسسي للدولة - أو النظام البيئي المحيط بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات-للسماح لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات بأن تجني القدرات التطورية الكامنة بها. وفي ورقتهم التي يتضمنها التقرير، يقدم المؤلفون، إيوان موريسون، وروبرت بيبر، واتريك ج رويداساباتر (وهم جميعاً ينتمون لـ Cisco Systems Inc) إطاراً تشخيصياً يعكس هذين البعدين جنباً إلى جنب. ويكمن الهدف في السماح للدول

التنمية والديموقراطية..

بأن يكون لديها وعى بشأن كيفية تحقيق توازن بين البنية التحتية لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ومبادرات النظام البيئى المحيط، التى تخدم المزيج بين أهداف التنمية الاقتصادية وإدخال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات. يمثل البعدين محل الاهتمام هنا فى:

● النظام البيئى لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، والذى يشير إلى العوامل المؤسسية التى تعزز من قدرة المنظمين، والديناميكيات التنافسية لتقديم الخدمة، والعدالة فى توزيع العوائد الاقتصادية، وخاصة كفاءة اللوائح المنظمة لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

● قدرة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات وبنيتها التحتية، وهى تشير إلى الأصول، مثل الشبكات والبنية التحتية الخاصة بالاتصالات السلكية واللاسلكية، وكذلك توفر المهارات الفنية والنظم القادرة على إدارة البنية التحتية بكفاءة.

الحلقة المفقودة

فى ورقته، «الحلقة المفقودة: لماذا تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات مهمة للاختراع؟»، يستكشف الأستاذ فى جامعة أدولفو إيبانيز، كارلوس أوسوريو أورزوا، أهمية تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فيما يتعلق بالاختراع. وتوضح الورقة أن أهمية هذا الأمر ترتكز على حقيقة أن معظم الدول تتعامل مع الاختراع والسياسة المتعلقة بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات باعتبارهما مجالين منفصلين، وهو ما يؤدى إلى ضياع الفرص من أجل إحداث تغييرات أكبر وأعظم.

تستكشف الورقة العلاقة بين الاختراع وتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، وتدعم النتائج المكررة القائلة بأنه كلما كان استخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات راقياً ومكثفاً، كلما زاد تأثيره على الاختراع، حتى مع الأخذ فى الاعتبار العوامل السياقية المهمة مثل حماية حقوق الملكية الفكرية وتوفر رأس المال المحلى الجسور، ومساهمة شركات التصدير فى المراحل المختلفة لسلسلة القيمة المتعلقة بصناعات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ومتوسط الدخل. لافتا إلى أن الجهود التى تبذلها الدول ذات الدخل المنخفض من أجل زيادة قدرة الفقراء على الحصول على تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، على أساس أن ذلك شأن من شئون الديمقراطية، يمكنها أيضاً أن تكون مصدراً للمساواة والتنافسية على المستوى القومى. ويخلص الكاتب إلى أن السياسة الصحيحة لاستغلال هذه الفرصة تتمثل فى خلق الأدوات لتحفيز وتشجيع الاختراع من أسفل، ولا ترتكز التنافسية على المستوى القومى فقط على كيفية أداء الشركات الواقعة فى قمة الهرم، ولكن أيضاً على أداء تلك الشركات الواقعة فى القاع.

الابتكار بسرعة الحياة

فى ورقته، «الابتكار بسرعة الحياة»، يجادل مات بروس (فى مجموعة BT) بأن التقدم السريع فى تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات أدى إلى إطلاق انفجار فى الابتكار والإبداع، أطلق عليهما «اختراع الصرخة الكبرى» Innovation Big Bang.

ونتيجة ذلك أن المستهلكين أصبحوا مندهشين من صنوف المنتجات والخدمات التى يمكن أن ينتقوا منها. وإذا ظلوا غير قادرين على الحصول على ما يريدونه، لا يجب عليهم أن يقلقوا حيث إن الاختراعات يتم الإتيان بها إلى السوق بمعدلات غير مسبوقة. وبالنسبة لكل شركة، فإن التحدى الذى تواجهه على درجة عالية من الضخامة. وكى تظل داخل لعبة المنافسة، يجب أن تترك عملية الاختراع بها مفتوحة، وأن تساعد المبتكرين على قدر ما تستطيع، على ألا يقتصر ذلك على الذين يعملون لديها.

ويعتقد الكاتب أن الانفتاح فى حد ذاته ليس كافيا. فيجب أن تتقدم المخترعات بنفس سرعة حياة المستهلكين الشخصية والمهنية، من أجل تضييق الهوة بين ما يتطلعون إليه، وما يمكن أن يحصلوا عليه. ولأنه مازال هناك الكثير ينتظرنا، فإن الشركات تتمتع الآن بحرية اختيار درجة الانفتاح والحيوية التى تريد أن تتبناها فيما يتعلق بالاختراع. وفى هذا السياق، يلاحظ بروس أن العالم ممتلئ بالبشر الراغبين فى عرض أفكارهم، ويجب على الشركات أن تستخدم بشدة هذا البحر من المواهب إذا كانت ترغب فى البقاء.

الاتصالات الموحدة

يعد توفر الاتصالات الجيدة أحد المعايير التقليدية الدالة على قدرة الدولة على تعزيز النمو الاقتصادى وحماية ودعم رفاهية المواطنين. وقد أدت تكنولوجيا الاتصالات إلى زيادة حاجة الدول إلى إعادة النظر فيما تعنيه الاتصالات «الجيدة». ويطرح ساندور بويسون (كلية روبرت سميث للأعمال، جامعة ميرلاند Robert H. Smith School of Business, University of Maryland) وديفيد بوير (Avaya) فى ورقتهما «التطورات الرائدة فى اتخاذ القرار والتنمية الاقتصادية على الصعيد العالمى، رؤية مقنعة للتنمية وانتشار السياسات الرقمية التى توحد قنوات الاتصال المنفصلة الراهنة، وهذه السياسات هى «الاتصالات الموحدة».

وفى حقيقة الأمر، فإن التقارب أدى إلى خلق شبكة اتصالات موحدة، وهى خدمة ثورية قادرة على تنسيق العمليات والأفراد على مستوى لم يكن متاحاً من قبل. وتطرح الورقة أنه يجب أن نتجاوز الإطار الحالى للاتصالات، إلى الاتصالات الموحدة - وهو ما يساعد على التعاون الاجتماعى، وكذلك التعاون فى مجال الأعمال. ويمكن تعريف الاتصالات الموحدة باعتبارها اتصالات متكاملة من أجل تطوير العمليات المتعلقة بمجال الأعمال. ويعتقد الكاتبان أن الأمم تحتاج بإلحاح إلى مجموعة جريئة من الترتيبات فيما يتعلق بالاستراتيجية العامة والخاصة من أجل تسخير الاتصالات الموحدة كمحفز للتنمية الاقتصادية والاجتماعية الجديدة. ويتوقف نجاح الدولة على تعبئة عمليات الشراكة والتعاون عبر الحدود التى تتقاطع مع حدود الحكومة والصناعة من أجل ضمان النمو المفتوح وآليات الحكم التى سوف تكون هناك حاجة إليها لدفع الاتصالات الموحدة إلى الأمام. ويثق المؤلفان أنه فى ظل وجود هذه السياسات، سوف تكون الأمم على استعداد لأن تعزز إلى أقصى حد موجة النمو الاقتصادى المرتكزة على التكنولوجيا.

المهارات الالكترونية

بينما تصبح المنافسة العالمية معتمدة أكثر فأكثر على المعرفة، فإنه توجد عديد من الدلالات التى تحذر صناع القرار على المستويين العام والخاص بأن اقتصادياتنا قد لا تنتج المهارات الإلكترونية بالمستويات والأحجام المناسبة. ويتناول «بناء المهارات الإلكترونية لعصر المعلومات»، الذى كتبه برونو لانفيد (INSEAD, eLab) وياميلا س باسمان (شركة مايكروسوفت Microsoft Corporation) ثلاث قضايا فى ضوء خلفية من السعى للاختراع، والتنافسية، والقدرة على خلق الوظائف.

(١) لماذا (وبأى سرعة) تنمو الحاجة إلى المهارات الإلكترونية.

(٢) كيف يتم خلق وتوريد هذه المهارات، وإلى أى حد يلبى توريد هذه المهارات الحاجات الحالية والمتوقعة.

(٣) ما هى الأولويات الأساسية التى يجب أن تلبيها الحكومات والشركات



سوف تفشل الدول النامية التى تتجاهل سماتها المميزة وتقتبس الأطر المنظمة التى يجرى استخدامها فى البلدان المتقدمة



تدل كل الدراسات والشواهد على أن للعملية الاتصالية تأثيراً مهما على الشفافية والحكم الرشيد والديمقراطية

لحل الأزمة القادمة بشأن المهارات الإلكترونية.

تشير الدلائل المتاحة إلى أن المهارات الإلكترونية لا تقتصر على المتخصصين فى تكنولوجيا المعلومات؛ فهى يتزايد الطلب عليها فى كافة القطاعات وعلى كل مستويات النشاط. والأكثر من ذلك أن الكاتبين يطرحان أن اقتصاد المعرفة الكونى الناشئ سوف يرفع بدرجة مهمة الحاجة إلى مزيد من المهارات الإلكترونية على كافة المستويات (من العمال غير المتخصصين إلى قادة الشركات) وفى كل الصناعات وليس فقط قطاع تكنولوجيا المعلومات. وفى مواجهة هذه الحاجات، تتسع الفجوة بين قدرة النظم التعليمية الحالية على تقديم عمال ومديرين يتمتعون بالمهارات الإلكترونية من ناحية، وبين الاحتياجات المتعلقة بوجود اقتصاديات كثيفة المعرفة من ناحية أخرى. وفى عدد من الصناعات والمناطق، تصبح هذه الفجوة حادة بدرجة خاصة، وتصبح هناك دعوة إلى إدخال تعديلات سريعة على نظم التعليم وتطوير حالة الوظائف المتعلقة بتكنولوجيا المعلومات، ونحتاج بإلحاح إلى بذل جهود على صعيد نظم اللوائح والقوانين التى تعزز من أداء أسواق العمل.

اللوائح

يناقش كل من سكوت بيردسلى وأيلك بيحان ولويس أنريكيز ومحمد جيمندى وكاى كيندى، وميجيل لوكاس وأوليج تيمشنكو سيرجيو ساندوفال وأشيك شارما (وهم جميعاً من McKinsey & Company, Inc) فى ورقتهم «إعادة النظر فى اللوائح المنظمة فى أسواق الاتصالات الناشئة»، الدور الأساسى للتنظيم فى تنمية صناعة الاتصالات فى الأسواق الناشئة.

إن وجود إطار تنظيمى كفء، يأخذ فى الاعتبار السمات الخاصة للسوق المحلية، سوف يكون حاسماً ليس فقط بالنسبة لمشغلى الأنظمة كى يتمكنوا من الحصول على مصادر جديدة للنمو والإيرادات، ولكن أيضاً بالنسبة للحكومات، لأجل بناء صناعة تساعد بشكل أساسى على التنمية الاقتصادية.

ويجادل المؤلفون بأن تصميم مثل هذا الإطار التنظيمى، يتطلب فهماً عميقاً للسمات والاحتياجات الخاصة لأسواق الاتصالات الناشئة. وسوف تفشل الدول النامية التى تتجاهل سماتها المميزة وتقتبس الأطر المنظمة التى يجرى استخدامها فى البلدان المتقدمة، فى إقامة قطاع اتصالات نابض بالحياة يعمل كقاطرة للتنمية الاقتصادية فى البلاد.

ويقترح الفصل تقسيما بسيطا للأسواق الناشئة، ذا ثلاثة أنماط، كل منها له نقطة بداية وسمات مميزة. ويمكن أن يكون هذا التقسيم خطوة أولى مفيدة فى اتجاه تحديد الأولويات بين الأهداف التنظيمية، واقتراح سياسات ملائمة، وتحديد رؤية لمستقبل بيئة الصناعة.

أما هينينج كاجرمان (فى SAP AG) وفيليب لاى وجيفرى مور (كلاهما فى TCG Advisors) فيفحصان فى ورقتهما «تحول شبكات الأعمال: إعادة النظر فى العلاقات فى الاقتصاد العالمى»، كيف تستطيع الشركات تحقيق ميزة تنافسية عبر نماذج شبكات الأعمال، وذلك عن طريق الاستفادة من عدم وجود اللوائح، والقدرة على الوصول إلى الأسواق العالمية، والاستخدام الاستراتيجى للتكنولوجيا. ويجادل المؤلفون بأن الشركات تركز على تقوية نفسها والمغالاة فى الحصول على مصادر الأفكار والمواهب المكملة عبر العالم، من أجل حماية نفسها ضد تسليع واضطراب الاختراع. وعن طريق العمل فى شبكات أعمال عالمية، تنفق الشركات أموالا أقل على التكرار، وأموالا أكثر على الاختراعات الحديثة، مما يؤدى إلى درجات أعلى من التنوع ورغبة أعلى من قبل المستهلك لأن يدفع أكثر، ومن ثم عوائد أعلى على رأس المال المستثمر.

وحيث إن الاختراع يحدث بشكل مستمر فى شبكات الأعمال، يعتقد المؤلفون أن القادة التنفيذيين فى الشركات يحتاجون إلى نقل شركاتهم من كونها نماذج أقيمت من أجل البقاء، إلى مؤسسات أقيمت من أجل التكيف، مستعدة لتسلق سلسلة القيمة ولعب أدوار جديدة فى شبكات الأعمال. وتحت هذا الضغط من أجل التحول، يجبر قادة الشركات على إعادة النظر فى الفرضيات التى يتم تبنيها منذ وقت طويل حول الاستراتيجية والبنية والنظم وأساليب تنسيق المهام، والتعاون الأفضل مع العملاء والشركات، وحتى المنافسين. وتتناول الورقة السياق الصحيح الذى يجب أن يتم فيه النظر إلى هذا التغير فى مناخ الأعمال، وتحلل نمطين تعمل بداخلهما شبكات الأعمال. كما أنها تناقش كيف تتطور ديناميكيات شبكات الأعمال مع نشأة، وتوسع ونضج، واضمحلال الأسواق، وكذلك ما هى المبادئ أو الممارسات الرئيسية التى يمكن استخدامها كنقاط إرشاد. فى غزو تلك المناطق الجديدة من شبكات الأعمال. وأخيرا، يتم اكتشاف تبعات نماذج هذه الأعمال القائمة على الشبكات، بالنسبة لإدارة الاستثمار فى نظم تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

لنتشارك

تصف ورقة «الشبكة التشاركية: الاختراع والتعاون، لشاسا وانش فنسنت وجراهام فيكرى (كلاهما فى منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى OECD) النمو السريع فى المحتوى المُنتج بواسطة المستخدم user-created content ودوره المتزايد فى الاتصالات على المستوى العالمى، وترسم تطبيقات سياسية له.

وفى حقيقة الأمر، فقد غير الإنترنت من طبيعة واقتصاديات إنتاج المعلومات. وقد تراجعت حدود الدخول الخاصة بخلق وتوزيع المحتوى بشكل كبير وشجعت على المشاركة الأوسع فى الإنتاج الإعلامى ورفعت استقلالية المستخدم.

وزادت التنوع وأدت إلى

ترتيب الدول وفقا لمؤشر جاهزية شبكة الاتصالات ٢٠٠٧-٢٠٠٨
The Networked Readiness Index 2007-2008 rankings

الترتيب	الدولة / الإقليم	المعدل
١	الدنمارك	٥,٧٨
٢	السويد	٥,٧
٣	سويسرا	٥,٥
٤	الولايات المتحدة	٥,٤٩
٥	سنغافورة	٥,٤٩
٦	فنلندا	٥,٤٧
٧	هولندا	٥,٤٤
٨	أيسلندا	٥,٤٤
٩	جمهورية كوريا	٥,٤٣
١٠	النرويج	٥,٣٨
١١	هونج كونج	٥,٣١
١٢	المملكة المتحدة	٥,٣٠
١٣	كندا	٥,٣٠
١٤	أستراليا	٥,٢٨
١٥	النمسا	٥,٢٢
١٦	ألمانيا	٥,١٩
١٧	تايوان	٥,١٨
١٨	إسرائيل	٥,١٨
١٩	اليابان	٥,١٤
٢٠	إستونيا	٥,١٢
٢١	فرنسا	٥,١١
٢٢	نيوزيلندا	٥,٠٢
٢٣	أيرلندا	٥,٠٢
٢٤	لوكسمبورج	٤,٩٤
٢٥	بلجيكا	٤,٩٤
٢٦	ماليزيا	٤,٨٢
٢٧	مالطا	٤,٦١
٢٨	البرتغال	٤,٦٠
٢٩	الإمارات العربية المتحدة	٤,٥٥
٣٠	سلوفينيا	٤,٤٧
٣١	أسبانيا	٤,٤٧
٣٢	قطر	٤,٤٢
٣٣	ليتوانيا	٤,٤١
٣٤	تشيلى	٤,٣٥
٣٥	تونس	٤,٣٣
٣٦	جمهورية التشيك	٤,٣٣
٣٧	المجر	٤,٢٨
٣٨	بربادوس	٤,٢٦
٣٩	بورتريكو	٤,٢٥
٤٠	تايلاند	٤,٢٥
٤١	قبرص	٤,٢٣
٤٢	إيطاليا	٤,٢١
٤٣	جمهورية سلوفاكيا	٤,١٧
٤٤	لاتفيا	٤,١٤
٤٥	البحرين	٤,١٣
٤٦	جامايكا	٤,٠٩
٤٧	الأردن	٤,٠٨
٤٨	المملكة العربية السعودية	٤,٠٧
٤٩	كرواتيا	٤,٠٦
٥٠	الهند	٤,٠٦
٥١	جمهورية جنوب أفريقيا	٤,٠٥
٥٢	الكويت	٤,٠١
٥٣	عمان	٣,٩٧
٥٤	موريشيوس	٣,٩٦
٥٥	تركيا	٣,٩٦
٥٦	اليونان	٣,٤٩
٥٧	الصين	٣,٩٠
٥٨	المكسيك	٣,٩٠
٥٩	البرازيل	٣,٨٧
٦٠	كوستاريكا	٣,٨٧
٦١	رومانيا	٣,٨٦
٦٢	بولندا	٣,٨١
٦٣	مصر	٣,٧٤
٦٤	بنما	٣,٧٤
٦٥	أورجواى	٣,٧٣
٦٦	السلفادور	٣,٧٢
٦٧	أذربيجان	٣,٧٢
٦٨	بلغاريا	٣,٧١
٦٩	كولومبيا	٣,٧١
٧٠	أوكرانيا	٣,٦٩

The Global Information Technology Report 2007-2008

التحلي عن حالة الاستهلاك السلبي البسيط للبث والنماذج الأحادية الأخرى لتوزيع المحتوى على المستوى الجماهيري

تتحدث تعبيرات مثل الشبكة التشاركية عن إنترنت متأثر بشكل متزايد بشبكة الخدمات الذكية، المرتكزة على تقنيات جديدة تمكن المستخدم من أن ينمي مشاركته في تطوير وتقييم وتوزيع وتحقيق التعاون بالنسبة لمحتوى الإنترنت، وكذلك تطوير وتعديل تطبيقات الإنترنت فيما يتعلق بالمحتوى المُنتج بواسطة المستخدم.

والأكثر من ذلك، تمتلك الشبكة التشاركية إمكانيات كامنة فيما يتعلق بالأهداف التعليمية والسياسية والاجتماعية، وشئون السياسات التي سوف تجري معالجتها مثل النزاعات المتصاعدة حول حق النشر، والمحتوى المُنتج بواسطة المستخدم.



ويجب على برامج بالمحتوى المُنتج بواسطة المستخدم أيضاً أن تواجه اعتبارات الخصوصية بالنسبة للمستخدمين والمنظمين حيث البرامج الشعبية قد تصبح أكثر فأكثر عرضة لهجمات الإنترنت الأخرى، وهو ما يحمل بيانات المستخدم هشة. إن جودة المحتوى، والأمان في الإنترنت، وإمكانيات الاستخدام الشخصي الأفضل من جانب المستخدمين، هي أمور سوف يتم معالجتها. كما أن زيادة التركيز من جانب برامج بالمحتوى المُنتج بواسطة المستخدم والدور المتنامي للحراس، سوف تستمر كقضايا للسياسات والأعمال.

دراسات حالة مختارة

يقدم التقرير الصادر هذا العام ثلاث دراسات حالة تتعلق بالاختراع ومدى الجاهزية للاتصال في سنغافورة وقطر والاتحاد الأوروبي. ومن المأمول أن دراسات الحالة تلك يمكن أن تقدم تصورات مهمة حول السياسات والممارسات الأفضل في ضوء الدعم الكامل لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات والاختراع، من أجل زيادة القدرة التنافسية.

سنغافورة، أمة ذكية

في سنغافورة، باعتبارها جزيرة صغيرة لا توجد بها موارد بخلاف شعبها، تصبح تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات مهمة لأجل تحقيق النمو وتعد مكوناً أساسياً للبنية التحتية الاقتصادية. وفي ورقة بعنوان «سنغافورة، بناء دولة ذكية بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات»، يعرض المؤلفون، نج شير كينج، وأونج لينج لي، وتانيا تانج (كلهم في Infocomm Development Authority) وسوميترا دوتا (INSEAD) لقصة رحلة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات في سنغافورة خلال الـ ٢٦ عاماً الماضية، والتي تبدأ بمقدمة حول خطة إدخال الكمبيوتر على المستوى القومي عام ١٩٨١ لتزويد البلاد بوسائل جديدة لزيادة الإنتاجية والقدرة التنافسية الاقتصادية. وحيث آتت الجهود لاستخدام الكمبيوتر بثمارها، تزايدت ثقة الحكومة في تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات كعامل مساعد في النمو الاقتصادي، وذلك جنباً إلى جنب مع الطموح لتعزيز قدرات سنغافورة في مجال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات. وإضافة إلى تزويد الحكومة بالكمبيوتر، بذلت السلطات المعنية جهوداً لنشر القدرات الخاصة بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات على المستوى القومي في الشركات وبين السكان، وربط البلاد باتصالية برودباند broadband ذات السرعة العالية، وتطوير القطاعات الاقتصادية المختلفة عبر استخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

ويرى المؤلفون أنه بينما بدأت سنغافورة بقاعدة محدودة جداً، فإنها تمتلك الآن صناعة نابضة بالحياة لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، وأصبح شعبها على دراية واسعة بالتكنولوجيا. وقد تم إنجاز ذلك جزئياً عبر إرساء وتطبيق الخطط الست الأساسية الخاصة بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، كل منها قائمة على أساس قضية تنموية مهمة بالنسبة للاقتصاد آنذاك.

إن «أمة ذكية، مدينة كونية، تعمل بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات»، تمثل رؤية آخر خطة رئيسية تتبناها سنغافورة فيما يتعلق بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات: «أمة ذكية ٢٠١٥». إن دور تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، باعتبارها عاملا استراتيجياً في زيادة القدرة التنافسية للبلاد، يمثل الأساس الذي ترتكز عليه خطة «أمة ذكية ٢٠١٥».



وعبر تسخير قدرة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، تهدف سنغافورة إلى تنمية مجتمع رقمي شامل وضمان استمرار النمو، وحيوية الاقتصاد. إن تركيز سنغافورة على ربط تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات بالأهداف الاستراتيجية، ووجود قيادة قوية في قمة الحكومة يقدمان رؤى مفيدة للدول الأخرى، عن طريق تبني هدف دعم قدرات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، من أجل التنمية ورفع القدرة التنافسية. كما تؤكد الورقة أيضاً على مجالين بعينهما من مجالات نشر تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات تفوقت فيهما سنغافورة عالمياً، الحكومة الإلكترونية والتعليم الإلكتروني.

اقتصاد المعرفة في قطر

تعد قطر واحدة من أغنى اقتصاديات العالم، حيث يبلغ متوسط دخل الفرد بها أكثر من ٦٢ ألف دولار سنوياً. وبالرغم من ثروتها الضخمة، فقد بدأت قطر مؤخراً فقط في رحلة التحديث، مع اعتبار تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات عاملاً أساسيا لدفع هذه العملية. ويتمثل هدف استخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات في خلق قاطرة مركزية لاقتصاد تنافسي، وتعميم الحصول على الخدمات الاجتماعية، وخلق مجتمع قائم على المعرفة.

وإضافة إلى ذلك، يُنظر لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات باعتبارها تمتلك أثراً مضاعفاً في كل القطاعات، بما يوسع من مدى الإصلاحات السياسية ويساعد قطر على تحقيق هدف التحول إلى بلد تقدمي حديث. وأنجزت الخطوة الرئيسية الأولى في هذه الرحلة عندما تمت إقامة مجلس قطر الأعلى "لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات"، وفقاً لمرسوم أميري صدر في عام ٢٠٠٤.

وقد أعطي للمجلس سلطات وتفويضا واضحاً لتنظيم ودعم قطاع تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات. وقد اضطلع مجلس قطر الأعلى لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات بحماس بدور بطل تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لكل البلاد، ودفع بثبات في اتجاه التوصل إلى رؤية متكاملة وشاملة لتطبيق تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

وقد نجح في الحصول على دعم وتعاون الوكالات والإدارات الحكومية. وقد أصبح أثر تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات محسوساً. وقد حصلت قطر على المركز الـ ٣٢ في مؤشر جاهزية شبكة الاتصالات هذا العام. وتوجد خطة قومية متكاملة لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ويتم أخذ المبادرات على عديد من الأصعدة: إصلاحات السياسات، وخطوات تتعلق باعتبارات الأمن، ومبادرات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات في الرعاية الصحية والتعليم والحكومة الإلكترونية والبنية التحتية،

أصبح تسهيل الحصول على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على قمة الأولويات القومية في معظم الاقتصادات النامية والمتقدمة



والتنظيم المتقدم فى صناعة الاتصالات. وفيما يتعلق بقطر، فقد بدأت رحلة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لتوها. غير أنه بالرغم من البداية المتأخرة نسبيا، فقد نجحت البلاد فى أن يكون لها بصمة فى خريطة تكنولوجيا المعلومات العالمية.

أوروبــــا .. أوروبــــا

لقد أصبح واضحاً أكثر من أى وقت مضى أن نماذج تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات والأعمال الالكترونية هى أهم العوامل المحفزة على الاختراع والتنافسية اليوم. فقد أحدثت تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات ثورة فى طريقة عمل الشركات حالياً. وسوف تستمر فى القيام بذلك فى المستقبل. لكن تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات يمكن أن تنتج قدراً كبيراً من عوائد زيادة الإنتاجية فقط إذا ما صاحبها تغيرات تنظيمية مناسبة، ونماذج مبتكرة للأعمال الإلكترونية والاستثمار فى المهارات.

وبالرغم من ذلك، مازالت القدرات الكامنة العظيمة للمخترعات القائمة على أساس تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات ونماذج إعادة تنظيم الأعمال لم تستغل من جانب الشركات الأوروبية الصغيرة والمتوسطة الحجم إلى حد كبير.

ومن ثم، فقد ظل تطوير الاستخدام المتكامل والابتكارى لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات من جانب الشركات الاوروبية الصغيرة والمتوسطة الحجم، يمثل تحدياً لصناع السياسة خلال الأعوام الماضية.

وتقدم دانا اليفثيرياندو (من المفوضية الأوروبية European Commission) فى ورقتها «الشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم تحمل مفتاح التنافسية الاوروبية» رؤية شاملة للجهود التى تبذلها المفوضية لتطوير فعالية السياسات العامة المتعلقة بالشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم، والتى تؤدى إلى تطوير الاستخدام الابتكارى لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات وتبادل الخبرات الجيدة: شبكة دعم الأعمال الإلكترونية للشركات صغيرة ومتوسطة الحجم. إن هذه هى مبادرة «للسياسة الذكية» التى تراقب التطورات فى السياسات وتحدد التوجهات الجديدة. ومن خلال شبكة دعم الأعمال الإلكترونية للشركات صغيرة ومتوسطة الحجم. نحن نلاحظ وجود ثلاثة توجهات أساسية جنباً إلى جنب.

(١) تزايد الأهمية الاقتصادية للشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم باعتبارهم لاعبين أساسيين فى تطبيق استراتيجية لشبونة للنمو وخلق الوظائف، وكذلك تزايد قدرات هذه الشركات على التصرف كلاعبين دوليين فى الاقتصاد العالمى الناشئ.

(٢) الاعتراف الذى لاينازعه الشك بجدارة تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات وعمليات الأعمال الإلكترونية الجديدة. باعتبارها عوامل أساسية تساعد على الاختراع والإنتاجية والنمو.

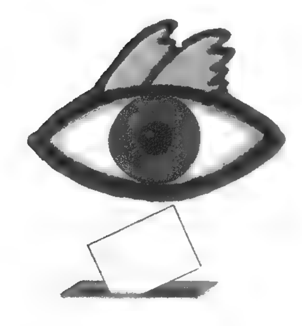
(٣) التدخل القوى للحكومات لتحفير المضى قدماً فى استخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ونماذج الأعمال الإلكترونية، وأساليب الإدارة الحديثة التى تستخدمها الشركات، وبشكل خاص الشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم. ■

هنــاك نمــو ســريع
فى المحتوى المُنتج بواسطة
المستخدم user-created content ودوره
متزايد فى الاتصالات
على المستوى العالمى

الطريق الإلكترونى للديموقراطية



أنطونيو موجيكا



■ قبل نحو ٢٠ عاما، فى ١٩٨٩، بدا أن لا شيء كان يقف فى طريق انتشار الديمقراطية فى العالم. واليوم، فى ٢٠٠٨، أصبحنا نعلم أكثر: حيث توجد عديد من العوامل، تمتد من الموارد الطبيعية، إلى الثقافة، إلى البنية الأساسية، والتى باستطاعتها أن تجعل من الصعب على الديمقراطيات أن تنمو وتزدهر. وإزاء بحثنا عن طرق لمساعدة الديمقراطيات القديمة والحديثة على الازدهار، عادة ما نهمل الحل الأسهل، والذى نجده أمامنا بشكل مباشر. وهو عملية الاقتراع.

من كينيا إلى تايلاند إلى الولايات المتحدة، وهى الديمقراطيات الأقدم فى العالم. ظلت مشكلات الاقتراع تقوض من ثقة الشعوب فى الانتخابات، وأحدثت أضرارا بالغة بالمؤسسات. فمن البطاقات المفقودة، إلى الانتشار الواسع لنظريات المؤامرة. تؤدى الشكوك حول نزاهة عملية الاقتراع إلى وجود حالة مدمرة من التشاؤم إزاء تلك العملية. ونتيجة ذلك أن أعداداً متزايدة من المواطنين أصبحت تفتقر إلى الثقة فى أن نتائج الانتخابات سوف تعبر عن إرادتهم بصورة صحيحة، لا عن قوة المصالح الخفية.



إن هذا التمويص للشرعيه الديمقراطية لهو بمثابة مأساة. وهو مأساة لا يجب

☞

ان يُسمح لها بالاستمرار. يجب أن تكون كل عملية انتخابية تجرى اليوم خالية من الأخطاء فيما يتعلق بالدقة والشفافية التامة وان يكون بالإمكان مراقبتها بنسبة ١٠٠٪.

لماذا؟ لأن التكنولوجيا الكفء الموجودة بالفعل يمكنها أن تجعل عدالة وصدقية الانتخابات مسألة شبه مؤكدة. وفي الواقع، تستخدم هذه التكنولوجيا في الوقت الراهن في معظم المناطق التي من غير المتوقع أن يحدث بها ذلك. خذ على سبيل المثال الانتخابات التي أجريت في ١١ أغسطس في منطقة ميندناو المسلمة المتمتعة بالحكم الذاتي في الفلبين. ففي بلد مثل الفلبين، الذي شهد مثل بلدان كثيرة عديدا من الانتكاسات على صعيد العملية الديمقراطية - بما في ذلك الاتهامات القوية بشأن التزوير- قامت منطقة ميندناو بإجراء أول انتخابات آلية. فماذا حدث؟

إن ما حدث هو انتخابات اتسمت بالسرعة والدقة والشفافية. في العام الماضي، أخذت انتخابات ميندناو أسابيع من أجل فرز الأصوات، وواجهت اتهامات قوية بالتزوير. وفي المقابل، استغرق فرز الأصوات في انتخابات العام الحالي ٢٤ ساعة، وقبلت كافة الأحزاب السياسية النتائج. إن الحل الذي يتيح مراقبة الانتخابات أدى إلى وجود مستوى من الثقة لا يستطيع أحد الطعن به. فكل آلة خزنت كل صوت في سبعة مواقع مختلفة، وهو ماجعل التلاعب بالنتائج أمرا شبه مستحيل.

وفي مقابل ذلك، فإن الانتخابات القائمة على بطاقة الاقتراع التقليدية- التي تكون بها البطاقة المعلّمة هي الوسيلة الوحيدة لتسجيل عملية الاقتراع- يمكن أن تخضع للتلاعب أو الإتلاف من قبل البشر. انظر فقط إلى ما حدث في انتخابات عام ٢٠٠٠ في الولايات المتحدة، حيث أجبرت أزمة البطاقات المفقودة، مؤسسة ليست منتخبة هي المحكمة العليا، على اختيار الفائز.

وبالطبع فإن للتصويت الالكتروني نصيبه من النقد. فيشير البعض إلى أخطاء في حالات معينة يمكن مواجهتها وتطويرها. ولكن لسوء الحظ، يدافع البعض الآخر عن نظرية صناديق الاقتراع السوداء بدعوى أنه ما أن يجرى تسجيل الصوت على الكمبيوتر، فلا أحد يمكنه معرفة ماذا سيحدث له.

وبغض النظر عن أن نظرية الصناديق السوداء تتناقض مع الاعتقاد الشائع - حيث أننا جميعا نثق في الكمبيوتر عندما يتعلق الأمر بحياتنا حينما نكون مسافرين بالطائرة، أو بمعيشتنا حينما نضع أموالنا في البنوك- فإن هذه النظرية تتجاهل حقيقتين. أولا، كما تمت الإشارة، إن طرق الاقتراع القابلة للمراقبة تكون لديها وسائل للتأكد تحقق التوازن أكثر مما يقره الدستور الامريكي. وبمعنى آخر، يتم تخزين الأصوات بطرق عديدة مما يجعل من الصعب أن يحدث تلاعب لا يتم كشفه. وثانياً فإن النظم الأفضل هي النظم التي تتيح المراقبة، مثل ذلك المستخدم في الفلبين، الذي يتضمن وجود أوراق تثبت صدقية تسجيل صوت المقترع.

ما الذي يعنيه ذلك؟ إنه يعني ببساطة أن كل مقترع يرى بطاقة ورقية ويوقع عليها بأن صوته تم تسجيله بشكل صحيح، ومن ثم لو أثير القلق بشأن نتائج الانتخابات، فإن هذه النسخ الورقية الموازية للنسخ الإلكترونية يمكن أن يتم الرجوع إليها بسرعة.




وبالإضافة إلى ذلك، فإن التصويت الذي يمكن مراقبته هو أيضاً جيد بالنسبة للبيئة المحيطة، وعلى سبيل المثال، فإن عدم وجود حاجة لطبع وتهيئة ونقل ملايين الأصوات الورقية في كل دورة انتخابية يوفر الوقت والجهد.

إنه في عالم تظل خلاله الديمقراطية الأمل الأفضل لمستقبل البشرية، يجب ألا نجعل المخاوف التي لا تقوم على أساس، تقف في طريقنا. لاشيء يبني الثقة اللازمة لمساندة المؤسسات الديمقراطية أسرع من الثقة في نتائج الانتخابات. ولا أحد يحقق هذه الثقة أسرع من الانتخابات العادلة والدقيقة والشفافة. وباختصار، فإن أفضل طرق الانتخابات التي تتيح المراقبة هي الصندوق المفتوح - لنجعل الضوء يلمع بوضوح في القلب الخافق للديمقراطية. ■

عـــودة العرضحالجي

أحمد درويش

■ يعتمد المصريون منذ عهود بعيدة على من يقوم بالنيابة عنهم بتجهيز المستندات وكتابة الطلبات او الشكاوى للتقدم للجهات الحكومية والباحث في تاريخ العرضحالجي المصري يجد أن الاسم أساسا مشتق من ثلاثة مقاطع كلمة عرض وكلمة الحال أي من يقوم بعرض المطلب للمسئول الذي كان قديما المحتسب والوالي والخليفة والأمير والخديو وهذه المهنة ظلت حتى وقت قريب من عهدنا الحالي والمقطع الأخير «جي» أي صاحب أو مستخدم الشيء (مثل المكوجي اي صاحب المكوى البلطجي اي مستخدم البلطة)

ويختلف السبب داعي المواطن للجوء إلى العرضحالجي فقد كانت نسبة الأمية هي العامل المؤثر والسبب الرئيسي لبقاء واستدامة تلك المهنة قديما ولكن لا يمكن أن نهمل عامل صعوبة التعامل مع الحكومات لطالب الحاجة مع كثرة المستندات وخوفا من تعارض ما يقدمه المواطن مع الفرمانات والقرارات الصادرة التي قد توئد الطلب في مهده بل تعود في بعض الاحيان بالضرر على مقدم الطلب.

كما أن صعوبة وكثرة الإجراءات وتعدد وتباعد الأماكن الحكومية المطلوب التردد عليها لإنهاء خدمة حكومية واحدة أوجدت تربة خصبة للعرضحالجي لإظهاره كعالم ببواطن الامور ومنقذ ومخلص للمواطن من التعقيدات في العهود الماضية.

ومع التطور المستمر وزيادة نسبة التعليم ومع الخطوات الجادة التي اتخذت لتبسيط الاجراءات وتسهيل حصول المواطن على الخدمات بأساليب وطرق جديدة وإعلامه بالخطوات والاجراءات المطلوبة في أماكن ظاهرة بالمصالح الحكومية تقلص دور العرضحالجي ليخدم شريحة صغيرة جدا من المجتمع، حيث بدأت الأسر تعتمد على أحد أبنائها المتعلمين لأداء الخدمات والأوراق المطلوبة مع الحكومة وبدأت تلك المهنة التي استمرت لقرون من الزمان في الاندثار وأصبح من يمتهنونها قلة تعد على أصابع اليد الواحدة بعد أن كان المواطن يحار ليتخير إلى من يذهب منهم لصياغة طلبه وترتيب مستنداته.

إلا أننا الأن أمام واقع جديد حيث أتاحت تكنولوجيا المعلومات قنوات جديدة للحصول على الخدمات الحكومية مثل الانترنت (تفضل بزيارة www.egypt.gov.eg) أو التليفون الأرضي (تفضل بالاتصال ١٩٤٦٨ أو ١٦٦٣٣) أو المحمول حيث يمكن للشخص طلب الخدمة لتصله إلى منزله أو مكان عمله.

ولا نختلف على أن هذه الوسيلة أكثر راحة توفر على طالب الخدمة مشقة ازدحام المرور والبحث عن مكان لانتظار السيارة أو عن وسيلة مواصلات مريحة بالأخص وأنها توفر نظم سداد جديدة تناسب كافة المواطنين من بينها مثلا السداد عند الاستلام (أي سداد رسوم الخدمة لساعي البريد عند تسليم الوثيقة المطلوبة)

يوجد حاليا بمصر حوالي ٨٠ خدمة تم تطويرها للحصول عليها من على الانترنت من بينها الحصول على الوثائق الشخصية (شهادة ميلاد - بدل فاقد الرقم القومي - ...) تجديد رخص السيارات وسداد المخالفات - حجز تذاكر القطارات والأتوبيسات - سداد الفواتير

هذا الواقع الجديد لتقديم الخدمات الحكومية إلكترونيا أوجد مساحة كبيرة لشكل جديد للعرضحالجي وإن جاز التعبير العرضحالجي الالكتروني



- تنسيق دخول الجامعات وغيرها كثير؛ إلا أن هذا يتطلب من الشخص في حالة الحصول على الخدمة من الانترنت أن يكون لديه حاسب متصل بالانترنت ويعرف كيف يتجول بين المواقع وهو أمر متوفر حاليا لـ ١٠٪ فقط من المجتمع المصري ومعظمهم من الشباب صغيري السن من غير مستخدمي الخدمات الحكومية.

هذا الواقع الجديد لتقديم الخدمات الحكومية الكترونيا اوجد مساحة كبيرة لشكل جديد للعرضحالجي وان جاز التعبير العرضحالجي الالكتروني كوسيط يستطيع تطويع وتسخير المعلوماتية والتقنيات الحديثة واستعمال ادواتها لخدمة من حوله مقابل أجر معقول يغني المواطن عن التنقل والترحال وعن ارتياد المصالح الحكومية وضياع الوقت وبالتالي المال.

ورغما عن ارتباط شكل العرضحالجي التقليدي بأذهاننا بالصورة التي قدمتها السينما المصرية لفترة طويلة وحتى وقت قريب لشخص فهلوي من اشباه المتعلمين يجلس بحوار المصلحة الحكومية بملابسه القديمة والمنديل المحلاوي الذي يضعه تحت غطاء رأسه الا ان الشكل الجديد للعرضحالجي الحديث مكتب انيق مرتب يستخدم الحاسب الالي ويتعامل مع الجمهور بأسلوب راق كوسيط تكنولوجي لتأدية الخدمة مدرب على احدث التكنولوجيات وعلى علم ودراية بالقواعد الحاكمة والقوانين المنظمة للعمل ومزود بأحدث التعديلات الخاصة بالتعليمات والاجراءات الحكومية والتي تحدثها وزارة الدولة للتنمية الإدارية دوريا على بوابة الحكومة المصرية.

يوجد حاليا حوالي ٥٠٠ عرضحالجي من هذا النوع المتطور ولكن الامل ان يزداد العدد الى ٥٠٠٠ ليغطي كل قرى مصر (حوالي ٤٦٠٠) وكافة الأحياء بالمدن والمراكز (حوالي ٣٠٠). وهو هدف ليس بعيد المنال فكل المتطلبات لا تعدو كونها مكانا صغيرا وجهاز حاسب وخط تليفون و٢ من الشباب يقومون بخدمة المواطن. اي أننا نبحث عن ١٠ الاف خريج وخريجة يستخدمون الحاسب وعلى دراية بكيفية التجول عبى الانترنت وهو مطلب ليس صعبا بين شباب الخريجين الآن.

النظرة المتأنية لهذه المهنة القديمة بشكلها الجديد المتطور يتضح منها عدة جوانب إيجابية:

- فرص العمل التي يمكن أن تتولد ومساهمة ذلك في تقليل البطالة
- تخصيص معدل تردد المواطن على المصالح الحكومية حيث يمكن انجاز كافة معاملاته التي لا تستدعي ذهابه الشخصي للحصول على الخدمة وهو ما يؤدي الى تقليل الازدحام وقصر الطوابير بالمصالح الحكومية.
- رفع نسبة استعمال تكنولوجيا المعلومات مما يؤثر ايجابا في تقدم موقف المؤشر المصري التكنولوجي.
- المباعدة بين مقدم الخدمة الأصلي (الموظف) وطالب الخدمة (المواطن) بما يسد ابوابا قد تكون مفتوحة حاليا ينفذ منها الفساد (الرشوة والمحسوبية وتخطي الدور..) وهو حتما سيؤدي إلى مزيد من الشفافية والنزاهة احد أهم مقومات اجتذاب الاستثمارات التي بدورها تولد المزيد من فرص العمل.
- كسر حاجز احتكار الجهات الحكومية لتقديم الخدمات الحكومية وفتح الباب للمواطن ليختار مقدم الخدمة المناسب لتلبية احتياجاته ومطالبه بالصورة التي يرضاها. ■

فتح الله الشيخ

كلما خطا العلم خطوة للأمام نبتت آلاف الأسئلة فى طريقه

وكان الأربعاء صباحًا رائعًا .. ولم ينته العالم

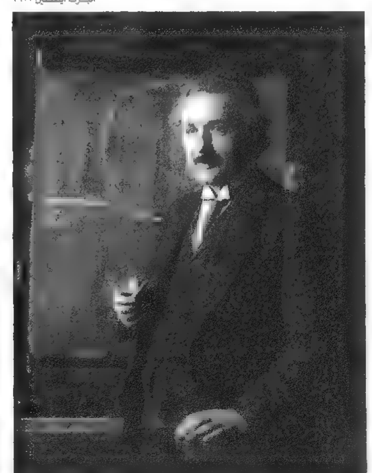
■■ أعتدر بادئ دى بدء عن الملاحظات العديدة المتكررة ودلك بقصد توصيح بعض المصطلحات العلمية، وزيادة لمن يرغب فى الاستزادة، وقد فرضتها ضرورة موصوعيه لا مصر منها

يطرح العلم عادة من الاسئلة ما هو اكثر كثيرا من الإجابات التى يتوصل إليها. وكلما خطا العلم خطوة للأمام نبتت آلاف الأسئلة فى طريقه، وما الأسئلة التى يطرحها إلا منهجه فى التقدم وصنع المستقبل. وفى أواخر القرن التاسع عشر - لأكثر من مائة عام مضت - تسبب أحد التساؤلات فى نشأة علم كامل رائع ومهيب كان التساؤل حول أحد المنحنيات التى تمثل توزيع الإشعاعات الصادرة عن الأجسام السوداء. وأصبح العلم ميكانيكا الكم. وانفتحت بوابات المعرفة السبع على مصاريعها .. ليدخل منها ويصدر عنها علماء ومهندسون وفنيون. حصل العشرات منهم على جوائز نوبل. وما زالوا يحصلون عليها فى هذا المجال آينشتاين[1] وبلانك وشرودنجر وبوهر وبورن وهايزنبرج .. للتاريخ، وغيرهم وغيرهم. وتضم القائمة دون مبالغة ما يقرب من خمسين فيزيائيا. وحصلت البشرية على الترانزستور والدوائر المتكاملة والشيبات، وعلى الكمبيوتر والاتصالات وسفن الفضاء وأجهزة الفحص الطبى المتطورة والطاقة النووية (ومعها القنابل النووية!) والمعجلات الفائقة

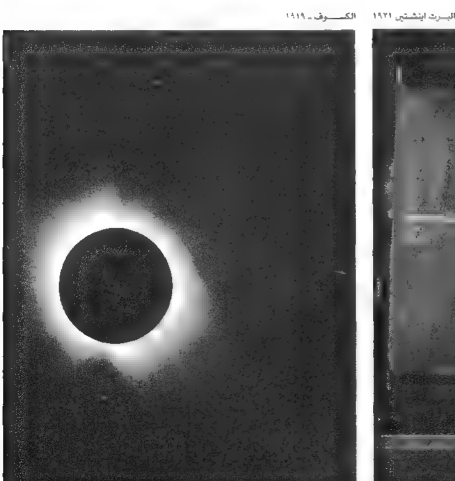
كانت الأسئلة المطروحة وقتها فى بداية القرن العشرين: كيف نبرهن على وجود الذرات بالفعل؟ ومم تتكون هذه الذرات؟ وهل الضوء جسيمات أم موجات؟ وكان البعض القليل من العلماء ما زال يشكك فى وجود الذرات، تماما كما يشكك بعض الناس حتى يومنا هذا فى كروية الأرض أو دورانها حول الشمس وأصبحت أسئلة العلم اليوم. هل حقيقى أن للعالم اكثر من أربعة أبعاد زمكانية[2] (ثلاثة منها مكانية وواحد زمانى)؟ هل المادة المرئية لا تشكل إلا جزءا صغيرا من الكون؟ وهل يتكون العالم أساسا من المادة الداكنة والطاقة الداكنة؟[3] وماهى المادة المضادة؟[4] وكيف تتكون؟ وأين توجد؟ وهل هناك جسيمة حقيقية مسئولة عن كتلة المادة هيجز بوزون Higgs boson؟[5]

تصدت «سيرن CERN» لمحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة «وسيرن» هى المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية التى تأسست سنة ١٩٥٤. وقد اتخذت اختصارا لاسمها من اسم المؤسسة التى سبقتها بالفرنسية (Conseil Europeen pour la Recherche Nucleaire). ويقع مقرها ومعاملها خارج مدينة جنيف على الحدود بين فرنسا وسويسرا. ويساهم فى تمويلها عشرون دولة أوروبية. وتدعم «سيرن» الأبحاث فى مجال فيزياء الجسيمات والمجالات المتعلقة بها للأغراض السلمية. ويقوم الفيزيائيون فى هده المنظمة بإجراء أبحاثهم فى عدد كبير من معجلات الجسيمات[6] الموجودة تحت الأرض. وأكبر هذه المعجلات هو «مصادم الهادرونات الكبير[7] (Large Hadron Collider (LHC» - الذى طارت أخباره وورد اسمه

البرت اينشتين ١٩٢١



الكسوف ـ ١٩١٩



في جميع نشرات الأخبار المسموعة والمرئية بكل لغات ولهجات العالم صباح الأربعاء العاشر من سبتمبر سنة ٢٠٠٨. فقد نجح هذا المصادم العملاق في أول اختبار كبير له، وأحبط كل أفكار وتنبؤات المتشائمين من العلماء والمفكرين وخاصة الناس وعامتهم، الذين قالوا إن إطلاق مثل هذا المعجل قد يدمر ويمحى كوكب الأرض بما ومن عليه. لكن دعونا نبدأ من البداية

اكتشف الفيزيائيون في «سيرن» عددا كبيرا من الاكتشافات الهامة على مدى تاريخها القصير. ففي سنة ١٩٨٣ اكتشف الفيزيائي الإيطالي كارلو روبيا Carlo Rubbia والفيزيائي الهولندي سيمون فان در مير Simon van der Meer الجسيمتين W وZ وهما الجسيمتان الناقلتان للقوى الضعيفة، وهي إحدى القوى الأربع الأساسية في الطبيعة - القوى الكهرومغناطيسية والقوى النووية القوية والقوى النووية الضعيفة وقوى الجاذبية. وقد ساعد هذا الاكتشاف في تأكيد النظرية القائلة بأن القوى الضعيفة والقوى الكهرومغناطيسية شيء واحد، وجلب للفيزيائيين جائزة نوبل لسنة ١٩٨٤

وقد اختبر فيزيائيو «سيرن» وأكدوا تنبؤات نظرية النموذج القياسي، وهي النظرية التي تتناول خواص الجسيمات الأولية وكيفية تفاعلها وتداخلها مع بعضها البعض. وقد أصدروا تقريرا لسنة ٢٠٠٠، جاء فيه أن مصادم الإلكترونات - البوزيترونات الكبير Large Electron Positron Collider (LEP) قد اكتشف دليلا على وجود الهيجز بوزون Higgs boson وهي الجسيمة أو المجال الذي يعتقد الفيزيائيون أنها (أو أنه) المسئول عن كتلة الجسيمات الأساسية. لكن قبل التأكد من هذا الاكتشاف أغلق LEP ليفسح المجال لمعجل مصادم أحدث وأقوى هو «مصادم الهادرونات الكبير» LHC، أقوى وأكبر معجل في العالم على الإطلاق

ومن الطريف أن الأبحاث التي دعمتها «سيرن» قد أفضت إلى إحداث تقدم هائل في مجالات متنوعة. فمثلا، استحدثت الشبكة الشهيرة World Wide Web (www) بواسطة العالم البريطاني الشاب تيموثي بيرنرز لي Timthy Berners Lee كوسيط لاقتسام المعلومات بين الباحثين في «سيرن».

أما ما حدث يوم الأربعاء الكبير الموافق العاشر من سبتمبر فقد كان أعظم وأكبر تجربة فيزيائية في التاريخ، تكاد تقارب في عظمتها وأهميتها الأحداث الفلكية الكبرى، فهي تحاول محاكاة لحظة الخلق - لحظة الانفجار الكبير (Big Bang) فقد تم إطلاق شعاعين من البروتونات في اتجاهين متضادين حول ٢٧ كم من محيط دائرة المصادم الكبير LHC في خطوة كبرى يعدها العلماء إنجازا كبيرا على طريق فهمنا لنشأة العالم. وبعد سلسلة من التجارب الأولية ظهرت أخيرا نقطتان متفجرتان متوهجتان في تمام الساعة ٢٦,٠٨ صباحا بتوقيت جرينتش (٢٦,١١ صباحا بتوقيت القاهرة)، مما أوضح أن البروتونات قد سارت في اتجاه عقارب الساعة على مدى الطول الكامل للمصادم الكبير الذي تكلف إنشاؤه ٤ بلايين فرنك سويسري (٨,٣ بليون دولار). ويصف العلماء هذه التجربة بأنها أضخم تجربة فيزيائية في التاريخ. وعندما أكمل الشعاع دورته صاح قائد المشروع لين إيفانس (Lyn Evans) قائلا: «هذه هي There it is» وارتفعت الاستحسان في شيكاغو على بعد آلاف الكيلومترات من المشاركين والمنافسين على حد سواء، حيث كان الجميع يتابع التجربة بالأقمار الصناعية. وبعد مضى ٥ ساعات أطلق العلماء شعاعا في الاتجاه العكسي (ضد عقارب الساعة). وأصبح لدى الفيزيائيين في جميع أنحاء العالم الآن قوة مهولة لإحداث الصدمات بين مكونات الذرة في محاولة لفهم أصغر الأشياء (الذرة ومكوناتها) وأكبر الأشياء (الكون وكيف نشأ)

كانت المنظمة (سيرن) قد بدأت في إطلاق البروتونات داخل النفق على مراحل قبل بداية التجربة بأقل من ساعة في تمام ٠٧ ٣٠ ص بتوقيت جرينتش (١٠ ٣٠ ص بتوقيت القاهرة)، على أن يتم في نهاية المطاف إطلاق شعاعين معا في اتجاهين متضادين بغرض إعادة صياغة الظروف التي سادت في الكون بعد جزء ضئيل جدا من لحظة الانفجار الكبير (Big Bang) أي لحظة بداية الخلق كما يعتقد معظم العلماء

كان روبرت أيمار Robert Aymar مدير عام «سيرن» المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية موجودا في مركز التحكم على الحدود بين فرنسا وسويسرا ومعه أربعة من مديري العموم السابقين، وقد هنأ الجميع قائلا «لقد أحسنتم صنعا جميعكم وبالفعل أحسن وأنقى الجميع دون استثناء. وكما قال إيفانس، «كان أول شيء فكرت فيه هو الشعور بالارتياح فالمشروع آلة ضخمة في غاية التعقيد وقد يحدث أي خطأ في أي لحظة. لكن البداية كانت رائعة هذا الصباح»، ولم يشأ إيفانس مدير المشروع الذي عمل به منذ بدايته سنة ١٩٨٤ أن يحدد موعدا، لكنه صرح بأنه يتوقع أن يتمكن العلماء من إجراء «صداماتهم» وتجاربهم في غضون بضعة أشهر فقط

وقد صمم المصادم لتعجيل (إكساب الطاقة والسرعة) البروتونات إلى سرعات قريبة من سرعة الضوء، بحيث تئز ١١٠٠٠ (أحد عشر ألف) مرة حول النفق في الثانية! ويأمل العلماء في النهاية أن يتمكنوا من إطلاق شعاعين من البروتونات من فتحات أنابيب يقارب اتساعها فتحة خرطوم الحريق على أن يتم تعجيلها خلال فراغ أبرد وأعمق تفريغا من الفضاء الكوني، وستتقاطع مسارات هذين الشعاعين وتصطدم بعض البروتونات ببعضها، وسيقوم بتسجيل الصدام وما ينتج عنه أكبر كشافين على شكل آلات تصوير رقمية هائلة تزن الواحدة منها آلاف الأطنان، ولها القدرة على التقاط ملايين اللقطات في الثانية الواحدة. وأثناء اختبارات الصباح ارتفعت قليلا درجة حرارة المغناطيسات فائقة البرودة والتي تقود أشعة البروتونات عبر النفق، الأمر الذي



..ولم ينته العالم

خشى البعض من أن التجربة قد تؤدى إلى ابتلاع كوكب الأرض

استدعى فترة فاصلة من الزمن لإعادة تبريدها قبل إطلاق الشعاع الآخر فى الاتجاه المضاد.

وقد تتمكن «سيرن» من كشف المزيد من غموض ما يسمى «المادة الداكنة» والمادة المضادة، ومن المحتمل كذلك أن تتمكن من استيضاح الأبعاد الخفية للزمكان، وقد تتمكن من العثور على دليل على وجود الجسيمة «النظرية التخيلية» هيجز بوزون Higgs boson - «جسيمة الرب» كما يطلق عليها العلماء أحيانا، ويعتقدون أنها هى التى تمنح الجسيمات الأخرى كتلتها، وبالتالى فهى المسئولة عن المادة التى تشكل الكون.

وقد عارض البعض تجارب المصادم الكبير وأبدوا تخوفهم أن تبتلع صدامات البروتونات كوكب الأرض بواسطة تكون ثقب أسود ميكرووى [٩]. لكن المتحدث الرئيسى باسم «سيرن»، جيمس جيليس James Gillies، قال بالحرف الواحد: «إنه هراء». وقد أيد علماء بارزون إجراء تجارب «سيرن»، مثل ستيفن هوكنج، أكبر عالم فى مجال الثقوب السوداء، وأعلنوا أن التجارب آمنة تماما. وكان بعض العلماء المتشائمين (وهم دائما موجودون) قد أعلنوا أنه قد تتكون بعض الثقوب السوداء الميكرووية التى قد تقتنصها جاذبية الأرض لتهدد بابتلاع الكوكب فيما بعد. وقد صرح عالم الفيزياء النظرية البريطانى جون إيليس قائلا: «لنفترض جدلا أن الصدامات ستولد ثقوبا سوداء ميكرووية بالمقام الأول وهو أمر بعيد الاحتمال، لكن حتى إذا حدث فإن هذه الثقوب ستتبخر كما يتنبأ بذلك ستيفن هوكنج. وقد صرح جيليس بأن أخطر ما يمكن حدوثه هو خروج الشعاع عن التحكم وهو بكامل طاقته، وقد يؤدى ذلك إلى تدمير المعجل نفسه، أما الشعاع فسيمتص ويدفن فى الأرض المحيطة بالنفق. ولم يحدث شىء من ذلك يوم الأربعاء، مما يدفع للاعتقاد بأن المعجل سيعمل بكامل طاقته فى غضون عام من الآن.

وقد اجتذب المشروع الذى قامت به الدول العشرون الأعضاء فى «سيرن» علماء وباحثين من أكثر من ٨٠ دولة، من بينهم ١٢٠٠ من الولايات المتحدة وحدها، وهى الدولة التى لها صفة المراقب والتى ساهمت بمبلغ ٥٣١ مليون دولار. وتعد اليابان من أكبر الدول المساهمة التى لها صفة المراقب. ومما هو جدير بالذكر أن بعض العلماء من هذه الدول ما زالوا فى انتظار إجراء تجاربهم على المصادم الكبير LHC منذ ٢٠ عاما.

وقد تطلبت درجة التعقيد العالية لإتمام مشروع المصادم الكبير LHC حدوث تقدم هائل فى استخدام تقنيات ومعدات من الموصلات الفائقة [١١] فى درجة حرارة فائقة التبريد. وقد أدى ذلك إلى تأخير الافتتاح الذى كان مقدرا له سنة ٢٠٠١ واكتمال بيانات المعجل الذى كان مقدرا له سنة ٢٠٠٥ لمدة عامين لكل منهما على الأقل. أما التكاليف فقد زادت بمقدار ٢٥ ٪ عما كان مقدرا لها.



وقد استخدم العلماء معجلات أو مصادمات أصغر على مدى عقود من السنين فى دراسة تكوين وبنية الذرة. وكان الاعتقاد السائد منذ أقل من مائة عام أن البروتونات والنيوترونات هى أصغر مكونات نواة الذرة، إلا أنه بالتدريج منذ ذلك الحين بينت التجارب أنها، أى البروتونات والنيوترونات، تتكون من كواركات أصغر وجليونات (Quarks & Gluons)[١٢] وما زالت هناك قوى وجسيمات أخرى. وما حدث يوم الأربعاء كان مجرد شعاع واحد منخفض الطاقة. لكن خبرة المنظمة «سيرن» ستزداد وتتراكم من خلال مثل هذه العمليات منخفضة الطاقة، والتى ستزيد طاقتها بالتدريج مع زيادة الخبرة ومعرفة الآلة.

وستتدفق كميات مهولة من المعلومات والبيانات للدرجة التى لن تتمكن كمبيوترات المعامل من الصمود أمامها والتعامل معها. ولذلك فإن العلماء الذين سيراقبون التجربة من مركز التحكم الموجود فوق الأرض، قد صمموا طريقة لتوزيع حمل البيانات على عشرات من مراكز الكمبيوتر حول العالم. وستكون النتيجة شبكة من الحاسبات خاصة بالمصادم الكبير LHC مكونة من ستين ألف (٦٠٠٠٠) كمبيوتر. الأحداث التى ستقع عندما ستقذف البروتونات باندفاع هائل لتتصادم ببعضها البعض. وهذه المقدرة الحاسوبية الكبيرة ضرورية إذا كان على العلماء أن يكتشفوا ما يبحثون عنه فى جبال البيانات التى سيحصلون عليها. ويقول يان بيرد Ian Bird المدير المسئول عن مشروع الشبكة «يمكن تخيل كل تجربة على أنها آلة تصوير رقمية عملاقة قدرتها ١٥٠ ميجا بيكسل تلتقط ٦٠٠ مليون لقطة فى الثانية». وسيستخدم النظام مرشحات معقدة ومتطورة لاستبعاد كل شىء ما عدا البيانات ذات الأهمية، تاركة بذلك ما يقرب من ١٥ بيتا بايت لتخضع للتحليل والدراسة، أى ما يكفى لملء مليونى (٢٠٠٠٠٠٠) DVD (٤) وسترسل البيانات إلى أحد عشر معهدا للأبحاث من أشهر المعاهد الأوروبية والأمريكية والآسيوية، لترسل بدورها من هناك إلى ١٥٠ مجموعة بحثية حول العالم للفحص والتدقيق بواسطة آلاف الباحثين.

يقول روث بوردس Ruth Pordes المدير التنفيذى للشبكة العلمية المفتوحة فى فيرمى لاب بشيكاغو: «وقد برهنت عمليات التعاون فى مثل هذه المشروعات الكبرى أنها لا تقدر بثمن». وأضاف بوردس: «نحن نقوم بأشياء على حدود العلم، لكن التقنيات والوسائل والنتائج ستكون من نصيب الصناعة». ويعد هذا المشروع الممول من الحكومة الأمريكية أحد أكبر المساهمين فى الشبكة

> **فى صباح الأربعاء العاشر من سبتمبر كان المجتمع العلمى حول العالم يحبس أنفاسه**



ويتوقع العلماء أن يتم استخدام شبكة الحاسبات على نطاق أوسع فى البحث العلمى بدءا من الأدوية الجديدة وحتى الطاقة النووية. وفى النهاية سيبدأ المستهلكون فى الإحساس بها فى حياتهم اليومية وذلك فى تنظيم المرور والأرصاد الجوية وفى الاقتصاد والسوق. وهكذا حتى لو لم تعطنا تجارب المصادم الكبير LHC الإجابات الشافية على المسائل الكونية، فإنها ستكون أداة أساسية فى تطوير شبكة الحاسبات. ولن يكون ذلك أول مرة، فقد سبق أن اقترح تيموثى بيرنرز - لى البريطانى منظومة لاقتسام المعلومات مع رفاقه حول العالم وأسماها World Wide Web (www)

وفى صباح الأربعاء العاشر من سبتمبر، وعندما بدأ أول شعاع من البروتونات يئز حول مساره فى الحلقة الكبرى للمصادم الكبير LHC كان المجتمع العلمى حول العالم يحبس أنفاسه فى انتظار وتوقع لأحد أمرين، إما أن يتمكن الفيزيائيون من الإمساك أخيرا بالهيجس بوزون Higgs boson، المراوغة التى تنبأت بها نماذجهم، أو يتعلموا أنهم كانوا يطاردون سرابا طوال عقود من السنوات. لكن طلاب جامعة براون قد روجوا بشدة لاحتمال ثالث بغيض وقاس، وهو أن الثقوب السوداء الصغيرة التى قد تتكون فى المصادم الكبير قد تتمدد بسرعة لتبتلع كوكب الأرض من داخله. وقد أطلق الطلاب على الحدث فى موقع «فيس بوك facebook» حفل الاستعداد ليوم القيامة. وقدموا برنامجا يناسب الدمار والنهاية المتوقعة بما فى ذلك «فى حالة ما إذا حدث» وأن تُمتص فى ثقب أسود»، وكان الجميع مرتديا أفخر الثياب - تلك الثياب التى يرغبون أن يموتوا ويدفنوا فيها.

هذا ما كان وما صار يوم الأربعاء الكبير فى المصادم الكبير الذى حان الآن أن نقدم وصفا وتعريفا له. ومصادم الهادرونات الكبير LHC هو أكبر معجل للجسيمات فى العالم وأعلاها طاقة على الإطلاق. وهو مصمم لإحداث صدام بين شعاعين من البروتونات يسيران عكس بعضهما وطاقة كل منهما ٧ TeV (تيرا إلكترون فولت) - سبعة مليون مليون إلكترون فولت - وهى وحدة قياس الطاقة المستخدمة عادة فى العمليات الإشعاعية. ويهدف المصادم الكبير لاختبار صلاحية وحدود

النموذج القياسي. وهو الصورة النظرية الحالية لفيزياء الجسيمات. ويعتقد النظريون أن المصادم سينتج «هيجس بوزون Higgs boson»، وسيؤدي إلى تأكيد التنبؤات والحلقات المفقودة في النموذج القياسي، وإلى معرفة الكيفية التي تكتسب بها الجسيمات الأولية الأخرى صفاتها - الكتلة مثلا. وقد شارك في بناء المصادم الكبير أكثر من ٨٠ دولة ومئات الجامعات والمختبرات.

يبلغ محيط النفق الحلقي للمصادم ٢٧ كم ويقع على عمق يتراوح بين ٥٠ و١٧٥ مترا تحت الارض. وقد تم تشييد النفق المسلح بقطر فتحته ٨,٣ متر بين عامي ١٩٨٣ و١٩٨٨ وكان يستخدم لاحتواء مصادم الإلكترونات - البوزيترونات الكبير (LEP). ويقطع هذا النفق الحدود بين فرنسا وسويسرا في أربع نقاط لكن معظمه يقع في فرنسا. أما المنشآت السطحية فتضم مركز التحكم والتجهيزات المعاونة مثل المصخات ومعدات التهوية والتحكم الإلكتروني ومحطات التبريد. ويضم نفق المصادم الكبير زوجا من الأنابيب التي تبث شعاعي البروتونات - وهي نوع من الهادرونات. ويكون مسار كل شعاع عكس الآخر حول الحلقة. ويقود الشعاعين ويتحكم في دورانهما حوالي ١٢٣٢ مغناطيسا ثنائي الأقطاب بينما يقوم ٣٩٢ مغناطيسا رباعي الأقطاب بالاحتفاظ بأشعة البروتونات مركزة في نقاط التقاطع الأربع لزيادة فرص تصادمها. ويعني ذلك أن هناك أكثر من ١٦٠٠ مغناطيس من الموصلات الفائقة كتلتها أكثر من ٢٧ طنا وتستخدم حوالي ٩٦ طنا من الهليوم السائل للاحتفاظ بدرجة الحرارة المطلوبة لأدائها الفائق عند ١,٩ K، مما يجعل من LHC أكبر تجهيز مُبرِّد في العالم في درجة حرارة الهليوم السائل. وتستخدم المغناطيسات الكهربية رباعية الأقطاب من الموصلات الفائقة لتوجيه وتركيز الشعاعين إلى نقاط التقاطع الأربع

ويتم تعجيل البروتونات على مراحل تضيف كل منها طاقة - أي سرعة - إلى البروتونات، وأول منظومة هي معجل الجسيمات الخطي Linac ٢ الذي يصل بطاقة البروتونات إلى ٥٠ MeV. وتمد هذه المنظومة معزِّز سينكروترون البروتونات في الخطوة التالية حيث يتم تعجيل البروتونات حتى ١,٤ GeV، ثم أخيرا يتم التعجيل إلى ٤٥٠ GeV في سينكروترون البروتونات الفائق وذلك قبل حقن البروتونات في الحلقة الرئيسية على مدى ٢٠ دقيقة ويصل تعجيل البروتونات إلى ٧ TeV في الحلقة الرئيسية على مدى ٢٠ دقيقة. تحتزن البروتونات في هذه الحالة لمدة تتراوح بين ١٠ و٢٤ ساعة بينما تجرى التصادمات في نقاط التقاطع الاربع.

وبعد، هذا هو مصادم الهادرونات الكبير الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، والذي قد يتمكن العلماء بواسطته من الإجابة عن بعض التساؤلات. لكن المؤكد أنه سيثير من التساؤلات أكثر كثيرا مما سيجيب عنه. ■

(١) لم يحصل اينشتاين على جائزة نوبل على النظرية النسبية، وهي سبب الشهرة العظيمة التي أصابها، لكنه حصل على الجائزة سنة ١٩٢١ لأبحاثه في مجال ميكانيكا الكم.

(٢) تدل كلمة زمكان على دمج الزمان والمكان معا حسب النظرية النسبية، وهي ترجمة الكلمة space-time

(٣) تؤكد الحسابات العلمية أن كتلة المجرات يتكون معظمها من مادة داكنة Dark Matter لا ترى بالعين ومن طاقة داكنة Dark Energy.

(٤) تتكون المادة العادية من ذرات بها أنوية موجبة الشحنة الكهربية تتواجد حولها الكترونات سالبة الشحنة وتتكون الانوية من بروتونات موجبة ونيوترونات متعادلة. أما المادة المضادة Antimatter فتتكون ذراتها من أنوية سالبة لوجود البروتونات المضادة والنيوترونات المضادة بها، ويتواجد حولها البوزيترونات (الالكترونات المضادة) الموجبة ومعروف أن تقابل أي جسيمة مع جسيمتها المضادة يؤدي إلى تلاشيهما معا وتحولهما الى فوتونين بطاقة هائلة (أشعة جاما) وكذلك إذا التقت ذرتان إحداهما من المادة والأخرى من المادة المضادة.

(٥) تؤكد نظرية النموذج القياسي على وجود مثل هذه الجسيمه، والتي يطلق عليها العلماء في الغرب «جسيمة الرب God's particle».

(٦) إنشاءات متفاوتة الأحجام والقدرات تُكسب الجسيمات طاقة وسرعة بواسطة تدرج في المجال المغناطيسي الذي يتحكم في مسارها

(٧) الهادرونات حالة من حالات تماسك الكواركات (الكوارك هو المكون الأساسي للجسيمات من بعض الأنواع)، وأشهر الهادرونات هي البروتونات والنيوترونات.

(٨) تبلغ سرعة الضوء في الفراغ ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية.

(٩) الثقب الأسود منطقة تبلغ فيها كثافة المادة قيما مهولة تجعل جاذبيتها من الكبر بحيث لا يفلت منه حتى الضوء، وهي معروفة في الكون وقادرة على ابتلاع نجوم ومجرات بأكملها. ويوجد في مركز مجرتنا «درب اللبانة» ثقب أسود كتلته تصل إلى عدة ملايين مرة أكبر من الشمس.

(١٠) الموصلات التي تنعدم مقاومتها في درجات الحرارة المنخفضة بشكل كبير مثل ٢٧٠ تحت الصفر المئوية وهي أحد المجالات الواعدة في المستقبل.

(١١) المكونات الصغرى للجسيمات الأولية وهي على أنواع مختلفة.

كتاب الزاوية

Chemistry of Happiness

كيمياء السعادة
أبو حامد الغزالي
في معرفة النفس (٢)

فالواجب عليك أن تعرف هذا، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة.

فإن سعادة البهائم في الأكل، والشرب، والنوم، والنكاح. فإن كنت منهم فاجتهد في أعمال الجوف والفرج.

وسعادة السباع في الضرب، والفتك.

وسعادة الشياطين في المكر، والشر، والحيل. فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم.

وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق. فإن كنت من جوهر الملائكة، فاجتهد في معرفة أصلك: حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب، وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء ركبت فيك: فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها، ولكن خلقها حتى تكون أسيرك، وتسخرها للسفر الذي قدامك، وتجعل إحداها مركبك، والأخرى سلاحك: حتى تصيد بها سعادتك. فإذا بلغت غرضك فقاوم بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك. وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة

فتحتاج إلى معرفة هذه المعاني: حتى تعرف من نفسك شيئاً قليلاً: فكل من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه من القشور: لأن الحق يكون عنه محجوباً.





جاك غودي

■■ في رواية صامويل جونسون بعنوان. الرأس إيلاس (Russelas) (١٧٥٩) يحاول الشاعر «إملاق» Imlac أن يشرح للراس إيلاس حالة العالم خارج حدود الوادي السعيد.

في الشرق الأدنى «تحاورتُ مع عدد كبير من أمم أوروبا الشرقية والعربية، وهي الأمم التي باتت الآن تمتلك كل مقاليد القوة وكل المعرفة، كما أن جيوشها أصبحت لا تقهر وأساطيلها تتحكم في أقصى بقاع المعمورة. وعندما قارنت بين هؤلاء الرجال وبين أبناء مملكتنا الذين يحيطون بنا بدوا وكأنهم ينتمون إلى نظام مختلف تماماً من الكائنات. في بلادهم من الصعب أن ترغب في شيء ثم يتعذر الحصول عليه؛ آلاف من الحرف والفنون لم نسمع عنها قط، ومازالت تعمل من أجل راحتهم وسعادتهم، ومهما حرمهم الطقس في بلادهم، فقد عوضتهم عنه التجارة التي يمارسونها».

قال الأمير: «كيف أصبح الأوروبيون على هذا القدر من المنعة والصولجان؟ أو إذا كان من السهل عليهم أن يزوروا آسيا وأفريقيا تجارا أو فاتحين، ألا يستطيع الأسيويون والأفارقة أن يغزوا سواحلهم ويؤسسوا مستعمرات في موانيهم ويفرضوا القوانين على أمرائهم؟ إن الرياح التي حملتهم إلينا يمكنها أن تحملنا نحن إليهم؟».

أجاب إملاق قائلاً: «سيدي، إنهم أقوى منا بكثير، لأنهم أحكم منا. والعلم سوف يفوق الجهل دائماً بقدر ما أن الإنسان يتحكم في سائر الحيوانات، ولكن لماذا فاقونا في المعرفة، هذا ما أعجز عن إدراك سببه، اللهم إلا أنها إرادة الكائن الأعظم التي لا سبيل إلى إدراكها».

متى أصبح الأوروبيون على وعي بتفوقهم بالنسبة إلى سائر الأمم؟

إن التفوق العرقي سمة عامة للحالة البشرية. إنه النظير الذي يجسد المركزية الإثنية على مستوى مجموعة التركيز على الذات التي تحفظ الروح الفردية. ومثل هذا التفوق المعمم لا يتعارض مع وجود نواح من الإحساس بالدونية ومع الاعتراف بعوامل القصور والتشكك في الذات ونقد الذات. ولكن على مستوى آخر فهو ينشأ بقدر من الوضوح الخاص في المواقف الجماعية على نحو ما يعبر عنه جون أوف غونت في خطاب الاحتضار:

هذا العرش الملكي للملوك. موقع الجاه والصولجان

إنها أرض الجلالة وموقع أرباب القتال

هذه عدن الأخرى. نصف الفردوس.

إن الذي لا نجده عند شكسبير هو التعبير عن شعور عام من تفوق الغرب على الشرق على نحو ما نجده بكل هذا الوضوح فيما يذكره جونسون في الرأس إيلاس في عام ١٧٥٩، قبل أن تحل الثورة الصناعية الحقيقية (والرأسمالية بهذا المعنى). إن جونسون يرى بحق أن القوة والمعرفة من خصائص الأوروبيين. ولا سيما القوة العسكرية وقوة النيران. ما يستعيد بالتالي موضع كتاب ك. م. كيبولا (Cipolla .M C) بعنوان المدافع والقلاع في المرحلة الأولى من التوسع الأوروبي. Guns and (1965) 1700 - 1400. Sails) in the Early Phase of European Expansion. ١٤٠٠ - ١٧٠٠) هذه القوة أتاحت السبيل لوفرة في السلع التجارية. كما أنها تستند إلى تفوق في المعرفة. وكان هذا أمرا طيباً بحد ذاته. بيد أن هذا التفوق ما لبث أن أضفوا عليه طابعاً مصطنعاً باستمرار. حيث قارنوه بقدرة الإنسان في السيطرة في سائر الحيوانات، وبالتالي أرجعوه إلى «إرادة الكائن الأعظم التي لا سبيل إلى تقصيها». ومع ذلك فالتفوق الحالي لم يستمر لأنه يأتي من «تقدم العقل البشري والتحسن التدريجي الذي يطرأ على المنطق وأشواط التقدم المتتابعة التي تقطعها مسيرة العلم». وفي الوقت نفسه. فإن إعمال العقل يرتبط بمقدم المسيحية وبانقشاع ظلمة الجهل وتباشير فجر الفلسفة.

على أن هذا المفهوم الذي يقول إن الأوروبيين «يمثلون نظاماً يكاد يكون مختلفاً للكائنات»، لم يكن مجرد نزعة للتركيز العرقي على الذات، ولا مجرد محصلة لنرجسية دفاعية. لقد جاء مستنداً إلى منجزات عصر النهضة الأوروبية والثورة العلمية ومرحلة التنوير، ومن ثم جاء التشديد على المعرفة وعلى العقل (وهو مفهوم بدأ يذيع في تلك المرحلة)، وكذلك على القوة ثم التجارة.

ولكن فيما كانت تلك المنجزات حديثة العهد، فقد كانوا يعودون بجذورها إلى عصور سبقت تكمن في عمق هيكل الثقافة، وفي التراث الذي تناهى من الإغريق (أو الجرمان). وفي الأنعم التي جاد بها الله عز وجل (وأضفاها على شعب مختار، ثم إلى مقدم الديانة المسيحية). وبعبارة أخرى. كانت ثمة ميزة محددة تاريخياً معممة إلى حيث طال أمدها واستدام أجلها إلى درجة وصلت لحد التفوق البيولوجي. وفضلاً عن ذلك، فالأسس المحددة للتفوق لم تكن موضع تدبر وتفكير عميق. ومن ثم فإن المؤرخين الغربيين ومن نسج على منوالهم من علماء الإنسانيات والاجتماع كثيراً ما أساءوا فهم العلاقة بين الشرق والغرب، بل فعل الشيء نفسه بعض العلماء الشرقيين كذلك، وقد أعمتهم الآثار المدمرة للتوسع عبر البحار. فضلاً عما أحرزه العلم والتكنولوجيا والمعرفة من تقدم بصورة أشمل. وأخيراً بمجيء المرحلة الصناعية في أوروبا.

وعلى أعم المستويات، فإن التناقض بين أوروبا وآسيا وما أعقبه من الحط من مكانة الشرق ما لبث أن اتخذ جذوره في مرحلة مبكرة في تاريخ الغرب، لقد أفضى الصراع بين اليونان والفرس إلى حيث الإشارة للآسيويين على أنهم يتسمون بطابع السلطة الاستبدادية والترف البربري، إذ رآهم أرسطو في كتاب السياسة (Politics) على أنهم أكثر خنوعاً، ثم جاء اقتران المسيحية مع أوروبا في القرون الوسطى ليعزز هذه المشاعر، وها هو مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) يتبع خطى أرسطو فيعاود وضع «عبقرية الحرية» لأوروبا في كفة مناقضة مع «روح العبودية» في آسيا، قائلاً: «لن نرى قط ما يلوح هناك سوى بطولة الاستعباد التي حافظت على كيان إمبراطورية الاستبداد لأن العلاقات السياسية قامت على أساس عبودية الطاعة الأسرية».

لكن هذا التناقض بددته ريادة المعرفة بالشرق نتيجة توسع التجارة الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر: بالنسبة إلى الصين كان الجزويت هم الذين أصروا على اتباع منظور مختلف، وبالنسبة إلى الهند كان هناك أقوام أكثر إدراكاً للأمور ضمت جموعهم التجار والرحالة وكبار الإداريين. لكن التحدي



الشرق في الغرب
جاك غودي
ترجمة: محمد الخولي
بيروت: المنظمة العربية للترجمة
بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

The East in the West
Jack Goody
Editions du Seuil. 1999

الطروحات التي تنطلق من القول بميزة الغرب لا تضع في اعتبارها حقيقة أنه خلال القرون الوسطى كان الشرق هو السابق في كثير من الميادين



قلما أثر في التقييم العام للاختلاف بين الشرق والغرب على نحو ما نراه من واقع الأوهام التي صورها صامويل جونسون.

ومع تقدم الثورة الصناعية (Industrial Revolution)، اتخذ التناقض السياسي منحى اقتصادياً أكثر تحديداً على يد الاقتصاديين الكلاسيكيين في إنجلترا. لقد عادوا بآرائهم إلى كتاب آدم سميث ثروة الأمم الذي رأى فيه فقر الجموع ناجماً عن حقيقة أن الاقتصاد لم يعد يساير في خطاه إيقاع نمو السكان. وهذا الملمح كان قد شغل بالفعل بال «مونتسكيو» عندما أرجع الزيادة المفرطة إلى المناخ الحار، وقال إن الصين يحكمها نظام ركودي يهمل الحرية الطبيعية لصالح نظم مصطنعة تحول دون تدفق التجارة.

ومن الذين تأثروا بالاقتصاديين الكلاسيكيين كان كارل ماركس (Karl Marx) الذي عاش في إنجلترا بين عامي ١٨٦٠ و١٨٨٣. لقد اتبع ماركس خطى من سبقه من الكتاب، كما اتخذ المواقف الأكثر ذيوعاً عندما رأى في الدولة الآسيوية كياناً ستاتيكياً راكداً يقوم على أساس الري ويمارس أساليب استبدادية تتحكم في طبقة خانعة من الفلاحين. كان هذا أسلوب الحياة الآسيوي. ولأسباب عميقة كانوا عاجزين عن متابعة سياق التطور الذي أفضى إلى الإقطاع تطوراً من المجتمع القديم، ثم إلى الرأسمالية، ومن ثم إلى الاشتراكية. كان مخطط ماركس لمراحل التطور صياغات لفروض واسعة النطاق تستند إلى التجربة الأوروبية وتستبعد آسيا التي رآها وقد اتخذت سبيلاً إلى شكل راكد «أورينتالي» من أشكال المجتمع وهو سبيل «الاستثنائية الآسيوية».

وعندما كان هؤلاء الاقتصاديون يكتبون أعمالهم تشكلت ثغرة واسعة في مستوى المعيشة، وفي تراكم المعارف، فضلاً عن النظام السياسي بين الشرق والغرب. وفي الجزء الأخير من القرن الثامن عشر كان غرب أوروبا قد دخل فترة من النمو المستدام، بحيث بدت آسيا بالمقارنة كياناً راكد الحركة، وبدت تلك الهوة وكأنها وجدت لتبقى. ومرة أخرى، فإن هذه الميزة ما لبثت أن أصبحت كما رآها البعض تعكس حالة متواصلة للأوضاع التي تستند إلى فروقات اجتماعية دائمة أفضت إلى أن الشرق لم يشهد نمواً أو تطوراً في الإقطاع. وفي مراكزه التجارية على نحو ما شهدته «الكومونات» (Communes) التي انتشرت من شمال إيطاليا. وكانت بشيراً بمجتمع مدني. هذه الميزات، سواء الفعلية أو المتصورة، شكلت الخلفية التي استند إليها العمل المرموق الذي أنجزه ماكس فيبر (Max Weber). لقد أرسى فيبر أساساً أفضل للحوار بالمقارنة مع من سبقه من الكتاب، ومنهم هيغل (Hegel) مثلاً وبالذات هيردر (Herder) الذي رأى الخلاف مع الشرق الأقصى راجعاً إلى «الطابع الخاص للغاية للصينيين». وكان بذلك يعني الطبيعة أكثر من الثقافة باعتبار أن هذه الأوضاع ناجمة عن خصائص جوهرية. وهذا النهج الخاص من التفكير يمكن صرف النظر عنه ولا يفيد إلا في أنه يصور أوجه التطرف التي يمكن أن تتمادى فيها نزعة التركيز على الذات إلى حيث تصل إلى الشعوبية العنصرية بالمعنى الحرفي. وتقتضي آراء فيبر مزيداً من النظر الجاد، وخاصة لأن هناك آراء مماثلة لها إلى حد كبير جداً ما زالت تهيمن على قطاعات فكرية واسعة في الميادين الاجتماعية والسياسية والتاريخية. ولهذه الآراء، بل لآراء كثيرة من الأفكار المماثلة، يتوجه هذا الكتاب بالذات. صحيح أن هناك جمهرة من الاختصاصيين الغربيين في موضوع آسيا على بينة تامة من هذه السلبيات، ولكن هناك آخرين تسيطر عليهم الإنجازات الدامغة التي حققها الغرب بما يعني إضفاء طابع عالمي عليها (ومن ذلك مثلاً قضية العقلانية)، بينما تقتضي الملاءمة عوامل أكثر تحديداً أو يتطلب الأمر التعامل مع هذه الميزة على أساس أرسخ مما يمكن أن تبرره القرائن المتاحة. وإذا ما كان لمثل هذه السلبيات أن توجد بين صفوف بعض الاختصاصيين، بمن فيهم الشرقيون، فإنها أكثر ذيوعاً كذلك بين صفوف المؤرخين وعلماء الإنسانيات والاجتماع في الغرب الذين يقولون بفكرة الفردانية (Uniqueness) «الخارقة» التي تشكل منطلقاً أساسياً لأعمالهم الفكرية على أن المطروح في هذا السياق هو طابع هذه الفردانية (التي من الواضح أن المجتمعات كلها تمتلكها)، ولكن في مقابل الهوة التي نمت في هذه الفترة.

في القرن التاسع عشر نشأت المسألة المحددة التي تقول بالطابع الفريد للغرب بالنسبة إلى «معجزة» النمو المستدام، أو في نظر الآخرين بالنسبة إلى «لعنة» الرأسمالية. أما الطابع الراكد (Static) لاقتصاديات المجتمع الشرقي، فقد كان ينظر إليه على أنه نابع من حقيقة أن هذا المجتمع لم يكن يمتلك الأشكال الكافية من العقلانية، ولا الأواصر العائلية، ولا مهارات تنظيم المشاريع التي كانت تُعد ملامح يختص بها الغرب دون غيره، فضلاً عن النظرة الانتقادية إلى التطورات الكبرى التي حدثت هناك. ويرى فيبر أوروبا أنها تتسم بشكل خاص من أشكال السلطة الرسمية ومن العقلانية، ومن الأعراف الاقتصادية، ما أتاح تطور الرأسمالية. بينما كانت النتيجة في آسيا أنها خضعت للتحجيم بسبب نظام الطبقات الجامد أو النظام العشائري، فضلاً عن التعاليم الدينية. هاتان النظريتان تواصلان السير على خطى العرف الإنساني الذي يفرد ميراث اليونان والرومان بوصفه مصدر الفضائل الخاصة التي تناهت في أوروبا. وهذا التراث القديم مقترناً مع بحث مرحلة ما بعد عصر النهضة (Post-renaissance) عن العقلانية في المعرفة وفي الاقتصاد أتاح للغرب أن ينجز قفزته الكبرى إلى الأمام. وهو ما تمت صياغته بطرق شتى ليحمل عنوان الثورة العلمية أو عصر العقل والتنوير. ما أفضى إلى «التحديث» والتصنيع والرأسمالية. ومن ثم إلى «المعجزة الاقتصادية» ذاتها. وهناك أعداد لا تحصى من مؤرخي الغرب ينطلقون من الافتراضات نفسها وإن بأشكال لا تكاد تعكس اختلافاً بينها. حتى إن السؤال الذي يطرحونه على أنفسهم وقد اختزلوه إلى عناصر الإثنومركزية هو: «ما الذي جعلنا أفضل ملاءمة من سوانا لكي نكون حاملي شعلة المجتمع الحديث؟».

ولقد تطرقت للحديث عن نظريتين كلاسيكيتين. وبالإضافة إلى ذلك لدينا صيغ مختلفة عن «نظرية النظم في العالم» (World systems Theory) وتكمن مزاياها في تركيزها على أثر التغيرات التي استجدت مؤخراً على المجتمعات في طول العالم وعرضه، لكن سلبياتها يمكن أن تؤخذ على محمل ذلك أن «النظم» أو «النظم الفرعية» الأخرى كلها تصنف بالنسبة إلى الغرب على أنها طرفية أو شبه طرفية. وفيما قد يبدو هذا التقسيم وكأنه يشكل خطوة أكثر تقدماً عن مفهوم أحادي للعالم الثالث، إذ إنه ينظر إلى الوضع السائد في ضوء التقدم المستجد مؤخراً نحو التصنيع، كأن يقال على سبيل المثال إن تايوان رفعت نفسها من موقع الطرف إلى موقع شبه الطرف منذ الإصلاح الزراعي الذي تم بعد الحرب.

ولقد كان الإطار الذي طُرحت داخله مثل هذه الأفكار هو الخبز اليومي لعلماء الاجتماع

وللمؤرخين وعلماء السكانيات والاقتصاديين، ثم ومن زاوية مختلفة نوعاً ما لعلماء الأنثروبولوجيا. لقد حاولوا رسم خطوط لم تسمر تاريخيا فقط عن تعظيم أو تعميق الاختلافات المطروحة (وخاصة الاختلافات المهمة بصورة أساسية التي تطرقنا إليها) بين جناحي الكتلة البرية في أوراسيا (Eurasian Landmass). بل إن هذه الخطوط كثيرا ما تجاهلت في رأيي التراث المشترك للمجتمعات الكبرى في المنطقة التي شهدت حضارات الشرق الأدنى العظيمة، في نزوع إلى «إضفاء صفة البدائية» (Primitivise) على المؤسسات الشرقية المحلية والاقتصادية والدينية والسياسية وبطرق غير مقبولة، على الأقل بالمقارنة مع نظيرتها في أوروبا في بواكير حداثتها. ومن منظور واسع من حيث المكان والزمان يتعين علينا أن نبرر أسباب الاختلاف اللاحق بدلاً من التباينات الأولى.

مثل هذه الحقائق تتزايد وضوحاً من خلال كتابات مرموقة منها مثلاً كتاب نيدام «العلم والحضارة في الصين» (Science and Civilisation of China). إن الطروحات التي تنطلق من القول بميزة طويلة الأجل لا تضع في اعتبارها حقيقة أنه خلال القرون الوسطى كان الشرق هو السابق في كثير من الميادين. وفضلاً عن ذلك فمثل هذا الجدل تجاوزه الزمن بفعل الأحداث المستجدة مؤخراً في آسيا، إلى جانب النمو السريع للاقتصاد والتكنولوجيا ونظم المعرفة، أولاً في اليابان، والآن في كثير من سائر دول المنطقة.

وقد اتضح منذ عقود من الزمن، حتى بالنسبة إلى علماء الاجتماع (المؤرخون لم يتعين عليهم بعد أن يواجهوا المشكلة اللهم إلا باستثناء ذوي النزعة العملية منهم)، أن اليابان كانت جديرة بتصنيفها بين الدول الصناعية (مجموعة السبع The G7) والسؤال هو: كيف يتلاءم هذا الترقيع في المرتبة مع النظريات الراهنة ومع التحيزات الرائجة حالياً؟ كان الافتراض أولاً يتعلق بوضع استثنائي ياباني. ومع نهاية الخمسينيات كان الباحث يطرح السؤال على النحو التالي: لماذا نشأت الرأسمالية الصناعية الحديثة في مجتمع آسيوي واحد (اليابان) وليس في مجتمع آسيوي آخر (الصين)؟. وبعد ذلك بعشرين عاماً كان يتعين على عالم اجتماع آخر يتبع هذا النهج الكلاسيكي أن يسأل من جديد: لماذا كانت اليابان هي «البلد الوحيد غير الغربي الذي أصبح دولة صناعية كبرى؟». وظل السؤال الكامن وراء هذه الدراسة يتمثل باستمرار فيما يكمن وراء كثير من أعمال فيبر وماركس. وبعبارات بارسون (Parson): لماذا لم تتطور الحضارات الشرقية قط إلى حيث الرأسمالية؟ أما الرؤية الجديدة، فتتمثل إلى حد كبير منذ أيامهما في أن اليابان، وقد أصبحت قوة عظمى. فكيف يمكن تفسير ذلك باعتبار أن «الاستثناء يؤكد القاعدة»؟

وبالنسبة إلى الكثيرين في الغرب، يستوي في ذلك العلماء والجمهور العام، فإن الإجابة عن السؤال العام تكمن في الاختلافات الاجتماعية - الثقافية في طبيعة مجتمعاتهم التقليدية، سواء كان ذلك في «نظام القيم» (Value System) أم في هيكل العائلة أم في عامل آخر أم مجموعة من العوامل بمعنى الاختلافات الداخلية. وعندما طرحت للتحليل حالة اليابان كان البحث يتعلق بأوجه التماثل بين اليابان وأوروبا الغربية. ومن ثم الاختلافات بين اليابان والصين التي لم تكن في ذلك الوقت قد اتضح تطورها على المسار نفسه. ويقول مولدر (Moulder) إن الاختلافات بين الصين واليابان لم تكن واسعة بشكل جلي. فالذي خلق الاختلافات كان الموقع النسبي لكل من اليابان والصين في الاقتصاد السياسي للعالم. وفيما كانت اليابان مستقلة ذاتيا بصورة نسبية ويمكنها من ثم التكيف مع الأحوال الجديدة، كانت الصين، شأنها في ذلك شأن معظم العالم، خاضعة كما يقال للرأسمالية الأجنبية ومحصورة ضمن «نظام عالمي يفيد الآخرين بصورة غير متناسبة».

والمشكلة إزاء هذا المنحى من التفكير تتمثل في أنه بينما يعترف بأوجه التماثل الداخلية فإنه يبالغ في إبراز أوجه التماثل الخارجية. لأن المشكلة نفسها تستبعد التفسيرات «الخارجية» لنظرية النظم العالمية (التي طورها فالرشتاين Wallerstein) بما ينال من التفسيرات الداخلية التي تقول بها نظرية فيبر. وكلتا المحاولتين أصبحت موضع نقاش حاليا لا بالنسبة إلى اليابان فحسب، ولكن أيضا من واقع تطور المجتمعات الخارجية الصينية في هونج كونج وتايوان وسنغافورة، ثم كوريا (وإن لم تكن صينية بالمعنى نفسه). وكل هذه المجتمعات خضعت لـ «سيطرة إمبريالية»، وتمتلك كلها ثقافة مماثلة لثقافة البر الصيني التي طبقا لمولدر لا يمكن أن تأخذ بأسباب التصنيع إلا بخضوعها لحركة شيوعية ثورية تمضي إلى تفكيك الروابط الخارجية. وقد أثبتت الأحداث بما فيه الكفاية خطأ هذا المنحى من التحليل.

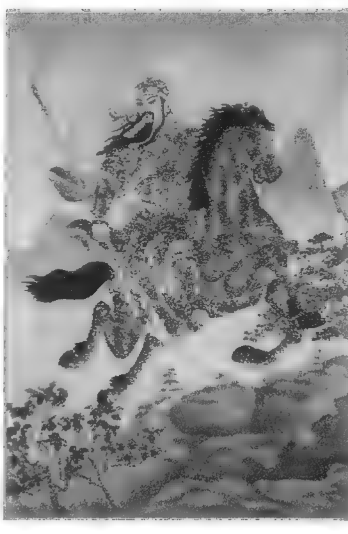
ولقد طرح آخرون مزيداً من الأسباب «الثقافية» (Cultural) ومنذ زمن قال عالم الاجتماع بيلاه (Bellah)، متبعاً في ذلك خطى بارسون وفيبر، بأن النوازع الدينية - الأخلاقية في اليابان قبل مرحلة الإصلاح في عصر ميجي (Meiji) هيأت دافعاً مماثلاً لما فعلته الحركة البروتستانتية في الغرب. وهذه الأطروحة تبناها كتاب يابانيون مثل موريشيما (Morishima) الذي يقول بأن الثقافة اليابانية، ولاسيما في ديانتها، تفسر هذه الإنجازات الاقتصادية المرموقة. لكن ها هي الغايات المستهدفة وقد تم تحريكها من جديد. فبعد عشر سنوات، ومن منظور سياسي مختلف جاء برغر (Berger) ليضم كل شرق آسيا ويصفه بحالة ثانية تولد عنها «نوع أو نموذج جديد من الرأسمالية الصناعية». وهذا النوع يتفاعل في ظل نظم «غير ديمقراطية»، وفي إطار ثقافات «غير فردانية». ويقرب من هذا المفهوم الذي يتحدث عن الشكل الجمعي البديل من الرأسمالية على نحو ما طرحه عدد من الكتاب مثل ريدينغ (Redding) ورودنر (Rudner) وغيلنر (Gellner). وبمعنى آخر، فهذه النظرية التي تقول بنوعين من الرأسمالية، أحدهما غربي، والآخر شرقي، تعني أنه فيما كانوا عاجزين عن اتباع «طريقنا» فقد أسسوا طريقاً خاصاً بهم. ومع ذلك، فالدلالة تبقى بأنهم ظلوا غير قادرين على التحديث بسبب خصائص هيكلية عميقة يتصفون بها. وذلك مفهوم يحتاج إلى تمنيد

والواضح أن المنجزات المتفوقة للغرب لم يعد ممكنا النظر إليها بوصفها دائمة، ولا على أنها حتى ملامح مستمرة لتلك الثقافات. بل إنها نتيجة أحوال متباينة تأثرت بها تلك المجتمعات على مدار الألف سنة. وأبسط مخطط لنظرية ما لا بد من أن يبدأ بقبول البديل. ويبقى من ثم بطبيعة الحال المشكلة التي تتمثل في تفسير تصدر الغرب للمسيرة خلال الفترة الفاصلة بين عصر النهضة والمرحلة الراهنة. لقد أنجزت أوجه تقدم باهرة كانت إرهاصاً بالفترة الحديثة، وكانت النتيجة تفيد بأن النظم الأوروبية للإنتاج الصناعي وللنشاط الثقافي (المدارس والجامعات) وللرعاية الصحية والتنظيم البيروقراطي الحكومي، فضلاً عن درجة ملحوظة من الإنجاز «الثقافي»، أكدت ذاتها، ولكن مع إضفاء تعديلات عليها، في طول العالم وعرضه.

لست أنكر بوضوح أهمية هذه الأحداث والإنجازات المرتبطة بعصر النهضة في تاريخ العالم، أو ما ارتبط منها أيضاً بالثورة الصناعية وما في أعقابها. على رغم أن المقارنات بين الشرق والغرب في المراحل الأولى. فضلاً عن بعض الشكوك المتعلقة بصياغة مثل هذه التصورات، قد أفضت بي إلى تساؤلات كان من حقي إثارتها؛ وتتعلق تحفظاتي الرئيسية بطبيعة تفسيرات هذه التغيرات وما ترتب عليها من آثار. لا بالنسبة إلى علم الاجتماع فقط، ولكن بالنسبة أيضا إلى تصورنا لأنفسنا وللآخرين. هذه التحفظات ترتبط بطريقة فهم التغيرات وما أعقب ذلك من عمليات «تطور» شهدتها أنحاء أخرى من العالم. وكثيرا ما يصعب التوفيق بين معتقدات الطرف المتطور (وتلك نتيجة طبيعية لمهمته) في ضوء مرونة النظم الاجتماعية الأخرى. وبين الاعتقاد التاريخي السوسيولوجي في المعوقات الهيكلية العميقة. ويبدو الجانب الأخير وكأنه تكتمه حقيقة أنه فيما كان يتعين على «التطور» الاقتصادي أن يمنى بنكسات في أجزاء من العالم (أفريقيا على سبيل المثال)، فقد شهد شرق آسيا تغييرات كبرى في الميادين التجارية والصناعية، فضلا عن مجالات أخرى من العمل.

وثمة اتجاه ظل يقصي بإضفاء قدرة التحديث على أوروبا، وما على الآخرين سوى أن ينسخوا هذه القدرة. ويمكن لهذه المقولات أن تطبق أيضاً على الغرب. كذلك فقد قيل عن الحياة الاقتصادية في أوروبا - القرون الوسطى «إن ما جعلها وضعا استثنائياً لم يكن قدرتها على الابتكار بقدر استعدادها على أن تتعلم من الآخرين وتهيئها للتقليد والمحاكاة، وقدرتها على أن تتقبل استخدام الآلات أو التقنيات التي سبق اكتشافها في أنحاء أخرى من العالم مع تطويرها إلى درجة أعلى من الكفاءة، ثم استغلالها لتحقيق أغراض مختلفة وبدرجة أعلى بكثير من التركيز». وهذا الرأي الذائع يفترض حدوث انطلاقة جدرية لم يكن غير الغرب من هو قادر على تحقيقها، ولكن «التحديث» يشكل عملية متواصلة. وهي عملية شاركت فيها مناطق في العالم، وكل في دوره بالتناوب، وليس هناك طرف واحد يحظى بمفرده بملامح فريدة ذات طابع دائم بما يمكنه دون سواه من الابتكار أو من أن يضفي تغيرات ملموسة من قبيل الثورة الزراعية. والأمر المحوري هنا أن النوع نفسه من التفسير لابد من طرحه ليبرر التفوق الذي سبق إليه الشرق بقدر تبرير منجزات الغرب في المراحل اللاحقة سواء بسواء. وهذا الأمر لم يحدث، فمازالت الأوساط الأكاديمية تتعثر في نظرياتها السابقة وليست على استعداد بعد للتخلي عنها. ولست أحاول توصيف صعود الغرب ولا أن أعرض لما يمكن أن يوصف بأنه صعود الشرق، وليس هذا في قدرتي، ولكن عزمي يتمثل في إعادة تقييم النهج التي يجب أن نتبعها في التعامل مع هذه القضايا من خلال التساؤل عن كفاءة مهمنا لعقلانية الغرب وتجارة الغرب، وللأسرة في مجتمع الغرب، وللطريقة التي تتصل بها هذه القضايا بالعملية التي نطلق عليها أوصافاً

التناقض بين أوروبا وآسيا وما أعقبه من الحط من مكانة الشرق ما لبث أن اتخذ جذوره في مرحلة مبكرة في تاريخ الغرب



خصائصه من قبيل «التحديث» (modernisation) أو «التصنيع» (Industrialisation) أو «الرأسمالية» (Capitalism).

وفي ضوء ما سبق من منجزات، وما لحق من أشواط من التقدم، فإن ما أراه قصوراً إنما يتمثل في أي نظرية تدعي أنها انتهت إلى عنصر ما «هيكلي» في آسيا حال بعمق بين هذه التطورات وبين الحدوث، أو أدى في أوروبا إلى تعزيز حدوثها. ولدى النظرة إلى أوروبا، وإنجلترا تحديداً، فإن شعورنا الطبيعي بالتركيز على التراث غالباً ما أفضى بنا إلى افتراض أولوية على المستويات الاجتماعية الثقافية العميقة، بينما تظل القرائن التي تدعم هذا المنحى إما ضعيفة أو معدومة تماماً. إن أسباب المنجزات سواء في الشرق أو الغرب ترتبط أكثر بظروف حدوثها، ما يترك المجال لطرح كثير من الأسئلة وكثير من الإجابات، ولكن بأسلوب أكثر تخصصاً وأقل تركيزاً على الذات مما يتم في أغلب الأحوال.

ومن حلول المشكلة ما يكمن في النظر إلى حقبة أوسع من تاريخ العالم تبدأ من عام ١٦٠٠ للميلاد إلى اليوم، ثم تعديل التركيز الذي توليه كثير من تلك النظريات للأحداث التي شهدتها أوروبا الغربية. وللقيام بمثل هذه المراجعة الواسعة النطاق لتدارس الأسباب المحددة للتفوق الغربي، فإن هذا يتجاوز نطاق الدراسة الراهنة. وقصارى ما أرجوه هو مناقشة كثير من الافتراضات الحالية بشأن الطابع الفريد للغرب، ومن ثم طرح الأساس الذي يمكن أن تقوم عليه النظريات التفسيرية الأعمق، فضلاً عن تهيئة السبيل إلى فهم أفضل. وعلى نحو ما يلاحظ برغر، فما كان ينظر إليه في السابق على أنه عقبة أمام التنمية، وهو الكونفوشيوسية، أصبح ينظر إليه الآن على أنه عامل تيسيري للتنمية. وها هي البوذية الماهايانية (Mahayana Buddhism) تنضم إلى الصف باعتبار أن «عبقرية العقل الصيني» نجحت في تغيير ديانة تنكر العالم بصورة راديكالية لتصبح ديانة تؤكد العالم بصورة أساسية». وثمة عناصر مؤكدة من التراث الغربي (وفي مقدمتها الفاعلية الحركية والابتكارية العقلانية والانضباط الذاتي) بات ينظر إليها الآن على أنها عناصر تنتمي إلى حضارة شرق آسيا سواء على مستوى الأعراف الرفيعة أم في الثقافة الشعبية. أما النزعة الفردية على النموذج الغربي، وهو موضوع مفضل كثيراً لدى علماء الاجتماع والمؤرخين، فلا تدخل ضمن هذا السياق ولا يتصور برغر أن هذا العنصر جوهري على الرغم من أنه قد يتبدى وكأنه نتيجة متحققة. وفي أي حال فقد أصبحت الشبكة واسعة لكي تصطاد عدداً كبيراً من الأسماك. وفي ضوء حقيقة أن أجزاء من جنوب شرق آسيا تتبع نمط شرق آسيا، فقد أصبح من المتعين طرح أسئلة مماثلة بشأن القيم الإسلامية في ماليزيا. وعندما نتابع إلى جنوب آسيا سوف ينطبق الأمر بسرعة على الهندوكية واليانية والسيخية فتدخل كلها ضمن إطار الصورة، ولا يبقى ممكناً استبعاد كلها أو بعضها من بين «ديانات العالم».

بالنسبة إلي يبدو هذا صحيحاً، فالتفسيرات «الثقافية» لصعود الغرب تفسيرات تحفها المشاكل. وينطبق الأمر أيضاً على كثير من التفسيرات «المؤسسية» (Institutionalist) وفي كلتا الحالتين، فإن طابع «الميزة النسبية» (Comparative Advantage) الذي ينسب إلى هذه المجموعات من العوامل يظل بحاجة إلى إعادة فحصه بكل دقة، وبعض هذه العوامل أوردتها في كتابي هذا ابتداءً من العقلانية، ومن ثم إلى مسك الدفاتر، ثم إلى مستويات التجارة وقت التوسع الأوروبي، وطبيعة الأسرة وغيرها من التجمعات التي كانت مشاركة في التجارة، ثم في الصناعة.

وأخلص من هذا كله إلى أننا بحاجة إلى إعادة النظر في تداخل الشرق مع الغرب. ولأطرح مثالاً على ذلك، ولدى متابعتي تراث الإنسانيات ولو بصورة وثيقة. فقد قلت بداية إن للغرب «ميزة نسبية» ترجع إلى تطوير تعلم الهجائية الأبجدية في اليونان. ومع ذلك، فأنا أنظر الآن إلى هذه الحجة ليس على أنها معيبة فقط، بل على أنها مبالغ فيها. إن كثيراً من الإنجازات التي ارتبطت بحروف الأبجدية كانت متاحة كذلك للذين كانوا يستخدمون الرسومات أو غير ذلك من نظم الكتابة. وفي مراحل ما قبل الصناعة، لم يكن تعلم القراءة والكتابة يتسم بالأهمية نفسها لمعظم الأغراض. وعلى أي حال، فإن مستوى القراءة والكتابة في المجتمعات التي لم تكن تمتلك أدوات الحروف الهجائية كان يحظى بأهمية ضئيلة، من دون أن يؤثر ذلك في الأهمية الاجتماعية الثقافية للكتابة بحال من الأحوال، ولكنه يؤثر بالقطع في طريقة رسم الخطوط الفاصلة بين الشرق والغرب في سياق الكتابات.

ومن المشاكل التي لا تلبث تواجه الدارس ما يتمثل في نوعية النظرة الثنائية التي تتعامل مع العالم وتقول بطريقة أو بأخرى أو تومئ إلى أن هناك نوعين من المجتمعات: مجتمع حديث ومجتمع تقليدي، أو مجتمع متقدم وآخر بدائي، ساخن وبارد، رأسمالي، صناعي في مواجهة ما قبل رأسمالي، ما قبل صناعي، عالم أول ثم عالم ثان سابقاً مقابل العالم الثالث. تلك هي الحالة حتى بالنسبة إلى كثير من علماء الأنثروبولوجيا، وهؤلاء المهتمون بما يمارسونه من أعمال ميدانية متعمقة لابد من أن يطرحوا سلسلة من المقارنات الثنائية ولو على نحو غير مباشر بين ما يعرفونه بشأن الأشانتي (Asante) في غانا مثلاً، وبين المجتمع الأوروبي الذي جاءوا منه أو العكس. وعلى مستوى عام تنحو النتائج إلى أن تصاغ على أساس فئات ثنائية (بين البسيط والمركب وهلم جرا). ويبدو لي أن ثمة قلة، بل قلة ضئيلة، من السياقات التي يمكن أن يفيد فيها مثل هذا التقسيم، وخاصة عندما يشهد المرء حالة يكون فيها الأفراد والجماعات، بل المجتمعات ذاتها أيضاً، قد تحولوا من فئة إلى أخرى. وحتى إذا كان مثل هذا التقسيم مقبولاً (ونحن مضطرون بوضوح لإجراء بعض التصنيفات العريضة)، فمن الخطأ الواضح إدراج مجتمعات كبرى في آسيا أو في أفريقيا ضمن الفئة نفسها، وهو خطأ سواء من وجهة التطور المعاصر أم من ناحية تاريخ الثقافات.

وعلى الصعيد الثقافي، نحن نعلم أن تصنيفاً من هذا القبيل يفتقر إلى الكثير من الدقة، كما أنه لا يفيد سوى في أغراض قليلة للغاية. وعلى مستوى الممارسة، هو جزء من مخزون من المفاهيم الفولكلورية، ولكن المشكلة الرئيسية التي نواجهها في الحوار المطروح لا ترتبط كثيراً بالتقسيمات الثنائية، ولكنها ترتبط بأساليب أكثر تعقيداً، وإن لم تبلغ من الصقل والدقة ما نبتغيه من حيث فصل الحضارات الشرقية الكبرى عن حضارتنا. وكم رفضت هذه الأنماط من الرؤى التي إما أنها تنبثق عن نهج الثنائيات أو عن نهج المراحل، لا بمعنى عام أو ثقافي، ولكن بحكم تحريتي الخاصة في آسيا وأفريقيا ومع هاتين القارتين. وعليه، أستطيع فقط وباختصار أن أوضح كيف أن توسع منظور آخر أن يطرح بعض الأساليب التي تبين ضلالة النقاشات السابقة، لأن التقييم الخاطئ للأوضاع النسبية على نحو ما هو الحال بين الشرق والغرب يؤثر كذلك في فهم الغرب ذاته لنفسه. ■

بين أركون والجابري

شربل داغر

■■ تتعين كل ثقافة، في عهودها المختلفة، في ألفاظ بعينها، ولاسيما في التي تكون خميمة الحمولات عند تبنيها، ثم يقبل القارئ عليها إقبال المطمئن إلى شرفة متينة وكاشفة. لفظ «التراث»، الذي يرد في عنوان كتاب الدكتورة نايلة أبي نادر (فضلاً عن المدونة التي تدرسها)، واحد من هذه، وله كيانه المخصوص في الثقافة العربية المعاصرة. لفظ - عماد: يستعاض به عما يتحدث عنه، فيما يخفي بقدر ما يظهر، العديد من الإشكاليات التي تشغل «رهانات المعنى»، فضلاً عن قلقه طبعاً. وهو لفظ - لو دقق القارئ - قد يقترب مما تسميه اللغة الإنجليزية أو الفرنسية في لفظي (Heritage) و(Patrimoine)، لولا أن هاتين اللغتين تطلبان من اللفظين تعيين الممتلكات المادية، فيما تطلب العربية من لفظها المستحدث تعيين الممتلكات «العقلية» (لو طلبتُ الاختصار). ولو تتبع القارئ مسار الألفاظ لتحقق كذلك من أن ما يشير إليه اللفظ العربي كان يمكن أن تسميه الإنجليزية أو الفرنسية بلفظي (Past) و(Passé)، فيما لا تعيره العربية المستعملة في الكتابة المعاصرة اهتماماً يذكر.

ذلك أن ما تسعى إليه هذه الكتابات يوضحه الدكتور محمد عابد الجابري، بل يميزه عن حمولات لفظ آخر (هو «الميراث»)، مشدداً على أن ما يطلبه لفظ «التراث» هو تعيين أقرب إلى أن يكون «حضور الأب في الابن، حضور السلف في الخلف، حضور الماضي في الحاضر». وهذا يدعو إلى السؤال: كيف يحدث ألا يكون الماضي (والماضي القريب واقعاً، ومن دون غيره)





أركون

الجابري

ماضياً، أي مصنفاً ومرتباً في التاريخ؟ كيف يحدث أن مثل هذا الماضي مطلوب، بل إن له فاعلية منشودة يمكن اختصارها بأنها إلحاحات الجد في تمثلات الحفيد لما كان عليه، بل لما يطلبه منه؟

طلبت أبي نادر درس «التراث والمنهج» في كتابات المفكرين الجابري ومحمد أركون، في مواجهة نقدية اتخذت شكل المقارنة، وتعينت في علاقات العقل بالخطاب في المقام الأول. وما درسته كان يمكن أن يتركز في السؤال الفلسفي أو التاريخي، فيما تعين - على ما يتضح في الكتاب - في مساعي «التفسير» (على اختلافها وتنوعها، بين إسلامية قديمة، ومعاصرة في خطابات علوم الإنسان والمجتمع). فماذا عن العقل والخطاب؟

ما عنى الباحثة في كتابها تحدد في مسألة المنهج خصوصاً، على أنها ما يضيء العلاقات بين العقل والخطاب، كما تتبدى في كتابات أركون والجابري. وهي، لهذا الغرض، استقصت في البحث عن كتاباتهما، فضلاً عما كتب عنهما، ما يعد في حد ذاته مدونة ثمينة، تظهر المجهودات الكبيرة التي بذلها هذان المفكران - وهما ناشطان في التأليف حتى أيامنا هذه - في نطاق اشتغالهما المشترك (الذي يفيض عن معنى الماضي ليتناول أيضاً النظر السياسي في الراهن). وهو لقاء بينهما طلبته وحققته بعد أن تنبهت إلى أنهما يجتمعان فيما يختلفان عليه، فبادرت إلى جمع مدونة اللقاء وأجرته، وبالعمل معهما أيضاً في لقاءات جانبية استكملت بها «معاشرتها» (كما تقول) لنصوصهما. فهما يجتمعان في النطاق عينه تقريباً، مع بعض تعديلات في الحدود: إذ تذهب مساعي أركون صوب متون وثقافات أخرى، مثل المسيحية تحديداً، الماضية أو المعاصرة.

هكذا تناولت في كتابها، في ثلاثة أقسام كبيرة، «خصوصية المنهج» عند أركون (في القسم الأول)، ثم عند الجابري (في القسم الثاني)، مخصصة القسم الثالث والأخير لإجراء مقارنة بين حاصل الجهدين في الميادين المختلفة (بين دينية وسياسية وغيرها)، من دون أن تهمل «تلقي» المشروعين في الفكر المعاصر.

يجمع بين أركون والجابري، ابتداء من عناوين كتب لهما ومن استهداف خطتيهما التأليفية، «نقد العقل»، ثم يختلفان. إذ يلصق به أركون الصفة - المحدد: «الإسلامي» والجابري: «العربي». وقد يجد بعض الدارسين في مثل هذا الاختلاف مجالاً لتوسيع الشقة، واختلاف النظرة بينهما إلى موضوعهما المشترك. وفي هذا وجوه أكيدة من الصحة. إلا أن تباينهما قد لا يكون تبايناً واقعاً. إذ يشير عند أركون إلى جهة من التعريف بالعقل، وهي أنه عقل متشكل في سياق التجربة الإسلامية، ويشير عند الجابري إلى جهة أخرى من التعريف بالعقل، وهي أنه تعين بالعربية، لغة وقواعد وغيرها.

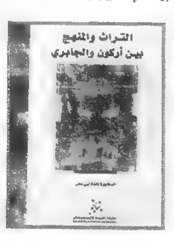
ومن المؤكد أن تباينهما في التعريف يتأتى كذلك من جهة أخرى، وهي جهة المتلقي نفسه والخطاب الموجه إليه: إذ يتوجه الجابري إلى المتلقي العربي تحديداً من دون غيره (ما يتمثل عنده بدعوته إلى القومية العربية)، ويتوجه أركون (وهو الكاتب بالفرنسية أساساً، وبالإنجليزية أحياناً، والمنقول إلى العربية) إلى المتلقي العربي والإسلامي وغيره (ما يقترب من مشروعات سياسية مثل الحداثة والعلمانية والديمقراطية). وما يستوقف في حالتيهما هو أن الجابري يقترب من الفلسفة (في تعبيراتها الكلاسيكية، وإن تحدث عن «الحفر» أحياناً)، فيما يقترب أركون من التاريخ (ولا سيما في أطروحته التي صدرت في كتاب عن ابن مسكويه)

قال نيتشه: «بأقوى ما في الحاضر من قوة علينا أن نفسر الماضي»، وهو ما سعى إليه المفكران، وإن تفاوت مسعاهما. حيث إن عمل الجابري اجتهد في تصنيف المعنى (بعد فحص ونقد)، فيما اجتهد أركون في زحزحة مرتكزات المعنى. وإذا كان الجابري توصل إلى خلاصات مبتكرة ومغرية في آن، فإن ما باشره أركون رسم أوضاعاً متجددة للسؤال نفسه، التي لها أن تكفل قيام المعنى قبل أن تبنيه. ولهذا يبدو مشروع الجابري «مكتملاً» (وهي صفة قد يجدها البعض إيجابية، والبعض الآخر سلبية)، ومشروع أركون «مفتوحاً» (وهو ما يقال في هذه الصفة أيضاً).

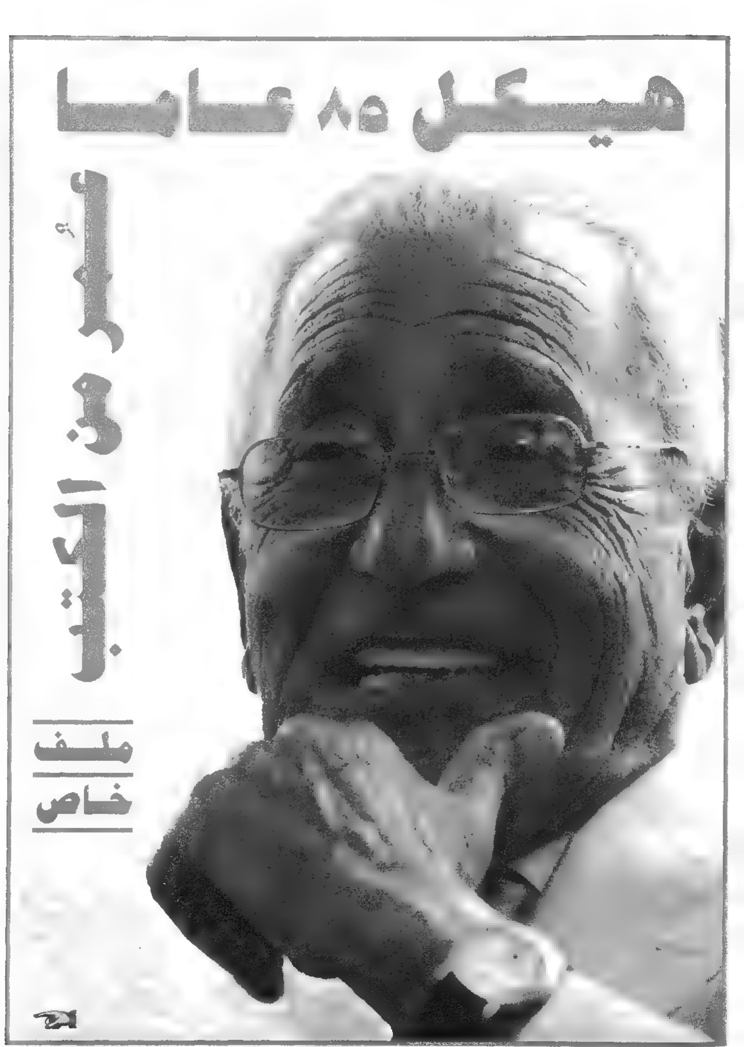
ويمكن القول بأن مسعاهما يشكل أوسع تجربة كتابية، بعد مساعي طيب تيزيني وحسين مروة وأدونيس وحسن حنفي وغيرهم، في هذا النطاق، فضلاً عن سعيهما إلى تمكين خطابيهما من أسس ومرتكزات تجعل الخطاب يمكر فيما يقوم به قبل أن يقدم عليه. وما يمكن أن يشار إليه في هذا النطاق هو أن هذين المسعيين ما كان لهما أن يقوما لولا حاصل الدراسات الاستشراقية والغربية عموماً، وهو ما يضمره الجابري وإن كان لا ينكره، وهو ما يعلن عنه أركون في نوع من التفاعل البنائي الصريح. هذا ما يجعل من هذين الإسهامين - على الاختلاف بينهما، وبيننا وبينهما - جهداً مزيداً في إدخال التاريخ الإسلامي وقضاياه في «التاريخية».

ولكن هذا لا يمنع من طرح السؤال، بل من القول: ما كان له أن يكون في «ذمة التاريخ»، أي مركوناً في ماضويته، تحول إلى شاغل راهن، ومقلق؛ ومن طلب المقارنة في هذا النطاق تنبه إلى أن انشغال هؤلاء المفكرين بسؤال الماضي وبمساعي تفسيره لا يخفف أبداً من «ظلامية» مسألة المعنى في السياق الإسلامي الراهن. وما كان له أن يكون محل تاريخ وتصنيف، في عداد العلوم والمقاربات القديمة، انتهى إلى أن يكون سؤال الراهن. وما كان له أن يشغل جهود الكاتبين، في نطاق «رهانات المعنى» (أي تمكين الكتابة من السؤال، من شروطه، من قيام علله وأسبابه) اختفى، بل يبدو خفيف الحضور والفاعلية في البحث العربي، بدليل إقدام جامعات عديدة على شطب «الفلسفة» من أقسامها الجامعية (وهو ما يشمل «الجمالية» بدورها في معاهد الفنون وكلياته).

كتاب الدكتورة أبي نادر وفر للقارئ العربي قراءة جامعة ودقيقة ومعمقة لمشروعي أركون والجابري، ولما يتعداهما (بما فيه المحجوب فيهما)، بما يجدد السؤال الذي تنهي به كتابها: «وتبقى الحداثة الهدف المنشود». ■



التراث والمنهج
بين أركون والجابري
الدكتورة نايلة أبي نادر
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر


هيكل ٨٥ عاما
عُمر من الكتب
ملف
خاص



"نون"

سلامة أحمد سلامة



عرفته عن قرب بعد أن تجاوز فى مسيرته الباذخة مرحلة «الأهرام»، واضطر إلى التخلى فى أواخر السبعينيات عن رياسة هذا الصرح العريق، عندما أراد السادات أن يجمع بين يديه كل الخيوط والولاءات، ويسلك طريقاً مختلفاً غير الذى سلكه عبد الناصر.. ترك هيكل الأهرام بعد أن كان قد أعاد تنظيمه وتأسيسه على أحدث الأساليب فى عالم الصحافة فى ذلك الوقت، وتشكلت تحت رياسته وبرؤية نافذة على مقتضيات العصر، مؤسسة قوية متكاملة الأركان، تضم أفضل العقول والكفاءات فى دنيا الصحافة.

فى ظل رياسته للأهرام كنت محرراً عادياً بين عشرات، لا تتجاوز معرفته بى - على الأرجح - ما يقرأه وما أكتبه على صفحات الأهرام فى الشئون الخارجية، ولم أكن فى كل الأحوال من دراويشه ولا حديث عهد بالعمل الصحفى، فقد جئت من نفس المدرسة الصحفية التى تخرج منها.. من أخبار اليوم. وكان هو فيها نجماً ساطعاً، يرأس تحرير «آخر ساعة» و«أخبار اليوم» ولم يبلغ الخامسة والعشرين. ويطوف العالم مراسلاً متجولاً يغطى معارك ما تبقى من ذيول الحرب العالمية الثانية، فى اليونان، وفى كوريا، لتحل النكبة الفلسطينية فتتقدم على كل ما عداها من اهتمامات. من بداياتها المثيرة الغامضة إلى فصولها الملتهبة الدامية. ويصول ويجول كمحرر للشئون السياسية فى دهاليز الحياة المصرية المضطربة.. بمؤامرات القصر، والاعيب الأحزاب والزعامات.. ليكون من حسن حظه أن يلتقى بضباط ثورة يوليو فى فجر اختمارها ونشوبها، ويدرك بغريزته الصحفية: أين ومن تكمن عنده مواطن القوة والزعامة، وأسباب الضعف والخلل فى هذه الحركة التى غيرت وجه الحياة فى مصر تغييراً شاملاً، من حيث لا يدرى أحد ولا يتوقع! وقلبت معها موازين الأوضاع فى العالم العربى والشرق الأوسط وعلاقاته مع العالم.

لم يتوقف هيكل عن نشاطه الصحفى والإعلامى بعد أن ترك الأهرام، ولكنه واصل مسيرته متجاوزاً بذلك مواقف معظم الصحفيين والسياسيين وأصحاب الرأى الذين تتعثر بهم مسالك السلطة وأنواء السياسة. فينكمشون فى ظلال المجهول، يحاربون فى الظلام طواحين اليأس والتجاهل والإقصاء، ولا يتجاسرون على مواجهة الأضواء والإفصاح عن أسرار الحقبة التى شاركوا فيها بالمساندة والتأييد. على عكس ما حاول هيكل أن يفعله جرياً على عادة كبار الصحفيين والمفكرين فى الغرب، وكان عليه أن يدفع الثمن!



ربما فى هذه الفترة اقتربت من هيكل بأكثر مما كان متاحاً من قبل.. ففى هذه المرحلة خرج هيكل من الدائرة العنكبوتية للسلطة والتزاماتها التى تفرض التزاماتها على كل من يقترب منها، فى بيئة إقليمية ودولية لم تكن حرية الرأى والتعبير قد وجدت طريقها حتى فى أعتى الديمقراطيات العربية التى خرجت من الحرب تعيد تنظيم حياتها. وهو يجلس فوق مخزون هائل من التجارب والصلات، والصداقات والعداوات، والأسرار والوثائق والحكايات.. التى كان يجمعها بدأب وإصرار لا يشبهه غير دأب النحلة أو النملة تجمع زادها ورحيقها بكل الحرص والمثابرة. ليعيد غزل الخيوط والحقائق والأفكار فى سلسلة من الكتب والأحاديث والحوارات، التى لم تلبث أن اقتحمت ميدان الميديا الإلكترونية والفضائية من أوسع أبوابها عن طريق التليفزيون، الذى وجد «مع هيكل» كنزاً لا ينفد، ومعيناً لا ينضب، لكى يعيد بناء الماضى على أطلال الحاضر، أو ينقب عن خسائر الحاضر فى أطلال الماضى، ويلقى

إذ نحتفل مع الأستاذ ببلوغه الخامسة والثمانين.
تبحث المهنة واجيالها عن القدوة والمثل. عن الكاتب الذى يؤمن بأن خلاص المهنة يكمن
فى الارتقاء بمستوى أبنائها إلى المستوى العالمى



الضوء على جذور المشاكل واحتمالات المستقبل.

لم يقطع هيكل صلاته بأصدقائه فى الخارج وتلاميذه فى الداخل، ولم ينطو على نفسه خوفا وطمعاً كما فعل كثير من المفكرين والسياسيين فى عالمنا العربى. وأكبر الظن أن ما لديه من معلومات وأسرار ومن قدرة فائقة على الوصول إلى مظانها، قد وفرت له مظلة من الحماية. وذلك حين تصبح المعرفة وقاء من العسف والملاحقة!!

فى هذا العصر الحافل بالاحداث والمتناقضات والمفاجآت، عاش هيكل ومارس مهنته وفرض شخصيته، وتطور وتغير وتبدل شأن كل كائن حى مع المتغيرات والاحداث والحروب والصراعات، بكل ما تحمله من تجارب إنسانية مبهجة أو مؤلمة، وعاشت فى جواره أو بالموازاة له اجيال من الصحفيين.. كانت ومازالت تراه دائماً فى المقدمة، نبراساً ومعلماً ومثلا أعلى للصحفى الذى يحترم مهنته وقلمه، يتحرى العلم قبل أن ينطق، ويفكر قبل أن يكتب، ويبحث عن الصدق قبل أن يشهد، ويراعى مقتضى الحال كلما كان ذلك لمصلحة أسمى، ولا يتردد فى الإفصاح والتحذير كلما رأى أمواج الخطر تعلو فى الأفق، ليظل قامة تعلو على قامات كثيرة هادنت أو هربت أو دجنت!!

كثيرون ظنوا عن خطأ وسوء فهم، أن الثبات على فكرة أو رأى أو مذهب هو الخط الذى ينبغى ألا يحيد عنه الصحفى أو المفكر، وأن الولاء للشخص أو النظام يجب أن يعلو على حرية الفكر فى مسلمات لا تقبل المناقشة.. ومثل هذا الثبات والتمسك الأعمى هو الجمود بعينه، بل هو الذى يفضى إلى الهلاك والزوال. ومعظم الذين ينتقدون هيكل الآن، وهو يتحدث عن الحاجة إلى إطار جديد للشرعية القائمة للحكم لا تقوم على شرعية الرجل الواحد، لا يكفون عن تكرار حجة بليدة.. وهى لماذا يبحث هيكل عن التغيير فى عهد مبارك وقد كان من معارضيه فى عهد عبدالناصر؟ وهو سؤال لا يحتاج إلى إجابة، فما كان صحيحاً أيام عبدالناصر قبل نصف قرن لم يعد من الممكن تكراره اليوم. ومن ينكر ذلك فهو لا يدرك حقائق العصر والعالم الذى نعيش فيه.

ولا يستطيع احد ان ينكر ان هيكل حين استأذن فى الانصراف، لم يكن ينصرف إلا عن الكتابة فى المدارات الضيقة والمعتمة التى حاصرته وحاصرت كتاباته واراءه فى الإعلام المصرى، ومع ذلك فقد بقى هيكل فى بؤرة الصحافة والإعلام أكثر من نصف قرن . فاعلاً ومؤثراً ومتأثراً، بل ربما أكثر حضورا واستشرافاً لآفاق التجديد والابتكار فى معظم مجالات الميديا الحديثة، وفنون الكتابة الصحفية.. من المقال إلى التقرير الصحفى إلى التحقيق فى العمق.. يستخرج الأسرار، ويجتهد فى تحليل أصعب المواقف المحلية والدولية، ويقدم رؤيته الثاقبة لحقبة من تاريخنا، ما كان للكثيرين أن يعرفوا دقائقها وأسرارها فى غير كتبه ومقالاته ووثائقه التى أجهد نفسه فى البحث والحصول عليها. من منا كان سيعرف شيئا عن أدق تفاصيل وخلفيات حرب السويس، وعن المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، وحرب الخليج، والأدوار الغامضة والمفضوحة للعروش والملوك والرؤساء، وحرب ٦٧ ثم حرب أكتوبر وما تلاها من صفقات ومساومات؟!

تلك حقبة تاريخية حافلة، صنعت حاضر مصر وتوشك أن تصنع مستقبلها، قدمها هيكل كما رآها وعاصرها.. ليس كمؤرخ ـ وهو يعترف بذلك ـ ولكن كشاهد عيان، يملك الحس التاريخى، والعمق الإنسانى، والأسلوب الأدبى الجزل. ولا أعرف حتى هذه اللحظة كيف كان يمكن للأجيال السابقة واللاحقة أن تعرف كثيرا من الحقائق التى حجبت وأخفيت عمدا، أو نتيجة الإهمال وعدم الاكتراث، لولا ما نشره هيكل؟!

هذا جزء من ذاكرة الوطن المصرى والعربى على اتساعه، فى أصعب وأدق فترة من تاريخه الحديث، يرجع الفضل لهيكل أن استنقذه من سراديب النسيان والإهمال، مهما يكن ما يقال وما لا يقال تهجماً واستنكاراً. ونحن نضيع الآن كنزا هائلاً من الوثائق التاريخية فى حرائق الشورى ودور المحفوظات المهملة، بينما ينعى البعض اختفاء وثائق الثورة ويتهم هيكل بالاستيلاء عليها.



وإذ نحتفل مع الاستاذ ببلوغه الخامسة والثمانين، تبحث المهنة واجيالها عن القدوة والمثل، عن المنارة التى تضىء الطريق، عن الكاتب الذى يؤمن بأن خلاص المهنة يكمن فى الارتقاء بمستوى ابنائها إلى المستوى العالمى، فينشئ «مؤسسة هيكل» لترعى أجيالاً طامحة لم تجد من يأخذ بيدها، متجرداً من المصلحة والمنفعة والأثرة، تبحث هذه الأجيال عن الإيمان بحرية الكلمة والرأى فى ظل شرعية دستورية يحميها القانون.

وكما شهدت مصر عصر قمم شامخة، من رموز الفن والأدب والفكر، من شوقى وام كلثوم وعبدالوهاب وطه حسين وثلة من الأولين الذين قادوا مسيرة الفكر والتحرر مازلنا نعيش على آثارها وأمجادها، فإن هيكل بكل ما قدمه إلى الصحافة والإعلام بمفهومه الحديث، يندرج حلقة فى هذه السلسلة الذهبية.. يتميز عنهم أنه يعبر معنا وبنا آفاق القرن الواحد والعشرين، دون أن يفقد القدرة على الامتداد والتحول والرؤية النافذة فى أعماق الحاضر والمستقبل.

ولا يملك المرء فى هذه المناسبة إلا أن يدعو له بدوام الصحة وطول العمر. ويكفينا رفقة الطريق ولو على البعد.. نحن الذين عشنا فى زمانه، وانتفعنا بثمرات عصر بأكمله!



هيكل عُمر من الكتب



كانت معلمتنا تطلب منا أن نلخص «بصراحة/هيكل» أسبوعيا، لتختار منا من يقرأ الملخص أمام الفصل كله في درس صباح السبت



أيمن الصياد



■ ■ كنا جالسين إلى شاطئ الخليج العربي.. عددٌ من المثقفين والمهتمين بالشأن العربي العام. كان المساءُ خريفيا مثل هذه الأيام، قبل خمسة أعوام كاملة. وكان «الكاتبُ» العربي الأشهر قد نشر قبل أيام فقط رسالة يستأذن فيها «قارئه» في الانصراف. كنا على الطاولة مشاركةً ومحاربة.. وكان الموضوع الأوحد ـ في جلسةٍ طالت من الغداء حتى قاربت موعد العشاء ـ هو الاستئذانُ وصاحبه. وكان ـ رغم تحفظٍ واجب أدركُ ضرورته وأحرص عليه ـ أن وجدت نفسي «بسبب اقترابٍ أتشرفُ به» في مرمى الأسئلة وعلامات الاستفهام: لماذا.. وكيف.. وماذا بعد.. ثم ماهو مستقبل «وجهات نظر»؟

يومها ولأن أحدا من الحاضرين لم يكن على استعداد لأن يتوقف ـ هكذا ـ عن «قراءة» هيكل، لم تكن أيٌ من الإجابات شافية... وكان هذا طبيعياً.

و يومها حكى لي المخرج السوري المعروف محمد ملص: كيف كانوا في مقتبل العمر، وحين لايكون في جيوبهم ثمن الجريدة، يقرأون «أهرام الجمعة» معلقاً عند باعة الصحف حتى لا يفوتهم ما كتبه «الأستاذ» في مقاله الأسبوعي «بصراحة».. تذكرت ساعتها وحكيت بدوري كيف كانت معلمتنا تطلب منا أن نلخص «بصراحة/ هيكل» أسبوعيا، لتختار منا من يقرأ الملخص أمام الفصل كله في درس صباح السبت. كانت الأيامُ غير الأيام.. وكان «الأهرام» غير «الأهرام».. كنا وقتها في الصف الخامس الابتدائي. وكان «هكذا مستوى» تعليم القراءة والكتابة والإلقاء.

في فصلٍ صغيرٍ في مدرسة «النصر» الابتدائية بالسنطة في قلب دلتا النيل كنا نقفُ لنقرأ «هيكل». وعلى قارعة الطريق في «القنيطرة» السورية، كان محمد ملص ورفاقه يقفون ليقرأوا «بصراحة».

ذكرتُ هذه القصة ـ قبلا ـ في هذا المكان.. وتذكرتُها قبل أيام حين جلستُ إلى «الأستاذ» أسأله ـ كعادتي.. قبل أن يسأل «الصحفي» فيه عن الأخبار. وتذكرتها حين وقفت أمام مكتبتي التي تحتل كتبُه ركنا أثيرا منها، محاولا أن أختار ماأعيد قراءته.. هنا.

والحاصل انه كما لم يكن سهلاً على ابن الحادية عشرة تلخيص «بصراحة» في تلك الأيام البعيدة، لم يكن يسيراً أبدا الاختيار بين مايزيد على الخمسين كتابا، دون الوقوع في محظور «اختزال غير مقبول» لتجربة بهذا الاتساع والثراء.



ليأذن لي القارئ أن أضع ماقرأته لهيكل.. وما سمعته منه.. في دوائر ثلاث:

١. مصر: وهي في القلب من هذه الأمة.. قدرا ومصيرا.. واستهدافاً، بصيرورة التاريخ وثوابت الجغرافيا.. رغم كل ما «طرأ».. وهو صحيح. وكل ما «كان».. ولابد من الإقرار به.

٢. «الأمة» بلغتها الواحدة، ودينها الجامع.. أين صارت في عالم وإن بدا جديدا في ملامحه، إلا انه ككل حفيد فيه من ملامح الأجداد سمات وتقاطيع. وموروثات.. بل «جينات» لا فرار منها.. كذلك يعلمنا كما يقرئنا التاريخ.

٣. عالم نعيش فيه: محيطا مهما اتسع تطالنا أمواجه إن تلاطمت. وتتوه فيه سفننا بل قد تغرق إن لم نبحث جادين عن ضوء نجم هاد، أو شعاع فنارة في الأفق.



[١]

«باب مصر.. إلى القرن الواحد والعشرين» كان العنوان الذي اختاره هيكل لمحاضرته الشهيرة والأخيرة في معرض الكتاب في الثامن عشر من يناير ١٩٩٥ وهي المحاضرة التي كانت «تاريخيا» أول محاولة لمناقشة أعراض أزمةٍ أخذتنا في نهاية المطاف إلى مانحن فيه الآن. (المحاضرة صدرت عن «دار الشروق» في كتاب يحمل العنوان ذاته)

يومها لخص هيكل أو لعله شخص الأمر كله في عبارة شاعت وصفا وتلخيصا: «سلطة شاخت في مواقعها..» ويومها بدأ حديثه بمحاولة توصيف الأحوال في مصر توصيفاً موثقا وبالأرقام. ورغم أن نص المحاضرة/ الكتاب بما فيها من الأرقام والإحصاءات والتقارير قد تبدو جافة أمام جمهور غير متخصص، الا أن الكاتب هنا مستندا إلى «مصداقية» الأرقام في تجردها المفترض، يعرض إلى «حقائق اجتماعية» تتصل بهذه الحقائق الاقتصادية وتترتب بالضرورة عليها.. منها أن البطالة في مصر زادت زيادة مخيفة والأخطر أنها تنتشر بين خريجي الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة وهي «كتلة تعلمت وتهيأت للعمل في بلد يعتبر التعليم فيه وسيلة وحيدة للصعود الاجتماعي». ويعني ذلك في نهاية المطاف أنها بطالة مدركة واعية قابلة لأن تتحول إلى شحنة غضب عارم يشعر أن مجتمعه يسلبه حقا كان يحسبه في انتظاره.

أعرف أن هناك من سينشر ـ وهو ينشر كل يوم ـ أرقاما تبدو براقة ترد في تقارير دولية مختلفة (نشرنا بعضها غير مرة في «وجهات نظر»)، إلا أن الحقيقة التي تبدو راسخة حين يتعلق الأمر بوصف الواقع الاقتصادي هو ما يعرفه الاقتصاديون ـ ومنهم الوزير محمود محيي الدين الذي كتب في هذه المجلة في الاتجاه ذاته قبل أشهر ـ من أن ارتفاع معدلات التنمية أو متوسط دخل الفرد في أي بلد من البلدان ليس كافيا لتصوير الحقائق الاجتماعية. إذ يبقى الأهم هو كيف يجري توزيع هذا الدخل؟ ولعل من استمع قبل ثلاث عشرة سنة إلى محاضرة معرض الكتاب تلك، يذكرون كيف صدمهم هيكل «قلقاً على مستقبل 'الاستقرار الاجتماعي' في مصر» بعرض تقرير وضعته مجموعة دولية عن المؤشرات الطبقية الجديدة في مصر (لاحظ أننا كنا في العام ١٩٩٥).

حسب التقرير فهي مصر يومها ٥٠ فردا تبلغ ثروة كل واحد منهم ما بين ١٠٠

ارتفاع معدلات التنمية أو متوسط دخل الفرد في أي بلد من البلدان ليس كافيا لتصوير الحقـــائق الاجتماعيـــة. إذ يبقـــى الأهـــم هـو كيـف يجـري توزيـع هـذا الدخـل؟

إلى ٢٠٠ مليون دولار وأكثر. و٥٠-١٥٠ تتراوح ثروة كل منهم ما بين ٣٠ إلى ٥٠ مليون دولار... وهكذا لنصل إلى أننا في مصر أمام حوالي ١٠٠٠ فرد استطاعوا في العشرين سنة (٧٥-٩٥) أن يصبحوا أصحاب ثروات هائلة لا تتناسب مع الحقائق الاقتصادية أو الاجتماعية السائدة في البلد. ثم يطل من المفارقات أن مصر وهي واحدة من البلدان الموضوعة في قوائم الدول الفقيرة تستورد أكبر نسبة من سيارات المرسيدس في العالم بالقياس إلى عدد سكانها (طبقا لبيانات شركة السيارات الألمانية ذاتها).

كانت هذه أرقام هيكل الموثقة التي عرضها أمام سامعيه قبل كل تلك السنوات. فهل اختلف الوضع الآن؟ قطعاً.. فالمتابع للخريطة الاجتماعية في مصر من «مارينا» شمالا إلى «حلايب» جنوبا. والقارئ للصحف (حتى لو اكتفى بصفحات الحوادث فيها) لابد أن يدرك أن الأرقام الصادمة الملونة بالفساد أصبحت بالضرورة أكبر. والظاهرة المقلقة أصبحت أكثر ضغطاً على استقرار اجتماعي بات هشاً، وأكثر تشتيتاً لتجانس مجتمعي ربما كان مطلوباً اليوم أكثر من أي وقت مضى.

وبعد أن يرصد ما جرى للطبقة الوسطى في مصر، يعرب هيكل عن قلقه لحموم أسباب العنف وموجباته. فالسلام الاجتماعي في أي وطن ليس مسألة حض على فضيلة الصبر، وليس مسألة نص قانوني يغلظ العقوبات على مخالفة مواده.. «إنما السلام الاجتماعي مطلب مركب، وهو مشروط بشرعية السلطة، مشروط بمشروعية الثروة، مشروط بحقوق المواطنة، مشروط بإحساس المساواة بين الناس وإن تفاوتت الكفاءات أو حتى الحظوظ..»

والمقلق أن تخوفاتنا اليوم رغم تتابع الأيام والسنين لاتختلف كثيراً عن تخوفات هيكل (١٩٩٥). حين يقارن بين قمة الهرم الاجتماعي الضيقة شديدة الثراء، وقاعدته الفقيرة شديدة الاتساع، متخوفا «أننا أمام وضع لا مفر من التسليم بأنه بالفعل مخيف لأن النار قريبة من الحطب بأكثر مما تحتمله سلامة الأحوال في مصر»، ويلاحظ هيكل «حالة من خلل التوازن راحت تعتري المجتمع المصري وتهزه بقسوة.. وأن هذا التناقض الحاد بين الفقر والغنى سبب شعورا بالاستفزاز يصعب تجاهله، خصوصا وقد بدا تركيز الغنى غير مبرر، وأيضا غير مشروع. ثم إن حصار الفقر بدا هو الآخر غير مبرر وغير شرعي».

يعود هيكل إلى «الهم الداخلي» بمقال نشره في هذه المجلة «وجهات نظر» (يونيو ٢٠٠٠) تحت عنوان «حديث مستطرد عن السياسة الداخلية» ضمنه مع غيره دفتا كتاب صدر قبل أعوام، ثم بمحاضرة الجامعة الأمريكية الشهيرة «المستقبل الآن» (أكتوبر ٢٠٠٢). محذرا.. ومنبها.. وداعيا.

محـــذرا مـــن الـــ Oligarchy أو مجموعات المصالح «المتشابكة» التي تستولي سلطتها أو بنفوذها على الإدارة ثم على الحكومة ثم على الدولة كلها..! والواقع أننا نعرف جميعا كيف تنمو مجموعات المصالح تلك، وكيف تتشابك خيوطها العنكبوتية. ونعرف أيضا أن بيوت العنكبوت لاتتمدد إلا حيث يكون الركود والكمون، بعيدا عن الحركة، وماتستوجبه تعريفاً من تغيير.

ومنبها إلى حقيقة أن النظام الرئاسي في العالم الحديث، في الولايات المتحدة مثلا يعني الإدارة، «لكننا في مصر وفي العالم العربي نتحدث عن الولاية ولا نتحدث عن الإدارة. وهنا المشكلة. إذ إن تلك مفاهيم تنتمي لزمن لم يعد يعيش فيه أحد. ولم تعد تصلح في أزمنة الدساتير والقوانين والمواثيق والعهود الإنسانية الكبرى، وفي أزمنة جرى فيها ترويض أعتى الأنظمة الملكية، ووقع إرغامها على أن تضيف «الدستورية البرلمانية» لاحقة بالملكية في الوصف وسابقة عليها في الحقيقة» ثم قضت على الملكية أن تكون محصورة في المراسم لا تتجاوزها إلى سلطة الحكم

إذ إن العالم «المتقدم» ينبهنا هيكل يعرف ويتصرف على أساس أن السلطة تفويض مؤقت من شعب يملك الولاية بمعنى السيادة في حوزته، ثم هو يفوض بالانتخاب الحر بعض تنظيماته وأفراده بإدارة شئونه السياسية، متعرضين طول الوقت للحساب باعتبارهم «إدارة لا ولاية». وهكذا فإن الكل:

يحاور «الإدارة»، وبالشدة أحياناً كما حدث للرئيس «كنيدي» بعد محاولته الفاشلة لغزو كوبا سنة ١٩٦١.

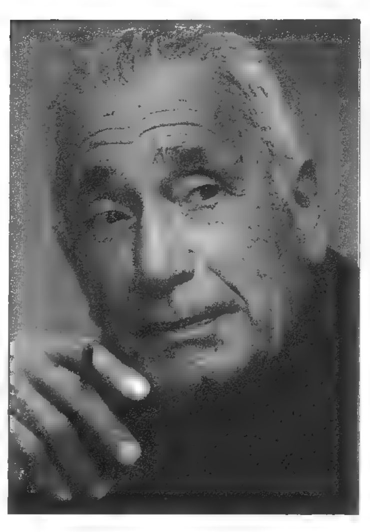
ويعارض «الإدارة» كما حدث للرئيس «جونسون» بسبب حرب فيتنام.

ويحاكم «الإدارة» كما حدث للرئيس «بيل كلينتون» بسبب تصرفات شخصية تجاوز بها حدود اللياقة ولو لم يتجاوز حدود القانون في قضية «مونيكا لوينسكي».

ويعزل «الإدارة» كما حدث للرئيس «ريتشارد نيكسون» لأنه خدع الرأي العام الأمريكي وكذب عليه كما حدث في فضيحة «ووترجيت»!

في الجامعة الأمريكية (٢٠٠٢) يعود هيكل ليفاجئنا بما بدا أننا جميعا غفلنا عنه: «استحقاقات دقت نواقيسها.. وقضية خلافة تنتظر الحسم. بعد أن يلحظ بقلق أن الوقت يجري بنا. وأن «الانتظار» الذي بدا في وقت من الأوقات أدعى للسلامة، حدث بعد ذلك أن تحول «من سد فجوة إلى طبيعة سياسة كل شيء فيها مؤجل وأي تغيير عليها لا داعي له. فإذا اشتدت المطالبات وزادت الضغوط فإن المسموح به يجيء حلا وسطا يكرس الانتظار أكثر مما يسمح بالانطلاق».

وبعد أن ينبه هيكل إلى «أن مصر الآن وليس غدا في حاجة إلى رؤية للهوية أمينة وإلى سند في المرجعية أصيل وإلى شرعية تؤسس لزمن، يستحيل قبوله امتدادا متكررا لشرعية الرجل الواحد، أو لدعاوى حرب يعتبر نفسه ديمقراطيا». يقرر أنه «من المحقق أن الوقت حان وزيادة للانتقال إلى الدرجة الأعلى في مراحل الشرعية أي الشرعية الدستورية والقانونية».





نقرأ هيكل اليوم لنعرف أن ماقاله مشفقاً عام ١٩٩٥، عاد ليطالب به ملحاً عام ٢٠٠٠، ثم عاد ليؤكد عليه قلقاً منبها ومحذراً في الجامعة الأمريكية ٢٠٠٢، ثم هانحن نقرأه اليوم لنجد أننا ما زلنا بحاجة لأن نكرر الطلب والتنبيه.. والرجاء

ملف خاص



هيكل عُمر من الكتب



إن «التهافت على السلام» لا يصنع وحده سلاماً. وأن استرضاء العَدُو «بأى ثمن» هو في نهاية المطاف أقرب الطرق إلى الحرب



[٢]

كان خبرا روتينيا لا جديد فيه، حين قرأنا قبل أيام ان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش الذي تنتهي فترة ولايته بعد أسابيع يعتذر لرئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس «لأن الدولة الفلسطينية الموعودة لن تقوم، قبل أن يترك البيت الأبيض لرئيس قادم يبدأ من جديد لعبة «الوعد» والوهم».

في كتابه «العربي التائه» الذي جمع فصولاً كتبها في «وجهات نظر» قبل أعوام، يقرأ الأستاذ هيكل كعادته التاريخ، ويراه ماثلا هنا في وثائق الحرب العالمية الثانية «وهي اختبار عظيم للسياسات والإرادات»، لينبهنا إلى حقيقة أن «التهافت على السلام، لا يصنع وحده سلاماً. وأن استرضاء العَدُو «بأي ثمن» هو في نهاية المطاف أقرب الطرق إلى الحرب» «لأن التهافُت على الطلب مثير للطمع. ولأن الغاية النبيلة لا تُحققها وسيلة ذليلة. فأول قوانين الصراع أنه حين يرضى طرف لنفسه أن يستخذي فإن الطرف الآخر مدعو لأن يستقوي، وتلك طبائع أشياء قبل أن تكون قوانين صراع».

ومثال ذلك الأشهر في التاريخ - يُذكرنا هيكل - أن رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٣٨ «تشمبرلين، لم يكن يدرك وهو يحمل مظلته الشهيرة ويطير لمقابلة الزعيم الألماني «أدولف هتلر» في «ميونيخ» ويعود من هناك بعد يومين ليبشر الشعب البريطاني (وشعوب أوروبا) بـ«السلام في زماننا». أن «ميونيخ» كانت «نهاية طريق». وأنه بوهم صنع «السلام في زماننا». جعل الحرب العالمية الثانية حتمية لأن «هتلر» رأى «التهافُت على السلام» دليلاً على الضعف والوهن، وشاهداً على تآكل الإرادة السياسية وقصورها عن تحمل مسئولية الصراع من أجل الحياة والصراع من أجل السلام».

نقرأ هيكل ونتذكر، ليس فقط «كامب دافيد»: «النقطة الأولى التي رسمناها على دائرة السلم والحرب «المغلقة» بل قراراً عربياً «على مستوى القمة» - حسب الألقاب البروتوكولية - باعتبار السلام خياراً إستراتيجياً «وحيداً» لكل شعوب المنطقة. وكان الدافع لتمرير، ذلك القرار يومها أنه «يُحرج الإسرائيليين أمام العالم!!.. عندما يتشددون في مواجهة أمة أجمعت رأيها على خيار السلام».

والحاصل ونعرفه جميعاً أن الأيام جرت. وأنه كما أن النهر جرت فيه مياه كثيرة - حسب التعبير الشائع - جرت على الأرض دماء أكثر. جلها «عربية». كما أن الإسرائيلي «المحرج» لم يجد ثمة من حرج في أن يرد على قمة بيروت «قمة سلام المبادرة» بمنع ياسر عرفات «أحد المدعوين لحضورها» من مغادرة المقاطعة. كما أنه لم يستشعر أي حرج في اعتقال رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني المنتخب والعديد من أعضائه. كما كان لافتا أن أحدا من هذا «العالم المحب للسلام» لم يتململ أو ينزعج.

والحاصل أنه في الوقت الذي حلق فيه «وهم السلام» فاردا أجنحته الشفافة البيضاء في سماء العرب، استبد «وَهْم السلاح» بأولئك الذين أسسوا دولتهم تحت نيرانه. واعين لهدفهم المتمثل في طرد أكبر عَدَد من الفلسطينيين من وطنهم، خصوصاً بعد أن اتضح ان فلسطين ليست. كما تَصَوَّر «هيرتزل». «أرضاً بلا شعب تنتظر شعباً بلا أرض».

وكانت المفارقة مثيرة.. كما كانت النتيجة واحدة. رأيناها ومازلنا في دروب غزة الضيقة، التي لم تعش سلاما «رغم كل الاتفاقات» كما ظلت عصية ومؤلمة «رغم كل الصواريخ والمدرعات والطائرات».

لابد - يشدد هيكل - ونعيد قراءة ماكتب حين نرى امامنا «الدائرة المغلقة» للحرب والسلام في الشرق الأوسط. أن تكون للسياسة قوة فعل تحترم نفسها. وتنتزع احترام الآخرين حين يرون السلام يعرض نفسه واقفاً على قدميه وليس راكعا على رُكبتيه. مؤكدا أن «السياسة» الواضحة تعززها «الإرادة» قد تعني عن الحرب المسلحة ونزيفها الدموي. في حين أن «السياسة» المترددة تجعل «نهاية الطريق» مهلكة في التيه أو مذبحة في العراء!



في مقدمة الكتاب ذي العنوان الدال «العربي التائه» يشير الأستاذ هيكل إلى مقال مهم كتبه هنا أيضاً (مارس ٢٠٠٠) بعنوان «نهايات طرق». معتبراً أن الطرق - ولسوء الحظ - تبدو عند نهاياتها وكأنها وصلت إلى تيه لا يظهر عليه أفق.

ورغم تفاؤل أحسده دائما عليه، يضيف الأستاذ في مقدمته: أنه ومع بداية هذا القرن الجديد، القرن الحادي والعشرين فإنه يبدو أن «العربي» أصبح هو «التائه». وهو صدى بالمقلوب لتعبير شاع قبل ذلك قرونا عن «اليهودي التائه».

موضحا انه في قرن سبق. وهو القرن العشرون. فإن ذلك «اليهودي التائه» وجد لنفسه مكانا حط فيه رحله، وحَصَّن موقعه. وفي نفس الوقت فإن «العربي» اختلطت عليه الأمور، وبدا وكأنه ضيَّع عالمه وفيه تراثه ومستقبله، ثم إنه ارتحل بحاضره تائها بين الحقيقة والوهم، وبين الرؤية والسراب، وبين الحلم والعجز.

وهكذا بدأ القرن الحادي والعشرون. يقول هيكل. واليهودي الذي كان «تائها» يتحصن في المشروع الصهيوني على أرض فلسطين. في حين أن العربي الذي كان راسخا في الطبيعة والتاريخ أصبح هو الشارد في التيه: قد يعرف من أين؟. لكنه لا يعرف إلى أين؟!



[٣]

من اقترب من الأستاذ هيكل مهنيا أو إنسانيا، يعرف أنه اعتاد أن يدون أفكاره وخواطره ووقائع يومه على ورق «يعود» إليه.. «فيستعيد» تفاصيل ما كان.. وأجواءه.. وحضوره.

وقبل حوالي العامين تصادفت زيارة خاصة قام بها الأستاذ للعاصمة القطرية «الدوحة» مع التجهيز لانعقاد مؤتمر دولي تحت لافتة «تحالف الحضارات» شاركت فيه نخبة من الشخصيات الدولية المرموقة من بينها الرئيس الإيراني السابق «محمد خاتمي» وهو صاحب مشروع فكري يتبنى «حوار الحضارات» وكان أن جرى حوار. أو حوارات. حول فكرة المؤتمر وقضاياه. وكعادته، كانت تلك الورقة التي كتبها هيكل. محددا فيها فكرته، بقصد تبادل الرأي حول رؤية ربما بدت للبعض مختلفة في موضوع اختزل مبكرا في شعار صار هو الأكثر رواجا في المنتديات الفكرية المختلفة، شمالا وجنوبا.. ونحن ندلف إلى قرن جديد.

يومها.. وبإذن من صاحبها.. نشرت «وجهات نظر» هذه الورقة، والتي لعلها مع المحاضرة المهمة التي ألقاها الأستاذ في جامعة أوكسفورد، قبل حوالي العام بعنوان «جسور وعوائق» تكونان أساسا لكتاب «مطلوب» يقدم فيه رؤيته لما يعتبره «حضارة إنسانية واحدة».

يلخص هيكل رأيه في أنه قريب من مدرسة ترجح أنه ليس هناك ما يمكن أن نسميه صراع حضارات ـ أو حوار حضارات ـ والسبب أن هناك «حضارة إنسانية واحدة»

يلخص هيكل رأيه في أنه قريب من مدرسة ترجح أنه ليس هناك ما يمكن أن نسميه صراع حضارات - أو حوار حضارات - والسبب أن هناك «حضارة إنسانية واحدة»، صبت فيها شعوب وأمم وأقاليم الدنيا، على طول التاريخ أفضل ما توصلت له من رقي وتقدم.

ويقول إننا لسنا أمام صراع حضارات متعددة متعارضة يمكن أن تتصادم أو تتصالح، لأن شواهد التطور التاريخي تومئ إلينا بأنها حضارة إنسانية واحدة، صب فيها الجميع ما زاد عندهم أوقات الفيض، وسحب منها الجميع ما لزمهم أوقات الجفاف، وساعدوا كل في زمانه - على ملء خزان هائل للحضارة الإنسانية أصبح شراكة طبيعية ورصيدا جماعيا متاحا بالحق لمن يريد ويستطيع.

ثم إنه مع اتساع الأرض واتصال التاريخ - يذكر هيكل - فإن كافة الشعوب والأمم قدمت ما راكمته من ثقافات البيئة والمعرفة والتجربة، إضافات سخية ومستمرة وتلقائية - إلى المشترك البشري الجامع.

يبسط هيكل رأيه موضحا أن ذلك حدث في حالة التأمل والفلسفة بحثا عن الحق والحقيقة - حالة كشف العقل حين تعرف الناس في السحر الإنساني الأول على ملكات التصور، وتوصلوا إلى سر الحرف في الأبجدية وسحر الرقم في العدد - حالة التنبه إلى معجزة الزراعة - حالة صناعة الأدوات والمعدات - حالة فنون المعمار - حالة فتح الطرق واستئناس وسائل المواصلات - حالة صنع السفن وركوب البحار - حالة النظر إلى الفلك ومسارات النجوم، إلى آخره.

في هذه الحالات وغيرها فإن الثقافات الطالعة في كل مكان شقت جداول وينابيع محلية، فاضت على جوارها عندما تبين هذا الحوار نفعها، ثم التقت هذه الجداول والينابيع لتكون ما يمكن أن نسميه مجمع ثقافات أو أحواض حضارة بعضها يكاد يكون مرسوما محددا كخط بالقلم ومثاله الأظهر حوض البحر الأبيض - ثم إن الأحواض الحضارية في كل إقليم من أقاليم الدنيا امتلأت وفاضت، وتمددت واتصلت بحيث بسطت محيطا واسعا لحضارة إنسانية قابلة للانتشار، قادرة على العطاء، عابرة للزمان والمكان.

والقصد - يشرح هيكل - أنه إذا اعتبرنا أن ثقافة أي مجتمع هي مجمل ما تحصل عليه - في ظروف موقعه، وعلى مسار تاريخه، من خبرات ومعارف وفنون فإننا بنفس المقدار نستطيع القول بأن الحضارة هي في التعريف النهائي أرفع وأنفع ما وضعته ثقافات الشعوب والأمم والأقاليم «المختلفة» في المجمع العالمي للثقافات المتنوعة، والذي هو محيط الحضارة الإنسانية، والذي يعتبره هيكل محيطا حضارياً لا يحتاج إلى إلحاح أو إلى سلاح، لأن شراكة الجميع فيه، وحاجة الكل إليه، تجعله «ثروة بالمشاع بينهم وادخارا لطموحاتهم عندما تحركها هممهم».

ويشبه هيكل هذه الحركة الإنسانية بواقع ما جرى ويجري في الطبيعة ذاتها، إذ ربما أمكن القول أن الثقافات كانت بمثابة ينابيع وجداول وأنهار جرت فيها المياه وتدفقت وفاضت على جوارها الإقليمي - ثم إن هذا الجوار أخذ من هذا الفيض ما كانت مجتمعاته مستعدة لاستعماله لزيادة منافعها وتحقيق أقصى الممكن من مطالبها - ثم إن هذا البحر الذي تلاقى فيه الفيض الإنساني للثقافات المحلية والإقليمية أكمل زحفه وانتشاره حتى وصل إلى المحيط المفتوح أمام كل شراع وأمام أي ملاح لديه الجسارة ومعه خريطة وبوصلة.

معنى ذلك أن ينابيع الثقافات الوطنية التي تدفقت في جداول وأفرع وأنهار، وتلاقت في أقاليمها، وصنعت ما يمكن تسميته ببحار أو أحواض حضارية اندفعت كما تفعل البحار حين ترتفع مناسيبها وحين تجد معابرها - إلى المحيط الأعظم الذي يحيط بالقارات كلها، وذلك فعل طبيعي - يقول للجميع بالجغرافيا أنه عالم واحد، كما يقول للجميع بالتاريخ أنها تجربة مشتركة لا يحق لطرف أن يحتكر فضاءها، كما لا يجوز لطرف أن يتنازل عن نصيبه فيها.

وينبه هيكل إلى أننا حين قبلنا فكرة صراع الحضارات أو حتى «حوار الحضارات» بالمنطق الذي قدم لنا - فإننا سلمنا بالقسمة، أي أننا تنازلنا عن الشراكة من أول لحظة، ودخلنا في حوزة الآخرين وعلى جدول أعمالهم.




أمام مستمعيه الأكاديميين في «أكسفورد» يحرص هيكل أيضا على توضيح كيف تحول الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلى عملية تلاعب مقصود بالصور «إلى حد إعادة كتابة قصة الإرهاب في التاريخ، فإذا الشمال بريء منه، وإذا الشرق الأقصى بعيد عنه، وإذا الدين الإسلامي وحده مرادف للانتحار والقتل في المخيلة العامة الشائعة في الشمال».

ويستغرب أن رمزا دينيا له مقامه هو بابا الفاتيكان «بنديكتوس السادس عشر» وقف يتحدث عن الإسلام وعن الحضارة، فإذا هو يلحق «التمدن» بالشمال، والهمجية بالجنوب الإسلامي، ويقرر ولو بالتلميح أن الفارق بين العالمين «أن الغرب أخذ من المسيحية ثم من الفلسفة اليونانية ما يميزه عن غيره في إعلاء قيمة الإنسان».

وكان أمل كثيرين - يقول هيكل في ملاحظة قوية ولافتة - لو تذكر خليفة «بطرس الرسول» أن المسيحية كلها غيث نزل على الشرق وفاض على الغرب رسالة وحكمة - حواريين وقديسين قصصا وتعاليم صلوات وتراتيم، كما أن السيد «المسيح» نفسه من مواليد «الناصرة»، والقديس «بطرس» - الذي يقوم الفاتيكان على رفاته من أبناء «القدس» - كلاهما من الشرق، وأن القديس «مرقس» الذي تقوم كنيسته بمعمارها المتميز على أجمل ميادين أوروبا «سان ماركو» مولود في أقاصي صعيد مصر، وذلك رغم أن كبار فناني النهضة جنحوا إلى تصوير هؤلاء الرسل والقديسين والحواريين معظم الوقت أصحاب بشرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر ذهبي.









ماذا بعد؟

نستمتع بلا شك بأحاديث هيكل الدورية على «الجزيرة»، ولكننا معشر مدمني القراءة (وأنقل هنا من رسائل قراء لم يتوقف تدفقها على عنوان هذه المجلة) نفتقد قلمه ذا اللغة الرفيعة، والألفاظ الدقيقة المنتقاة، والعبارات التي «تطربك» - لا أبالغ - حبكتها.. وحنكتها.. منذ كان محمد ملص صبيا يشب على أصابع قدميه ليقرأ «بصراحة» معلقة على الحائط، وكانت «الأستاذة عطيات» تطلب من تلاميذها الصغار أن يلخصوا مقال الجمعة ■



هيكل عُمر من الكتب

الواقع أن أعظم الإساءات التي وجهها هرتسل إلى العالم هي، كما يشدد هيكل، أكذوبة أن الفلسطينيين شعب لا وجود له أو شعب لا قيمة له





إيريك وتكينز

العروس جميلة ولكنها متزوجة برجل آخر

■ «إن العروس جميلة لكنها متزوجة برجل آخر». هكذا وصف حاخامان فلسطين ذات مرة.

أتت تعليقاتهما خلال رحلة إلى الأراضي المقدسة في عام ١٨٩٧ بعد المؤتمر الأول للمنظمة الصهيونية العالمية التي أنشئت بغرض تأسيس وطن للشعب اليهودي في فلسطين. إلا أن رسالة الحاخامين استقبلتها آذان صماء مثلما يعبر محمد حسنين هيكل عن الموقف، إذ لم يعترف العالم قط بالزوج «غير الملائم». هذا بالإضافة إلى ما يدعو إلى الرثاء: فلو أن العالم قد اعترف بحقوق الشعب الفلسطيني من البداية، ربما وفر على نفسه الصراع على أرض فلسطين، صراع كلف أرواحاً يتعذر على المرء تخيل أعدادها.

يقول هيكل أن الإخفاق في مراعاة الحقوق الفلسطينية شابه التعمد وأنه نبع من عزوف الصهاينة الأولين عن الاعتراف بالفلسطينيين باعتبارهم شعباً. يعزو هيكل هذا الجهل المقصود بالأساس إلى تيودور هرتسل، مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية. إذ ينهي هيكل إلى القارئ بأن هرتسل الصحفي المجري بات مقتنعاً، وهو يغطي حادثة دريفوس بفرنسا في العقد العاشر من القرن التاسع عشر، بأن الحل الوحيد لمعاداة السامية الأوروبية هو تأسيس دولة قومية يهودية. أقنع هرتسل نفسه، رغم الدلائل القوية المبرهنة على عكسه تصوراته، بأن فلسطين أرض بلا شعب مما يجعلها ملائمة بصورة مثالية لشعب بلا أرض. مات هرتسل عام ١٩٠٤ بيد أن إرثه واصل المسيرة. والواقع أن أعظم الإساءات التي وجهها هرتسل إلى العالم هي، كما يشدد هيكل، أكذوبة أن الفلسطينيين شعب لا وجود له أو شعب لا قيمة له.

Secret Channels, the Inside Story of Arab - Israeli Peace Negotiations
قنوات سرية: القصة الداخلية لمفاوضات السلام العربية-الإسرائيلية
By Mohamed Hassanein Heikal
Harpercollins Pub Ltd 1996 572 pp. $19.99

Middle East, Aprill 1996



وكي يزود القارئ بمكرة عن الدمار الذي جلبه هذا الجهل، يورد هيكل بعض الإحصاءات المرعبة. إذ يذكر أن الشقاء الإنساني لا يمكن أن يبلغ القارئ على نحو دقيق في صورة أرقام، ومع ذلك فلا غنى عن الإحصاءات. وهنا يشير هيكل إلى أن حصيلة القتلى من الفلسطينيين بدءاً من عام ١٩٤٨ وحتى ١٩٩٣ بلغت ٢٦١٠٠٠، علاوة على ١٨٦٠٠٠ جريح و١٦١١٤٠ معاقاً. ووصل عدد اللاجئين المشردين في عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧ وذريتهم إلى ٤،٥ مليون نسمة بحلول مستهل العقد العاشر من القرن العشرين وفقاً لتقديرات الأمم المتحدة.

إلا أن المشكلة لم تنحصر ولا ريب في إطار الشعب الفلسطيني. يتوخى هيكل هنا الوضوح في حديثه عن الخسائر البشرية بالدول العربية. إذ يخبر القارئ بأن الحروب الأهلية في لبنان الناجمة عن تعقيدات الصراع العربي-الإسرائيلي أودت بأرواح ٩٠٠٠٠ نسمة إضافية و١١٥٠٠٠ جريح و٩٦٢٧ معاقاً و٨٧٥٠٠٠ لاجئ. وكذلك لم تكن الخسائر في مصر بالهينة. فقد انتهت خسائر مصر في غضون خمس حروب (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧-٧٠، ١٩٧٣) إلى ٣٩٠٠٠ قتيل و٧٣٠٠٠ جريح و٦١٠٠٠ معاق بينما تم ترحيل ١،٢ مليون فرد من منطقة قناة السويس مرتين (في ١٩٥٦ و ١٩٦٧). أغلقت الحكومة المصرية قناة السويس فترتين طويلتين، وتصاعدت خسائر الدخل القومي علاوة على تكاليف الحرب وفقاً للرئيس المصري السادات إلى ٤٣ مليار دولار.

إن تلك الأرقام تشهد بدرجة الشعور الشعبي الذي أثارته القضية الفلسطينية بين العرب عموما، كما تبين السبب الذي يحول كتاب هيكل قنوات سرية إلى ضرورة في حال سيتم إحراز السلام بالمنطقة في أي وقت من الأوقات. يؤكد هيكل أن تلك المشاعر الجياشة جعلت الاتصالات مع إسرائيل عصيبة وخطرة وسرية بالضرورة. وهنا يعدد هيكل الأسئلة الأولية التي تساور عقل أي زعيم عربي عندما تتاح فرصة للاتصال بالإسرائيليين: «ماذا لو تسربت أنباء الاتصال؟، وكيف لي أن أحمي نفسي سياسياً؟». ودفعت تلك المخاوف القادة العرب إلى طلب تأكيدات بتنازلات إسرائيلية قبل الدخول في المفاوضات.

وقد أثبتت مبررات مثل تلك المخاوف صحتها فيما يخص الطرفين، وخصوصاً باغتيال الرئيس المصري أنور السادات والملك عبد الله ملك الأردن ورئيس لبنان المنتخب بشير الجميل وإسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي.

وعليه فإن كتاب هيكل قنوات سرية القصة الداخلية لمفاوضات السلام العربية-الإسرائيلية ليس مجرد محاولة لإعادة الشعب الفلسطيني إلى خريطة الضمير العالمي. فالكتاب يحاول أن يوضح لماذا تعد القضية الفلسطينية مهمة للعرب جميعاً، ولماذا خالجت الشكوك العرب في أي جهود رامية إلى تحقيق تسوية في المنطقة عن طريق المفاوضات. والحق أن الشكوك العربية واحدة من العقبات الجلية في طريق عملية السلام، وطبقاً لهيكل فإن لا سبيل إلى استيعاب تلك الشكوك بدون إدراك التأثير النفسي على العرب لوعود لم يف بها الغرب خلال الحرب العالمية الأولى فضلا عن كل الخيانات التالية.

ومن بين كل ما جاء به الغرب من وعود وخيانات، ربما لا يعتمل في صدور العرب غير تصريح بلفور. صدر تصريح بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٩ قبل أسابيع من استيلاء القوات البريطانية على القدس. وبينما وعد التصريح اليهود بوطن في فلسطين، زعم أيضاً بوضع إجراءات وقائية للسكان الأصليين.

ومع ذلك لم يمر وقت طويل على إصدار التصريح قبل أن يقر بلفور بنفسه بأن التصريح خدع الفلسطينيين خداعاً متعمداً. «فيما يتعلق بمسألة فلسطين، لم تعلن القوى أي بيانات بحقائق لم تكن مغلوطة باعتراف الجميع، ولا يوجد تصريح سياسي، على الأقل في الخطاب، لم يعتزموا دائماً انتهاكه». ومع الأخذ في الاعتبار مثل تلك الخلفية الغدارة، فلا عجب أن أضمر العرب كل تلك التحفظات العميقة حول التوصل إلى أي اتفاق يخص دولة يهودية في فلسطين. ■

شـــاءول بـــخـــاش

الثورة.. ضد نفسها

An Insider's Account of America's Iranian Adventure and Its Consequences for the Future
IRAN: THE UNTOLD STORY
Mohamed Heikal

■■ عندما هرب أبو الحسن بني صدر، أول رئيس لجمهورية إيران الإسلامية، ومسعود رجوي، زعيم منظمة ميليشيات «مجاهدي خلق»، من إيران في يوليو ١٩٨١ ووصلا إلى باريس لكي يؤسسا المجلس الوطني للمقاومة وحكومة في المنفى، آمن الاثنان بأن سقوط آية الله الخميني وشيك. توقع رجوي عندها سقوط النظام في غضون أسابيع. واليوم، وبعد انقضاء ما يزيد على العام (نشر المقال في ١٩٨٢ - المحرر) لا يهيمن الخميني وحلفاؤه على البلاد فقط بل إنهم نجوا من سلسلة من الاضطرابات العنيفة.

قتل «مجاهدي خلق» وميليشيات تابعة لمنظمات أخرى المئات من أعضاء الحرس الثوري واللجان وضباط صغار ورجال دين منذ يونيه ١٩٨١. واغتالوا أيضاً زعماء دينيين وموظفين في الحكومة وأفراداً من الحزب الجمهوري الإسلامي الحاكم (آي. آر. بي.). وبالإضافة إلى آية الله محمد بهشتي، دراع الخميني اليمني، تضمن القتلى رئيساً ورئيس وزراء والنائب العام الثوري وقائد البوليس الوطني وأربعة وزراء ونحو عشرين نائباً في البرلمان وستة وكلاء وزارة تنفيذيين. فقد أئمة صلوات الجمعة بأربع بلدات محلية أساسية - راشت وتبريز وشيراز ويزد - أرواحهم. وقد شكّل الأربعة جزءاً من سلسلة القيادة التي تطبق أوامر الخميني في أرجاء الأقاليم. تم القضاء على نصف فريق قيادة القوات المسلحة في سبتمبر من العام الماضي عندما خسر رئيس الأركان ووزير الدفاع واثنان من القادة أرواحهم في تحطم طائرة.

لم تتسبب أي من هذه الأحداث في انهيار النظام. فالنقص في الحاجات الأساسية وطوابير الطعام ورهاء مليونين من لاجئي الحرب والإحساس العام بسوء الحكم والفساد والتجنيد العسكري القسري واغتراب الطبقات التجارية والوسطى لم تؤد بعد إلى نوعية الإضرابات الجماهيرية والمظاهرات التي أسقطت الملكية في فبراير ١٩٧٩. بل إن النظام حقق نجاحاً من عدة جوانب.

طردت القوات الإيرانية القوات العراقية من المناطق الإيرانية هذا العام. وفي يوليو، في انقلاب درامي عبرت القوات الإيرانية الحدود وغزت العراق. وعلى الرغم من الوفرة في سوق النفط، تمكنت إيران من زيادة صادراتها النفطية. ورغم تناقص تلك الصادرات مرة ثانية مؤخراً نتيجة الغارات العراقية على ناقلات البترول بالموانئ الإيرانية، فقد نجت الحكومة حتى هذه اللحظة على الأقل من نقص حاد في العملة الأجنبية. ومن خلال استغلال الاختلافات القائمة بين الدول العربية واستخدام التجارة كباعث على الربح ومحاولة كسب تأييد الدول غير المنحازة، خرجت طهران إلى حد ما من عزلتها الدبلوماسية.

لا يضمر الصحفي المصري المعروف محمد حسنين هيكل شكوكاً حقيقية في المسار المقبل للثورة الإيرانية. ففي مقدمة النسخة الأمريكية لكتابه إيران: القصة المخفاة، يستدعي هيكل محادثة مع رجوي بعد أن استقر قائد الميليشيات في باريس. كان رجوي متأكداً أنه وبني صدر يمثلان خلافة النظام الإيراني، إلا أن وجهة نظر هيكل كانت كالتالي:

يظل الجيش القوة المنظمة الوحيدة داخل إيران، ومن داخل القوات المسلحة من الممكن توقع بزوغ القادة الجدد.

ومثلما تنبأ هيكل، وبالأساس كنتيجة للحرب العراقية-الإيرانية، عاد الجيش بالفعل إلى البزوغ كمصدر محتمل للقوة السياسية. إذ أطاح بقادة جدد - كقائد القوات البرية الكولونيل صياد شيرازي - كانوا قد ترقوا في الرتب ودانوا بفضل تقدمهم إلى الثورة. يحاول الخميني الآن (المقال نشر ١٩٨٢) استخدام الجيش في توسيع ثورته الإسلامية إلى داخل العراق. ففي فترة ما بعد الخميني، لن يسيطر القادة العسكريون بالضرورة على إيران كما يتوقع هيكل، سيكون القادة العسكريون ولا ريب من ضمن المكافحين لنيل السلطة.

كتب هيكل مؤلفات موسعة حول الشأن العربي، كما ناقش من حين لآخر الأحوال الإيرانية. وعندما كان صحفياً شاباً عمل مراسلاً لأزمة تأميم النفط ما بين ١٩٥١ و ١٩٥٣، زار إيران في عام ١٩٧٥ وأجرى حواراً مع الشاه ومسئولين آخرين رفيعي المستوى. كما أجرى حواراً مع الخميني في باريس قبيل عودة آية الله منتصراً إلى طهران. وبعد الثورة، رحبت طهران به بوصفه رفيقاً من رفقاء السلاح. منحه أفراد الميليشيات الذين اختطفوا الأمريكيين حواراً من حواراتهم النادرة، فيما وضع المسئولون ثقتهم في شخصه.

يعكس كتاب هيكل هذه العلاقة مع الشئون الإيرانية، وهي علاقة مثيرة ومتباينة.. لقد دمج هيكل معرفته المباشرة بإيران بروايات من التاريخ الإيراني الحديث والمذهب الشيعي والتدخل الأمريكي في إيران. ويبلغ الكتاب أروعه حين ينقل إلينا الكاتب تفاصيل من تجاربه الشخصية - حواره مع الخميني أو لقاءه بطلبة الميليشيات في السفارة الأمريكية بطهران.

وجرياً على عادته في إخراج وثائق «سرية» إلى النور، بمقدور هيكل التوصل إلى مواد غير معروفة على نطاق واسع - على سبيل المثال، الاتفاق المسمى باتفاق «نادي السفاري» الذي عقدته عام ١٩٧٢ إيران وفرنسا والمملكة العربية السعودية ومصر والمغرب بعرض التعاون في مجال المخابرات. ■

يبلغ الكتاب أروعه حين ينقل إلينا الكاتب تفاصيل من تجاربه الشخصية - حواره مع الخميني أو لقاءه بطلبة الميليشيات في السفارة الأمريكية بطهران

Iran: The Untold Story
إيران: القصة المخفاة
By Mohamed Hassanein Heikal
Pantheon, 217 pp. $14.50

The New York Review of Books
Volume 29 - November , 1982



عام ١٩٥٨
تلقى عبد الناصر هدية عراقية عبارة عن علبة مبطنة تحوى إصبعاً محفوظاً لنورى السعيد (دفنه عبد الناصر دفناً محترماً فى أحد مدافن القاهرة)



هاوارد جيه. دولي

كيف بدا العالم .. من مصر!

لم يكن الراحل جمال عبد الناصر، كمعاصره فى الموت، شارل ديجول، مجرد قائد سياسى: فقد كان ظاهرة سياسية كثيراً ماتبدو وكأنها تتحدى التحليل المنطقى. لم يزل «الريس»، مثلما هو معروف عند المصريين يثير تخمينات الأصدقاء والأعداء والأكاديميين. بث فى النفوس مشاعر عميقة كما توضح ردود الأفعال على وفاته المبكرة. فقد عبده البعض وكرهه آخرون. بدا من منظور ما مكيافيللى الشرق الأوسط: وبدا من منظور آخر بطلاً خالصاً، أعظم أبطال العرب بأسرهم منذ الأسطورة صلاح الدين الأيوبى. مثالى، متآمر، محب للخير، مناد بالقومية، متزمت المواقف، مشوه للحقائق، مناصر للديمقراطية غير ديمقراطى، جندى محترف خسر معاركه - من كان هو؟ وماذا أراد؟

لقد أنتجت السنوات القليلة الأخيرة فيضاً من الكتب حاولت توضيح اللغز. وأفضل ثلاثة كتب هى كتاب مايلز كوبلاند لعبة الأمم وسيرتان سياسيتان صدرتا حديثاً بقلم انتونى ناتينج وروبرت ستيفينز. إلا أن التعاطف مع عقلية مصرى، ومسلم، وشخص يصف نفسه بالعربى الثورى فصلاً عن فهمه مهمة صعبة كل الصعوبة بالنسبة لكاتب غربى. لذا لم ينتظر القراء كما انتظروا متلهفين سيرته بقلم صديقه والمؤتمن على أسراره محمد حسنين هيكل. أطلق على هيكل، رئيس تحرير جريدة الأهرام ومستشار الرئيس السادات - الذى يعد العدة الآن للمعركة - «أقوى صحفى فى العالم». عندما كان عبد الناصر على قيد الحياة، عُرف هيكل بأنه الناطق بلسانه، وبحق، صديقه الموثوق. وهكذا فقد كان كاتب السيرة الطبيعى لعبد الناصر، وبعد وفاة عبد الناصر، حين حاصره الناشرون، باع حقوق النشر العالمية للجريدة اللندنية المحافظة صانداى تيليجراف مقابل مبلغ لايستهان به أبدا وان كان يستحقه بلا شك.

The Cairo Documents, the Inside Story of Nasser and his Relationship with World Leaders, Rebels and Statesmen
By Mohamed Heikal

وثائق القاهرة: عبد الناصر وزعماء وثوار وساسة العالم
Doubleday, 1973, 360pp.

The Review of Politics Vol. 35, April 1973

إن كتاب هيكل وثائق القاهرة ليس سيرة بالمعنى التقليدى للكلمة وليس نسخة مصرية من «أوراق البنتاجون» على الرغم من عنوانه. فهو بالأحرى قصة علاقات عبد الناصر الشخصية بإحدى عشرة شخصية من الشخصيات المهيمنة على التاريخ الحديث. وباستخدام مراسلات عبد الناصر ورسائله الخطية ووثائق رسمية بالإضافة إلى ذكرياته وسجلاته، أخرج هيكل مزيجاً من مادة مبتكرة عن عبد الناصر وانطباعات صحفية تزود القارئ بثروة من النوادر عما يجرى هناك عند سدة الحكم إبان العقد السادس والسابع من القرن العشرين. إلا أن الكاتب المخلص لعبد الناصر أبقى نفسه فى الخلفية متجنباً الميل إلى النثر المنمق.

إن صورة عبد الناصر التى أبرزها قلم أكثر مستشاريه حميمية هى الصورة التقليدية: صورة رجل صاحب عادات خصوصية بسيطة لا تخلو من نموذجية، رجل أفرد حياته لإعادة شعب تعرض طويلاً للقهر إلى الحرية والقوة والكرامة. يمجد هيكل شخصية كتابه باعتباره بطلاً كالأسد، أسد قيدته وجرحته أحداث تعذر عليه السيطرة عليها. كما أنه يعرض - ربما بلا وعى منه - الجانب المظلم من شخصية عبد الناصر: الطبيعة المتمردة والكرامة الحساسة وعقلية ريبية تنظر إلى الانتقام نظرة التقديس مما جعل سياساته تتلون أحيانا بالتهور والطيش. يسجل هيكل أمراض عبد الناصر السكر وتصلب الشرايين وحالة قلبية ويعطينا مشهداً مؤثراً لساعة الاحتضار، لكنه لا يمنحنا إجابة على تقريع الزعيم الصينى شو إن لاى: «كان جمال عبد الناصر صغيراً، فالثانية والخمسين تعد سنا صغيرة. كان رئيس الدولة، وزعيم الدول العربية. لابد أن لديه أفضل وسائل العناية الطبية. كيف تتركونه يموت؟» (سدد شو إن لاى أصابع اللوم إلى الروس الخونة بطبعهم).

كان هيكل، من منظوره العليم المطلع إلى جانب «الريس»، قادراً على رؤية معارف عبد الناصر رؤية مباشرة. وبعين الصحفى المتمرس، يخط لهم بقلمه صوراً يرين عليها أحياناً الغموض: دالاس المعتقد أنه أقوم أخلاقاً من الجميع، إيدن المتعجرف المتكبر، خروشوف المغرور، همرشولد الغامض، كينيدى المحارب البارد، جونسون الفظ، تيتو «الملك الشيوعى»، نهرو خائب الأمل، شو إن لاى الداهية، إرهارت المضطرب، وذلك الرومانسى المقضى عليه بالهلاك تشى جيمارا. غير أن هيكل ترك شخصياته لتتحدث عن نفسها، بأن أظهر رسائل تقدم مفاتيح لا يستهان بها للنفاذ إلى سياسات مؤلفيها وشخصياتهم. إن رسالة خروشوف عام ١٩٥٩ التى وبخ فيها عبد الناصر لكونه جاحداً متهوراً مولعاً بالقتال أشبه بالحجر النفيس الحقيقى. وبنفس القدر من الكشف عن الحقائق، سيلفى القارئ مراسلات كينيدى الساذجة المُدعية حول كوبا ورسالة جونسون البليدة الحمقاء التى يبرر فيها مبيعات السلاح لإسرائيل.

سوف يجد جمهور القراء «الإفشاء» أعظم إغراء فى تلك المذكرات «الداخلية»، وهيكل هنا يقدم نصيباً

استبدت الصدمة والنفور بعبد الناصر من صور لندون جونسون الشهيرة وهو يظهر ندبة على بطنه، ورأى عبد الناصر أنها دليل على «وقاحته وانعدام حساسيته»

واسعا من الصدمات والمفاجآت. هناك على سبيل المثال الهدية الرهيبة التى تلقاها عبد الناصر من معجب عراقى بعد انقلاب ١٩٥٨: علبة مبطنة بالقطن والصوف تحوى إصبعاً محفوظاً لنورى السعيد (دفنه عبد الناصر دفناً محترماً فى أحد مدافن القاهرة). أو تفكَر فى رد فعل خروشوف على ترجمة خرقاء صدرت من مترجم غير كفء خلال أحد حواراته مع عبد الناصر: «لو كانت غلطة المترجم، فلا بد إذن أن يُعاقب... لا بد أن نحوله إلى قطعة صابون». وهناك المؤامرة المرعبة التى ائتمن شو إن لاى عبد الناصر عليها عام ١٩٦٥ عندما بدا أن عدد القوات الأمريكية يتعاظم فى فيتنام. أسر شو إن لاى إلى عبد الناصر بأن بكين لا تريد أن ينسحب الأمريكيون بل تأمل على العكس أن تنشر الولايات المتحدة المزيد من القوات نظراً لأنها ستكون «سياسة تضمن عدم اندلاع هجوم (نووى) إذ سيصير لدينا الكثير من لحومهم بالقرب من أظافرنا». وبغرض إضعاف معنويات الجنود الأمريكيين يشير شو إن لاى إلى أن «بعضهم يجرب الأفيون. ونحن نمد إليهم يد المعونة. إذ نزرع أفضل أنواع الأفيون خصيصا للجنود الأمريكيين فى فيتنام». ختم شو كلامه بتوقع أن «يكون التأثير الذى سوف يحدثه إضعاف معنويات الأمريكيين أعظم بكثير مما يدركه أى شخص».

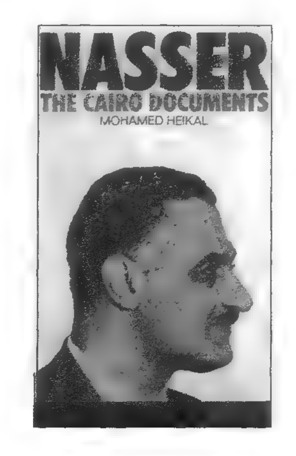
كذلك يكشف هيكل النقاب عن حوادث يداخلها شيء من الكوميدية. هناك مثلاً صورة تشى جيفارا خائب الأمل وهو يتفجع على صعود «طبقة جديدة» أنتجتها الثورة الكوبية: «لقد وجدنا رجلاً يمتلك سبعة عشر جهاز تليفزيون فى مكتبه!» وهناك مشهد لا يصدق استضاف فيه الرئيس جونسون ستة سفراء عرب ثم شرح لكلبه سبب اضطرار إسرائيل إلى شن حرب يونيه ١٩٦٧. لكن لعل أشد الحكايات كوميدية فى المجلد بأسره هى زيارة ابن إمام اليمن السابق، الأمير محمد البدر، للقاهرة. فقد حسب المصريون أنه قد يصبح زعيماً مؤيداً للناصرية حتى طلب فى يوم من الأيام أن يزور حديقة الحيوان. وهناك التقطت عيناه شجرة قات لم يتعرف عليها أحد، فما كان منه إلا أن تسلق الشجرة ليتخذ مجلسه على أحد فروعها ويبدأ فى مضغ القات بينما لم ينفك مضيفوه المصعوقون يرمقونه بنظراتهم.



تحتل علاقات عبد الناصر بالولايات المتحدة أحد المحاور الرئيسية فى نص هيكل. يُقسم هيكل هذه العلاقات تقسيما دراميا إلى أربع مراحل تحت عنوان «الإغواء» (١٩٥٢-١٩٥٥) و«العقاب» (١٩٥٥-١٩٥٨) و«الاحتواء» (١٩٥٨-١٩٦٣)، وأخيرا «العنف» - إشارة إلى سنوات جونسون. اشتكى هيكل المرة بعد المرة من أن تعاملات واشنطون مع مصر اتسمت كثيراً بالخداع: إما تنافست وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية للحصول على قدر أكبر من النفوذ، أو تم إضعاف التعهدات الرئاسية من قبل وزارة الخارجية الأمريكية. غير أن كتاب هيكل وثائق القاهرة يعنى بالأساس بدور الشخصيات. ولا ريب أن تقييم عبد الناصر للرؤساء الأمريكيين عاون على تشكيل تاريخ عصرنا. ولا مجال للدهشة بالقطع حين نعلم أن جون فوستر دالاس - الذى وصف هنا بالمتعصب العنيد الحقود كرهه عبد الناصر - حتى أتى ليندون جونسون. وعلى الجانب الآخر، أكن عبد الناصر الاحترام للرئيس أيزنهاور كقائد عسكرى ورجل سياسة. وقد خالجه الكثير من الامتنان له لمؤازرته أثناء أزمة السويس. ويكتب هيكل ليقول إن عبد الناصر كان فى البداية معجبا بالرئيس كينيدى لكنه أضمر من البداية «مقتا غريزيا» للرئيس جونسون. عندما كان عبد الناصر يهم بالتعامل مع أى رئيس، كان يدرس مجموعة من صوره فى محاولة منه لتقييم شخصيته. استبدت الصدمة والنفور بعبد الناصر من صور جونسون بما فيها الصورة الشهيرة للندون جونسون وهو يظهر ندبة على بطنه. صورة اعتقد عبد الناصر أنها دليل على «وقاحته وانعدام حساسيته».

استولى على عبد الناصر افتتان دائم بأزمة قناة السويس عام ١٩٥٦. كتب هيكل أن عبد الناصر «كان يقضى ساعات مع أشخاص بإمكانهم إطلاعه على أى شيء عنها. كما قرأ كل كتاب صدر حولها». يحكى هيكل أنه عندما كان إيدن يهم بنشر كتابه دائرة مكتملة، وجه عبد الناصر أوامر إلى المخابرات بضرورة الحصول على نسخة مقدما بأى ثمن. وعليه دفع أحد عملاء المخابرات المصرية مبلغا كبيرا لنيل نسخة أولية. إنجاز صعب وإن لم يكن له تلك الأهمية لأن الناشرين أرسلوا نسخة منه للرئيس بعد أسبوع. وهكذا تشغل أزمة السويس، من خلال فصول دالاس وإيدن، المحور الرئيسى لكتاب وثائق القاهرة، والحق أن ميزة مجلد هيكل الكبرى هى أنها أول وصف مصرى موثوق لسلسلة أحداث أفضت إلى تأميم شركة القناة. وبينما روى هيكل أجزاء من القصة من قبل فى سلسلة مقالات بجريدة الأهرام من عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٦٧، سوف يلقى القارئ هنا أخيرا نسخة كاملة لا يعوزها الترابط المنطقى والمعقولية من عبد الناصر نفسه لصفقة الأسلحة التشيكية ومفاوضات أسوان والاستيلاء على القناة. وعلى الرغم من أن دارسى الأزمة لن يجدوا الكثير من الجديد، إلا أنه يبقى من الضرورى أن يتمرغوا على رؤية هيكل الذى يشدد بقوة على أنها فى جوهرها حالة صدام بين عبد الناصر وإيدن. كانت مواجهة بين اثنين يمثلان أسلوبين معاديين فى الحياة، مواجهة كانت شخصية وقومية فى ذات الوقت، مواجهة انتهت إلى مأساة.

يشعرك كتاب هيكل وثائق القاهرة بالمتعة وسعة الاطلاع. بيد أن الكاتب يعترف بكل صراحة بأن تلك ليست القصة الكاملة لحكم عبد الناصر المثير للجدل مشيراً إلى أسباب تخص «الأمن القومى». لكنه يعد القراء بمعالجة الثغرات الخاصة بأصول حرب اليوم السادس فى كتاب آخر. وفى التحليل الأخير لا بد إذن أن ننظر إلى كتاب هيكل، كما يقول إدوارد آر. إف. شيهان فى مقدمته القيمة، على حقيقته: لوحة لعبد الناصر وعالمه بعيون مصرية، مروية بصوت عربى - لكن بتحفظ وليس بإفراط. ■



ملف خاص

هيكل عُمر من الكتب

يرسل الأستاذ تنهيدة، حين يتذكر عمالقة الماضي؛ فباستطاعة جمال عبد الناصر رئيس مصر الراحل والملك السعودي الراحل فيصل السمو فوق الحدود

أوهام النصر*

MOHAMED HEIKAL

ILLUSIONS OF TRIUMPH

AN ARAB VIEW OF THE GULF WAR

■ يقدم هذا الكتاب وجهة نظر عربية لحرب الخليج. بأسلوبه المميز يشرح محمد حسنين هيكل الصحفي حسن الاطلاع، كيف أخفق القادة العرب إخفاقاً بائساً في الحيلولة دون اندلاعها. فلو لدى أي شخص المعرفة الكافية والاستعداد للمجاهرة بما يقوله هؤلاء الملوك والشيوخ والرؤساء لبعضهم البعض في جلسات مؤتمرات قمة عديمة الجدوى لا تعد ولا تحصى فهو هيكل. الصحفي المصري الذي كان في يوم من الأيام صديقاً لجمال عبد الناصر ولا يزال مصدراً مهما للكشف عن ثرثرة عربية تجري على أعلى مستويات القيادة.

يؤكد الأستاذ هيكل ان عقد مؤتمرات القمة هو جزء من المشكلة. إذ استخدمها القادة العرب كبديل للسياسة الحقيقية وهي «مثلها مثل سيارة ترابانت، تنتج ضوضاء وهواء ساخناً لكن لا يند عنها إلا حركة بليدة أشد البلادة». كان من الممكن إنقاذ الموقف خلال الأشهر الثلاثة السابقة على غزو العراق للكويت في أغسطس ١٩٩٠. فقد كانت العراق تبتز الكويت للحصول على الأموال؛ على حين كانت الكويت ترفض الحلول الوسطى. بينما وقف قادة الدول العربية يشاهدون مجريات الأحداث وكأنهم متصرجون ليس إلا

يرسل الأستاذ تنهيدة، كما ينبغي له، حين يتذكر عمالقة الماضي: فباستطاعة جمال عبد الناصر رئيس مصر الراحل والملك السعودي الراحل فيصل السمو فوق الحدود. وهنا يوحي هيكل بأن خليفتيهما لا جدوى منهما، فهما يحدثان جلبة لا داعي لها حول اهتماماتهما الخاصة. إن الملك حسين ملك الأردن - فيما أقدم عليه من مساع متفردة لم تنل الكثير من التقدير لإيجاد وسيلة لتفادي الحرب - هو أقرب مثال لصورة البطل في نظر هيكل.

تتراوح مواقف الباقين ما بين الإفراط في الحذر (وفقاً لدبلوماسيين غربيين فإن حل شفرة التعليقات السعودية أشبه بالإمساك بمرآة أمام سراب). والإغراق في الخطابات الطنانة (قرر الرئيس الليبي معمر القذافي منذ مرحلة مبكرة أن واشنطون وبغداد متحالفان معاً في السر). لقد أخطأت الحسابات العربية، قبل وبعد الغزو. إذ ظنت معظم الحكومات العربية أن العراق تحاول الحصول على مبتغاها بالتهديدات الفارغة. أما العراق فقد بخست من جانبها تقدير ما نجم عن الغزو من غضب.

فكر الرئيس المصري محمد حسني مبارك بالأساس في إبقاء بلاده في صف الرابحين - والتخلص، كما فعل، من ديون خارجية شلت اقتصاد دولته. غير أن المصريين كانوا يعلمون من خلال خبرتهم المباشرة أن قوة العراق مبالغ فيها. إذ كان الضباط المصريون يوجهون النصائح إلى الجيش العراقي حتى شهرين من بداية الغزو.

يخفف الأستاذ هيكل من وقع القصة الحزينة بدمج شرائح من التاريخ والتحليلات. وتكمن قوة سرده فيما يقص من نوادر. تناول أفراد الأسرة الملكية السعودية في الليلة السابقة على الغزو ٥٠٠ كيلو من محار شحنته إليهم الطائرة من جزر أوركني. مرق وزير الخارجية الكويتي خارجاً من أحد اجتماعاته مع وزير الخارجية العراقي فارتطم بباب زجاجي لتتلطخ عباءته بالدماء. تم إرسال طائرة معبأة بالجنود من جمهورية أفريقيا الوسطى إلى الحرب ظناً بأن أمريكا توزع المعونات لمن حاربوا «ونحن أيضاً نريد بعضاً منها».

ينهي الأستاذ إلى القراء كيف أوضح الاتحاد السوفيتي - وكان على وشك أن يصبح «الاتحاد السوفيتي السابق» - لأصدقائه السابقين في العالم العربي أنه لا يمكنه فعل شيء من أجلهم: «لم نعد نلعب تلك اللعبة»، هكذا أبلغ ميخائيل جورباتشوف الرئيس السوري حافظ الأسد. لا عجب في موقفهم، كما يوحي الأستاذ هيكل، مع الوضع في الاعتبار جحود تلاميذ موسكو الذين اتجه ولاء أغلبهم إلى الولايات المتحدة بمجرد أن واتتهم الفرصة. وفي واحدة من قصص هيكل يروي كيف أخبر الاتحاد السوفيتي مصر ذات مرة بأن تقنع السعوديين بمنح الروس بعض الأموال على سبيل الشكر اللطيف. حسناً، هكذا أتى الرد - حين اتضح أن طريقة المملكة العربية السعودية في توجيه الشكر ما هي إلا تشييد ٥٠٠ مسجد في جمهوريات آسيا الوسطى. ■

Illusions of Triumph: An Arab View of the Gulf War.

أوهام النصر: وجهة نظر عربية لحرب الخليج

By Mohamed Hassanein Heikal

* The Economist (US) May 9, 1992



لا أعرف أهو تحيز رجل لما ألف وعرف، أو أنه حكم في الموضوع بصرف النظر عن متغيرات العصور لكنى على شبه اقتناع بأن الكتاب المطبوع على ورق له العمر الطويل، وأنه الحاضر على الدوام، مهما اشتد من حوله الزحام.

بمعنى أن الكلمة المكتوبة على الورق باقية، والكلمة المسموعة على الإذاعة والتليفزيون عابرة، والكلمة المكهرية على الكمبيوتر فوارة وهى مثل كل فوران متلاشية.

أى أن الكلمة المكتوبة على الورق بناء صلب: حجر أو معدن، وهكذا كل بناء، وأما غيرها فهو صيحة متغيرة - خاطفة، ولامعة، وبارقة.

وبالنسبة لكاتب - على الورق وبالحبر - فإن كتابته هى بناء عمره، وهكذا فإن هذه المجموعة فى نهاية المطاف: عمر من الكتب!

محمد حسنين هيكل



إيران فوق بركان
مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٥١

هذا هو أول كتاب أصدره هيكل فى حياته، وهو حصيلة رحلة قام بها إلى إيران حين كان يعمل مراسلاً متجولاً لمؤسسة أخبار اليوم، وفيه يكشف عن علاقات القوى فى إيران، متنبئاً بما صارت إليه الأحوال بعد ذلك بسنوات قلائل.

■ ■ ■

العقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط
الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٨، ١٦٦ صفحة

مجموعة من الصور القلمية كتبها هيكل عن الأحداث السياسية فى منطقة الشرق الأوسط كما رآها فى مطلع عام ١٩٥٨، وهو يحاول على طريقة المحلل النفسى أن يشخص أمراض المنطقة والهواجس التى تتحكم فى زعاماتها، يكتب عن لبنان أو عقدة الذنب، جون فوستر دالاس أو مجموعة عقد فى رجل الولايات المتحدة الأمريكية أو مجموعة عقد فى سياسة دولة، عزلة مصر أو جمعية ضحايا دالاس فى الشرق الأوسط، عقد الاضطهاد أو هرقل والعروش الهاشمية، عقدة أوديب أو بريطانيا التى كانت عظمى، عقدة الخوف أو دور روسيا فى هذا العقد.

■ ■ ■

أزمة المثقفين
الشركة العربية المتحدة، ١٩٦١ ، ١٦٢ صفحة

شغل الرأى العام فى مصر بمناقشة امتدت ثلاثة شهور ما بين مايو ويوليو سنة ١٩٦١، وتنوعت الآراء إلى حد التضاد والتناقض، وامتدت المناقشة على مساحات صفحات فى جريدة الأهرام، وبزغت على السطح سجالات عن أهل الثقة وأهل الخبرة، ودور المثقفين فى التغيير فى هذه المرحلة الانعطافية من تاريخ مصر، ولم يشأ هيكل أن يتناول فى مداخلاته أزمة المثقفين بمعزل عن قضايا مصر الداخلية، وهكذا جاء حديثه عن أزمة المثقفين متشابكاً مع أزمة الوطن ومشكلاته.

■ ■ ■

ما الذى جرى فى سوريا؟
الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٢، ١٩٨ صفحة

تمثل هذه المقالات تفاعلاً تلقائياً مع المشهد العنيف الذى شهدته دمشق فجر ٢٨ سبتمبر ١٩٦١.

يقدم هيكل هنا رؤيته كصحافى عاصر التطورات فى تجربة الوحدة المصرية السورية عن قرب، وأبدى فيها آراء تحتمل الصواب والخطأ، ولهذا تأتى روايته لما جرى رؤية مراقب ومتابع يقدم شهادته للتاريخ لتجربة الوحدة والانفصال.

■ ■ ■

خبايا السويس
دار العصر الحديث، ١٥٨ صفحة

تعليق على دراسة كتبها المؤرخ البريطانى الشهير هيوتوماس بتكليف من جريدة «الصنداى تيمز»، وقد نشرت الدراسة بالعربية فى مصر بعد ذلك باتفاق بين الأستاذ هيكل ورئيس تحرير الصنداى تيمز آنذاك دنيس هاملتون، وحينما صارت متاحة لقراء العربية كتب عليها هيكل تعليقاته.

ودراسة توماس تجلو كثيرا من خبايا أزمة السويس التى أحاطت بها كثيرا من المشاعر المكبوتة والقابلة للانفجار - آنذاك - فى العاصمة البريطانية لندن.

■ ■ ■

الاستعمار لعبته... الملك
دار العصر الحديث، ٢٦٣ صفحة

موضوع الكتاب هو المعركة الجديدة فى الحرب الممتدة بين القوى الثورية الوطنية والاجتماعية لحركة القومية العربية من ناحية، وبين حلف الاستعمار والرجعية من ناحية أخرى، ومحاولات القوى الرجعية التدثر بأردية عدة لتبرير أعمالها، وبينها الإسلام على سبيل المثال.

■ ■ ■

نحن وأمريكا
دار العصر الحديث، ١٩٦٧ ، ١٩٠ صفحة

هذا الكتاب بعض من قصة العلاقات المصرية الأمريكية خصوصاً فى مرحلة ما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، فعبر ثلاثة عشر فصلاً يحكى هيكل قصة العلاقات المصرية الأمريكية التى مرت بأربع مراحل أساسية:

١ - محاولة الولايات المتحدة ترويض الثورة المصرية.

٢ - محاولة الولايات المتحدة عقاب الثورة المصرية بعد أن تمردت على الترويض.

٣ - محاولة الولايات المتحدة احتواء الثورة المصرية وحصارها.

٤ - محاولة الولايات المتحدة استخدام العنف ضد الثورة المصرية.

■ ■ ■

عبد الناصر والعالم
بيروت: دار النهار، ١٩٧٢ ، ٤٧٥ صفحة

بين اختيارات متعددة، اختار هيكل أن يكتب عن عبدالناصر وعمالقة عصره، وقد نشر الكتاب أولاً بالإنجليزية ثم ترجمه بالعربية، ومن بين عمالقة عصر عبدالناصر الذين يربط هيكل بينهم وبينه - أى عبدالناصر - دالاس وإيدن وخروشوف وكينيدى وجونسون وتيتو ونهرو وشواين لاى وجيفارا.

■ ■ ■

أحاديث فى آسيا
بيروت: دار المعارف، ١٩٧٣ ، ٤٢٠ صفحة

مجموعة من الحوارات أجريت فى بداية عام ١٩٧٣ مع مجموعة من القادة والزعماء الآسيويين فى وقت كانت أحداث هذه القارة تشغل الصفحات الأولى من صحف العالم.

وحوارات مع الزعيم شواين لاى رئيس وزراء الصين، وتاناكا رئيس وزراء اليابان، والشيخ مجيب الرحمن رئيس وزراء الهند، وذو الفقار على بوتو رئيس جمهورية باكستان، والأمير سيهانوك الذى كان يقود كفاح شعبه من منفاه بالصين، والسيدة أنديرا غاندى رئيسة وزراء الصين، وعشرات غيرهم من وزراء الخارجية والدفاع والتخطيط وقادة الجيوش وأساتذة الجامعات والصحفيين، مما يقدم صورة كاملة عن الأوضاع فى آسيا فى تلك السنوات المهمة.

■ ■ ■

الطريق إلى رمضان
بيروت: دار النهار، ١٩٧٥

صدرت الطبعة الأمريكية لهذا الكتاب قبل العربية بسنوات، وفيه يروى

عـمــر من الكتب

هيكل قصة حرب اكتوبر ١٩٧٣، بادئا من سنوات مهدت لها وبشرت باندلاع شرارتها، وعبر لقاءات مع قادة وزعماء عرب، يكشف عن أدوار لعبوها لإعداد مسرح العمليات، وكيف كان دور القوى العظمى فى هذا الصراع.

■ ■ ■

لمصر لا لعبد الناصر
مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٧، ١٦٦ صفحة

شهد منتصف السبعينيات ولشهور طويلة حملة هجوم ظالمة ضد شخص الرئيس عبدالناصر وما كان يمثله من سياسات ومثلت أحاديث هيكل تلك، والتى نشرت بالعربية أولاً خارج مصر، رداً على هذه الحملة الظالمة. يقول هيكل فى مقدمة الطبعة العربية: «لم يكن هدفى أن أرد أو أدافع أو أسجل للتاريخ، فذلك كله لم يجئ أوانه بعد، وإنما كان هدفى أن يعرف الشعب فى مصر، وتعرف شعوب الأمة العربية، أن الحقيقة ليست ما يدعى به اليوم فيما يقال أو ينشر فى القاهرة.

■ ■ ■

قصة السويس
شركة المطبوعات للتوزيع و لنشر ١٩٧٧، ٣٠٤ صفحات

كتب هيكل هذا الكتاب فى مناسبة مرور عشرين سنة على حرب السويس التى جرت يومياتها من يوليو إلى ديسمبر ١٩٥٦، وبعد انتهاء هذه الحرب التى يعد هيكل الانتصار فيها هو أكمل انتصار فى تاريخ العرب الحديث، حيث كانت قناة السويس وصحراء سيناء وقطاع غزة فى يد مصر، وبرأيه أيضاً فقد كانت حرب السويس تجربة هائلة من تجارب العمل القومى والعربى وقدرته.

■ ■ ■

الحل والحرب
القاهرة. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٧٧ ، ٢٢٢ صفحة

مجموعة من المقالات كتبها هيكل فى الفترة من بدايات ٧٦، وبدايات ٧٧، وهى تنقسم إلى أربع مجموعات: الأولى مقالات تحت عنوان «إلى أين من هنا؟»، والثانية مقالتان عن الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر تحت عنوان «كارتر واولياته»، ثم «كارتر وأزمة الشرق الأوسط»، والثالثة ٦ مقالات تحت عنوان «عالم بغير هنرى كيسنجر» وقت أن كان وزير الخارجية الأمريكى الأشهر يستعد لمغادرة موقعه. والرابعة مجموعة من ٦ مقالات عن الموقف التفاوضى العربى، وقد كتبت فى فبراير ٧٧، فى وقت اشتد فيه الجدل حول مؤتمر جنيف.

■ ■ ■

حديث المبادرة
شركة المطبوعات للتوزيع، ط ٨ ، ١٩٨٧، ٢٨٧ صفحة

يضم الكتاب مجموعة وجهات النظر التى أسهم بها الكاتب فى الحوار العام الذى احتدم حول زيارة الرئيس السادات لإسرائيل فى نوفمبر ١٩٧٧، ومن بينها هذه العناوين: العرب بين القبول والرفض والصمت، أمريكا بين غير المقبول وغير المحتمل، الاتحاد السوفيتى أفكاره ومشاعره، بن جوريون: ليس هناك حل.. الأرض واحدة وطالب الأرض اثنان، مناحم بيجن: إسرائيل وأرض إسرائيل شىء واحد.

■ ■ ■

حكاية العرب والسوفييت
شركة الخليج للنشر، ١٩٧٨

أسباب مختلفة، لعب السوفييت دوراً مهماً فى منطقة الشرق الأوسط، وارتبطوا بسياساتها لعقدين تقريباً، وبحكم عمله، وبعمق صلاته وصداقاته على الجانبين، يروى هيكل قصة هذه العلاقة بين العرب والسوفييت، وخصوصاً مصر والسوفييت، فى أفضل المراحل وأسوئها.

■ ■ ■

وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى
بيروت: شركة المطبوعات، ط ٧ ، ١٩٨٥، ٣٢٠ صفحة

فى صيف ١٩٧٨، استدعى المدعى الاشتراكى فى مصر هيكل لتحقيق طويل استغرق ثلاثة شهور كاملة هى يونيو ويوليو وأغسطس، وكانت التهمة هى أن هيكل كتب خارج مصر وأساء إلى سمعتها، وقد سحب جواز سفره ومنع من مغادرة البلاد لحين انتهاء التحقيق حتى أبلغ رسمياً بأن قرار المنع من السفر لم يعد له وجود.

هذا الكتاب يحكى وقائع وملابسات هذا التحقيق.

■ ■ ■

السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة
شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ط ٥، ١٩٨٦ ، ٣٢٥ صفحة

مقالات تأخذ شكل الرسائل إلى صديق ما هناك، هذه الـ «هناك» نقطة على خط طويل يمتد بين محيط وخليج، والرسائل تبحث فيما آل إليه حال الخليج الثائر وما جرى للمحيط الهادئ، والرسائل تنظم فى جزءين: أولهما عن السلام المستحيل بين العرب وإسرائيل، ثانيهما عن الديمقراطية الضائعة، وتحت هذين العنوانين الكبيرين مقالات عديدة تبحث فى حال الأمة وأزمتها.

■ ■ ■

آفاق الثمانينيات
شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ١٩٨١، ١١٢ صفحة

كتبت هذه المقالات فى خريف ١٩٧٩، ونشرت فى نهاية السنة نفسها وفى الأسابيع الأولى من الثمانينيات، وهى حصاد رحلة إلى أوروبا شمالاً وجنوباً، ثم إلى أمريكا شرقاً وغرباً، والمفارقة أن هيكل ذهب إلى هناك كى يكتب، مستعيناً بالوثائق والمستندات، عن الشرق وقضاياه، مستشرفاً آفاق عقد قادم، متفائلاً بجيل عربى جديد قادر على الوثوب فوق أسباب عديدة تدعو للتشاؤم، لمت جيلاً انتصر، لكنه تصرف كأنه مهزوم.

■ ■ ■

مدافع آية الله
دار الشروق، ١٩٨٢ ، ٢٧٣ صفحة

نشر الكتاب فى الأصل باللغة الإنجليزية قبل أن يترجم إلى العربية بعدها بسنوات قلائل.

وقد نشر هيكل كتابه الأول «إيران فوق بركان» عام ١٩٥١، وظل يتابع الأحداث فى إيران باهتمام طيلة ثلاثين

عـمــــر من الكتب

عاماً تقريباً حتى أصدر كتابه هذا الذى يروى قصة الثورة الإسلامية فى إيران: مقدماتها ومجرياتها وانعطافاتها المهمة، عبر حوارات مطولة مع كافة الأطراف، من الإمام الخمينى نفسه إلى معارضيه إلى أركان نظامه، وحتى هؤلاء الطلبة الذين احتلوا السفارة الأمريكية، فى تحد دال لأقوى دولة فى العالم.

■ ■ ■

عند مفترق الطرق
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٢، ٤٠٨ صفحات

كانت هذه المقالات هى مفترق الطرق بين الرئيس الراحل أنور السادات وهيكل، بعد سنوات قلائل كان خلالها من أقرب المقربين له؛ وهى تمثل المقالات الأخيرة التى نشرت لهيكل فى الأهرام فى الفترة من ٥ أكتوبر ـ أى قبل الحرب بيوم واحد ـ وحتى أول فبراير ١٩٧٣، وبعدها صار مبعداً عن السلطة ومقصى عنها.

تروى هذه المقالات قصة الخلاف وترسم حدوده، وتشير إلى دوافعه. وهى قصة تستحق أن تروى وتستأهل الإنصات.

■ ■ ■

خريف الغضب
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط ١١، ١٩٨٥ ، ٥٧١ صفحة

يروى هذا الكتاب قصة بداية ونهاية عصر السادات، بدءاً من دوره داخل تنظيم الضباط الأحرار، وانتهاء بحادث المنصة الشهير الذى أودى بحياته فى عيد احتفاله بالنصر، وبالزى العسكرى الذى كان يروق له أن يرتديه فى هذه المناسبة.

■ ■ ■

بين الصحافة والسياسة
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٥

كتب هيكل هذه الصفحات عام ١٩٨٤، وفيها يروى قصته مع الصحافة، كيف دخل إلى هذا العالم، وكيف ارتقى فيه إلى الذروة منذ شبابه المبكر؛ كيف التقى بعبدالناصر واقترب منه كصحفى ثم كصديق حتى نهاية حياته، وأين كانت النقلات وكيف، فى حياته المهنية والسياسية معاً، سيرة ذاتية تتوقف عند تاريخ بعينه، لكنها ترسم حياة حافلة بالكفاح والجهد والعطاء.

■ ■ ■

زيارة جديدة للتاريخ
ط ٢ ، ١٩٨٥ ، ٤٤٩ صفحة

سبع شخصيات اختار هيكل أن يعاود معها زيارته للتاريخ. وقد جاء اختياره لهم لارتباط أدوارهم التاريخية بعدد من القضايا الكبيرة التى شغلته وقت كتابة صفحات الكتاب بينها قضايا الديمقراطية والحرب والسلام واحتمالات الحرب النووية. يتضمن الكتاب حوارات مع ملك إسبانيا خوان كارلوس، الزعيم السوفيتى أندروبوف، والقائد الإنجليزى الذى انتصر فى العلمين مونتجمرى، والعالم الفيزيائى الشهير اينشتين، والزعيم الهندى جواهر لأل نهرو، والإمبراطور الإيرانى محمد رضا والمليونير الأشهر دافيد روكفلر

■ ■ ■

أحاديث فى العاصفة
د ر الشروق، ١٩٨٧ ، ٦٩١ صفحة

مجموعة من الأحاديث الصحافية التى أجرتها صحف عربية وأجنبية مع هيكل ونشرت خارج مصر، فى وقت لم يكن مسموحاً له أن ينشر عنه داخلها. وتناولت الحوارات على اختلاف المنابر التى نشرت بها قضايا شائكة ومهمة بينها: أصل خلافى مع السادات، أين مصلحة مصر، عمق حادث المنصة، لماذا اختار عبدالناصر السادات نائباً له، قصة طرد الخبراء السوفييت من مصر، السياسة خذلت السلاح فى حرب أكتوبر، قصة عرفات مع عبدالناصر والسادات، لا أراهن على تسوية شاملة للقضية الفلسطينية.

■ ■ ■

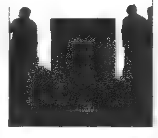
سنوات الغليان
الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨ ، ٩٥١ صفحة

هذا هو الجزء الثانى من مجموعة حرب الثلاثين سنة بعد ملفات السويس، وفيه يتعرض هيكل لمعركة سيناء ١٩٦٧، ولكن فى هذا الجزء الأول من الكتاب (قبل الانفجار) يعرض هيكل للمقدمات، أى يمد الجسور إلى ساحة المعركة قبل











حرب الأيام الستة فى يونيو ١٩٦٧، كيف صارت الأمور فى البيئة الإقليمية العربية، كيف صارت فى مصر، كيف تفاعل الطرفان مع محيطهما ليقودا فى نهاية المطاف إلى حرب الأيام الستة (الانفجار).

■ ■ ■

حرب الثلاثين سنة (١٩٦٧ الانفجار)
مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠ ١٠٨٩ صفحة

الجزء الثالث من مجموعة حرب الثلاثين سنة، سبقه جزءان هما: ملفات السويس، وسنوات الغليان، وهذا الجزء ينصب على المرحلة الدقيقة والحساسة من معركة سنة ٦٧. وبحسب الأستاذ هيكل فإن هذا الجزء هو أصعب فصول القصة وأشدها تعقيداً، وهى أكثرها استحقاقاً واستدعاء لتنشيط الذاكرة، «فهذه بالضبط لحظة الخبطة على الرأس».

■ ■ ■

الزلزال السوفيتى
دار الشروق، ١٩٩٠ ، ١٢٧ صفحة

مجموعة من التقارير عن زيارة قام بها هيكل إلى الاتحاد السوفيتى فى لحظة فارقة من حياته، وأثناء عملية تاريخية هائلة، امتدت آثارها إلى أوروبا الشرقية فالغربية ثم العالم كله.

وما يؤكد عليه هيكل هنا هو أن هذه المشاهد التى بدت «خرافية» لم تهبط من السماء فجأة، فالتحولات الكبرى فى التاريخ لا تحدث بأسلوب الانقضاض من الهواء على غير انتظار، وإنما تحدث بقوانين التطور ذاتها.

إن ما يجرى الآن فى الاتحاد السوفيتى ـ بحسب ما كتب هيكل وقتها ـ هو قصة لازالت فى بدايتها، وفى الغالب فإن بداية أى قصة تختلف عن نهايتها.

■ ■ ■

أكتوبر ١٩٧٣ ... السلاح والسياسة
مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٣، ٨٨٣ صفحة

هذا هو الجزء الرابع من مجموعة حرب الثلاثين سنة، فهو يركز على معركة أكتوبر، ويعتبرها عملاً عسكرياً باهراً لكنه يميز بين الحرب والقتال، فالحرب

عُمـــر من الكتب

صراع سياسى بكل وسائل القوة، فى حين أن القتال مرحلة معينة من الحرب يكون فيها الاحتكام إلى السلاح، وهيكل هنا شاهد يطرح أدلته وبراهينه، فقد كان قريباً من السادات فى معركة أكتوبر ٧٣ كما كان قريباً من قبل من عبدالناصر فى معركتى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .

■ ■ ■

اتفاق غزة أريحا أولاً: السلام المعاصر بين حقائق اللحظة وحقائق التاريخ
معهد الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤ ، ٤٠ صفحة

قراءة فى اتفاقية غزة أريحا، وفى الظروف والأسباب الموضوعية التى قادت إليها، يعتقد هيكل أن الصراع العربى الإسرائيلى هنا يمر بما يسميه «المرحلة الإسرائيلية»، إلا أن حقائق الجغرافيا والتاريخ سوف تعود لتفرض نفسها من جديد.

■ ■ ■

مصر والقرن الواحد والعشرون
دار الشروق، ١٩٩٤ ، ٥٥ صفحة

ورقة بحثية ساهم بها هيكل فى المؤتمر الثلاثين لجماعة خريجى المعهد القومى للإدارة العليا الذى عقد بالإسكندرية فى أكتوبر ١٩٩٤ .

■ ■ ■

أزمة العرب ومستقبلهم
دار الشروق، ١٩٩٥ ، ٦٣ صفحة

محاضرة ألقاها هيكل فى باريس يوم ٧ ديسمبر سنة ٩٥ بقاعة المؤتمرات بمتحف جيميه. وبقدر ما تنطوى عليه المحاضرة من تحليل ورصد دقيق للواقع العربى وأزمته على محيطه العالمى، بقدر ما ترفض الاستسلام لأصحاب مقولات الواقعية السياسية الداعية إلى الرضوخ الكامل، بحجة عدم القدرة على المقاومة.

■ ■ ■

١٩٩٥ باب مصر إلى القرن الواحد والعشرين
دار الشروق، ١٩٩٥ ، ٤٠ صفحة

محاضرة ألقاها هيكل على رواد معرض القاهرة الدولى للكتاب فى يناير ١٩٩٥. وطرح فيها تصوره عن أن سنة ١٩٩٥ ستكون سنة فارقة، بل هى مدخل مصر إلى القرن الواحد والعشرين.

■ ■ ■

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل (الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية) الكتاب الأول
دار الشروق، ١٩٩٦ ، ٣١٠ صفحات

هذا الكتاب محاولة واسعة للرد على سؤال من بين الأسئلة التى أحاطت بالصراع العربى الإسرائيلى منذ بداياته، والسؤال هو: لماذا كانت الحرب قريبة وظل السلام بعيداً طوال قرنه من الأمان؟ ولماذا جاء السلام فى هذه الظروف وبهذا الشكل وبهذه الوسائل؟ ولماذا كان يجب أن تكون المحاولات من أجل السلام فى الخفاء. وفى هذا الجزء بالذات، ومحاولة لقراءة تاريخ الاتصالات بين العرب وإسرائيل من قبل إنشاء الدولة اليهودية وأثناء الإعداد لنشأتها وبعده بقليل.

■ ■ ■

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ـ عواصف الحرب وعواصف السلام (الكتاب الثانى)
دار الشروق، ١٩٩٦ ، ٤٦٢ صفحة

فى هذا الجزء يتابع هيكل الحوادث، بعدما توقف الجزء الأول عند تصوير الخلفية التى قام عليها الصراع العربى الإسرائيلى بما فى ذلك محاولات الاتصال والتفاوض.

هذا الجزء يسعى للإجابة عن سؤالين مهمين:

لماذا لم يفاوض جمال عبدالناصر؟

كيف فاوض أنور السادات؟

■ ■ ■

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل
أوسلو ـ ما قبلها وما بعدها (الكتاب الثالث)
دار الشروق، ١٩٩٦ ، ٤٦٥ صفحة

هذا الجزء يركز بالدرجة الأولى على الدور الذى قام به الفلسطينيون فى التفاوض بأنفسهم ولأنفسهم، وهو يمسك بخيوط الدور الفلسطينى من أوله إلى آخره عبر محطات تتباعد المسافات بينها على خريطة العالم: القاهرة، عمان، بيروت، طهران، جنيف، ستكهولم، أوسلو، واشنطن وغزة.. وهى تسعى إلى الإجابة عن أسئلة أخرى من نوع آخر: كيف وقع التغيير؟ ومتى وقع؟ ولماذا وقع، ومن الذى تغير؟ ثم ما الذى تغير؟ والأهم: ما الذى بقى؟

■ ■ ■

المقالات اليابانية
دار الشروق: ١٩٩٧ ، ٢٢٥ صفحة

مجموعة من المقالات نشرها هيكل فى جريدة «يوميورى شيمبون» اليابانية ضمن باب ثابت يحمل عنوان «نظرات على العالم»، تناول فيه موضوعات وقضايا ساخنة شغلت العالم فى حينها.

■ ■ ■

العروش والجيوش.. كذلك انفجر الصراع فى فلسطين (الجزء الأول)
دار الشروق: ١٩٩٨ ، ٤٥٨ صفحة

يمثل هذا الكتاب بما يضمه من وثائق يوميات الحرب، شهادة تاريخية عن تلك الأيام التى شهدت قيام الدولة اليهودية على أرض فلسطين فى مايو ١٩٤٨، وقد عاش هيكل تجربتها شاباً مراسلاً متجولاً لجريدة أخبار اليوم فى مناطق ملتهبة من العالم بينها فلسطين التى عاش يوميات الحرب فيها وكتب عنها مجموعة تحقيقات بعنوان «النار فوق الأرض المقدسة».

يضم هذا الجزء رسائل ويوميات الحرب حتى أكتوبر ١٩٤٨ وثلاث شهادات وثائقية للحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين وعبدالرحمن عزام أول أمين عام لجامعة الدول العربية، واللواء أحمد محمد المواوى القائد العام للقوات المصرية فى فلسطين.

■ ■ ■

الخليج العربى مكشوف
دار الشروق ١٩٩٨ ، ٣٨ صفحة

نص محاضرة ألقاها هيكل فى بيروت حتى السابع والعشرين من شهر يونيو ١٩٩٨ بدعوة من نقابة المحامين فى لبنان.

■ ■ ■

حرب من نوع جديد
دار الشروق: ١٩٩٩ ، ٥١ صفحة

محاضرة ألقاها هيكل في مناسبة تكريم لجنة «جائزة جمال عبدالناصر» له ومنحه جائزتها التقديرية في دورتها الأولى ١٩٩٩ .

■ ■ ■

العروش والجيوش.. أزمة العروش.. صدمة الجيوش
دار الشروق: ٢٠٠٠ ، ٥٦٢ صفحة

ينتهي الجزء الأول من العروش والجيوش عند إشارة أخيرة وردت في ١٨ أكتوبر ١٩٤٨، تسجل بلاغًا عن غارات قامت بها الطائرات العسكرية الإسرائيلية على القصور الملكية في القاهرة، وهنا ـ بحسب ما يشير الأستاذ هيكل ـ يختلف الجزء الثاني عن الأول، فقد أصبحت مصر، هي النقطة الحرجة في هذا الصراع وليس فلسطين، وهو ما تثبته يوميات الحرب كما يوردها هيكل في نهاية ديسمبر ١٩٤٨ .

■ ■ ■

قضايا ورجال: وجهات نظر مع بداية القرن الواحد والعشرين
المصرية للنشر العربي والدولي: ٢٠٠٠، ٤٥١ صفحة

فصول الكتاب مقالات كتبها هيكل طوال سنة ١٩٩٩ وأوائل سنة ٢٠٠٠ عن قضايا ورجال، بطريقة مبتكرة جديدة على الصحافة العربية وهي طريقة المقال المستطرد المسترسل، والذي يقع في منطقة بين سرعة إيقاع المقال وسعة إحاطة الكتاب.

يكتب هيكل عنا عن كلينتون وبطرس غالي والملك الحسن والملك حسين والقذافي، كما يكتب عن بقايا يوغوسلافيا وعن مفاوضات سوريا وإسرائيل.

■ ■ ■

نهاية طرق: العربي التائه
المصرية للنشر العربي والدولي، ٢٠٠١، ٢٩٠ صفحة

في قرن سبق، وجد اليهودي التائه لنفسه مكانًا حط فيه رحله وحصّن موقعه، فيما اختلطت على العربي الأمور وبدا كأنه ضيّع عالمه وفيه تراثه ومستقبله، وارتحل بحاضره تائهاً بين الحقيقة والوهم.

ويبدأ القرن الحادي والعشرون، واليهودي الذي كان تائهاً صار متحصنًا في المشروع الصهيوني على أرض فلسطين، في حين أن العربي الذي كان راسخًا في الطبيعة والتاريخ، أصبح هو الشارد في التيه: وقد يعرف من أين، لكنه لا يعرف إلى أين؟

■ ■ ■

الزمن الأمريكي.. من نيويورك إلى كابول
المصرية للنشر العربي والدولي: ٢٠٠٢، ٣٠٢ صفحة

فصول هذا الكتاب عن الزمن الأمريكي، بمعنى نشأة الولايات المتحدة الأمريكية وصعودها الاقتصادي الباهر أواخر القرن التاسع عشر ثم عبورها إلى المحيط عائدة إلى العالم القديم، تفرض على الدنيا زمانها وفيه تقدمها وقوتها وهيمنتها.

وهكذا صار القرن العشرون قرناً أمريكياً، فهل ما تعيشه البشرية اليوم مع بدايات القرن الحادي والعشرين ينبئ بأن هذا القرن سيكون هو الآخر قرنًا أمريكيًا.

هذه قراءة للزمن الأمريكي" بحسب تعبير هيكل: قراءة بأبجدية المجهول على سماء غائمة.

■ ■ ■

سقوط نظام
دار الشروق: ٢٠٠٣، ٦٠٥ صفحات

يجيب الكتاب عن سؤال: هل كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ لازمة؟ عبر محاولة لقراءة التاريخ القريب تنبيهاً للوعي المصري والعربي من شوائب وظلال تتقصد أن تغطي على المستقبل حتى يرتبك ويتعثر.

وهو يبدأ من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ بوصفه المسرح الخلفي لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وينتهي بـ«ساعة سقوط الملكية في مصر».

■ ■ ■

The Cairo Documents" the Inside Story of Nasser and his Relationship with World Leaders" Rebels and Statesmen









وثائق القاهرة: القصة الداخلية لعبد الناصر وعلاقته بزعماء وثوار وساسة العالم
Doubleday, 1973, 360pp, $44.69

كان هيكل رئيسا لتحرير الأهرام عدة سنوات، وصديقاً وكاتما لأسرار الرئيس جمال عبد الناصر، وقد وضع كتابه «وثائق القاهرة، عبد الناصر على ساحة مسرح عالمي تصبح فيه قضايا عدم الانحياز في مثل أهمية توترات الشرق الأوسط. في الكتاب يعرض هيكل لقصة علاقة عبد الناصر بزعماء العالم في الخمسينيات والستينيات والتي تتسع دائرة الأصدقاء فيها لتشمل تيتو ونهرو وتشي جيفارا، أنتوني إيدن هو شرير الكتاب، أما الرئيس الأمريكي كيندي فهو يأتي بشيء تارة ونقيضه تارة أخرى.

الشخصيات الثانوية التي يتناولها الكتاب (سفراء وسياسيون خارج السلطة مثل الرئيس الأمريكي السابق نيكسون) تكمل تفاصيل القصة.

يضم كتاب وثائق القاهرة مقتطفات مطولة من رسائل دبلوماسية (لا بد أن علاقة عبد الناصر بالغرب استفادت من إجادته للغة الإنجليزية؛ وعلى العكس من ذلك، عانت اتصالاته بالحلفاء الروس الحاجة إلى مترجمين). تعطي تلك الرسائل القارئ إحساساً بطريقة تعامل زعماء العالم مع بعضهم البعض ـ رقصة تحفل بالدفع والوخز يصوغها كاتبوها بأكثر الألحان تحكماً. (المصدر: Amazon.com)

■ ■ ■

Secret Channels" the Inside Story of Arab - Israeli Peace Negotiations
قنوات سرية: قصة مفاوضات السلام العربية ـ الإسرائيلية
HarperCollins Pub Ltd, 1997
572pp. $80.69

اعتماداً على سنوات خبرته الطويلة كصحفي ومستشار للرئيس جمال عبد الناصر، يقدم هيكل رؤية مطلعة على أعوام من مفاوضات السلام السرية بين العرب والإسرائيليين دون أن تُجمل الصورة التي يرسمها أياً من الجانبين. يصب هيكل أعظم سخطه على زعماء عرب تسببت تصرفاتهم الخرقاء وجبنهم وخياناتهم الصريحة في سلام يرى هيكل أنه ضحى بالمصالح

عُمـــر من الكتب

الفلسطينية في مقابل تنازلات إسرائيلية لا معنى لها. يتلقى الرئيس السادات على نحو خاص الجانب الأكبر من غضب هيكل ليظهر كرجل «مسرحي» مختال نرجسي يسهل التلاعب به. على حين يقدم هيكل نقداً لعملية السلام في السنوات الأخيرة بدون أن يبرز إسرائيل أو الإسرائيليين في صورة شياطين.

يتفحص هيكل تاريخ مفاوضات الشرق الأوسط الخفية ويلقي الضوء على مواقف عربية كثيراً ما لاحت محيرة للعالم الخارجي. لماذا شجع الرئيس عبد الناصر، أعظم زعماء القومية العربية، الملك حسين ملك الأردن سراً على التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل؟ ما هو السر في قرار ياسر عرفات دعم صدام حسين بعد غزو الكويت؟ لماذا رضي عرفات ببنود اتفاقية مع إسرائيل عام ١٩٩٣ لم تكن بأفضل مما عُرض عليه في سنوات عديدة سابقة؟ ولماذا صمم المقاتلون الإسلاميون على تحطيم الاتفاقية؟ إن إجابات هيكل لا تقل هنا عن إجابات خبير حقيقي، خبير على صلة شخصية بأغلب القادة العرب، خبير انخرط أحياناً انخراطاً مباشراً في عملية صنع القرار.

يسبر هيكل بقلمه الهادئ وبتفصيل غالباً ما يصل إلى حد المثابرة الإخفاقات السياسية والأخلاقية للاعبين الأساسيين في ملعب الشرق الأوسط. وعليه فالكتاب «وصف مبهر يصف كيف سادت عقود من مفاوضات السلام السرية على الرغم من سياسة الإنكار العربي والإسرائيلي»، على حد قول جوديث ميلر من ذا نيو يورك تايمز بوك ريفيو. إن نص هيكل المفصل المبهر يسد فراغاً لا يستهان به في الكتابات القائمة حول الصراع العربي الإسرائيلي.

■ ■ ■

The Return of the Ayatollah the Iranian Revolution from Mossadeq to Khomeini

عودة آيات الله، الثورة الإيرانية من مصدق إلى الخميني

Andre Deutsch Ltd 1986
224pp. $84.44

ماذا جرى في إيران؟ ولماذا؟ يتمكن محمد حسنين هيكل في كتاب عودة آيات الله من إفهام القراء أحداث تفاقمت









لتؤدي إلى الثورة عام ١٩٧٩. إن هذا الكتاب ليس كتاباً دينياً وليس معادياً كلية للغرب. لا يتمحور حول العقيدة الإسلامية وتعاليمها بيد أنه يشرح جذور الإسلام لتصل الرسالة إلى القراء واضحة تمام الوضوح، رسالة تبين سبب تمكن آية الله من تحقيق ما حققه. من يرغب من متحدثي اللغة الإنجليزية في استيعاب ما وقع في إيران في العقد الثامن من القرن العشرين، عليه قراءة هذا الكتاب.

■ ■ ■

Cutting the Lion's Tail Suez through Egyptian Eyes

قطع ذيل الأسد، السويس بعيون مصرية

HarperCollins Publishers 1987
256pp. $67.50

لقد اعتبر الشرق الأوسط هيكل أكثر الصحفيين ثقة واطلاعاً مدة عقود طويلة. وهو في كتاب قطع ذيل الأسد يُلحق بذكرياته الشخصية تذكرة دخول نادرة إلى أوراق عبد الناصر الخاصة والأرشيف الرسمي المصري. ومع كتاب يذخر بوقائع تنشر لأول مرة ونوادر ساخرة النبرة، يلقي هيكل ضوءاً جديداً لا تنقصه الإثارة على أزمة السويس ليكشف أنها لم تكن مجرد لهاث أخير لإمبراطورية بريطانية تتقوض أركانها، بل خطوة لا غنى عنها رسخت بها الولايات المتحدة هيمنة لا شك فيها على العالم. يكتب هيكل ليقول إن «أزمة السويس خلفت العديد من الخاسرين واثنين من المنتصرين، ناصر وأمريكا». وهنا يصف هيكل خسوف قمر بريطانيا في الشرق الأوسط وبزوغ شمس الولايات المتحدة كبديل لها، عملية تمت «بسرعة تكاد تكون غير لائقة، بعد أن مثلت أزمة السويس عام ١٩٥٦ نقطة التحول فيها».

إن تلك الدراسة محاولة ضخمة لكشف الجانب القاهري من قصة غالباً ما تسردها وجهات نظر قادمة من لندن وباريس وواشنطون. وبوصفه منهمكاً عن قرب في تطور خيوط الأزمة، كرئيس تحرير جريدة الأهرام وصديق للرئيس جمال عبد الناصر، يتتبع هيكل ما خالج زعيم سحر الجماهير من شكوك ومشاورات وأفعال بدءاً من قراره الجريء الخطر بتأميم قناة السويس إلى انسحاب القوات من سيناء ودوره في حركة عدم الانحياز، ليشرح للقارئ من وجهة نظر عربية وقائع أدت إلى التمويل السوفيتي لبناء السد العالي، ويفسر مناورات دبلوماسية وسياسية وعسكرية أفضت إلى المواجهة بين القوات المصرية من جهة والقوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية من جهة أخرى.

■ ■ ■

Illusions of triumph - an Arab view of the Gulf war

HarperCollins Publishers Ltd, 1992, 350pp. $69.56

وجهة نظر عربية لحرب الخليج.

بأسلوبه حاد النبرة حسن الاطلاع، يشرح محمد حسنين هيكل، كيف أخفق القادة العرب إخفاقاً بائساً في الحيلولة دون اندلاعها. فلو لدى أي شخص المعرفة الكافية والاستعداد للمجاهرة بما يقوله هؤلاء الملوك والشيوخ والرؤساء لبعضهم البعض في غضون مؤتمرات قمة عديمة الجدوى لا تعد ولا تحصى فهو هيكل،الصحفي المصري الذي كان في يوم من الأيام صديقاً لجمال عبد الناصر ولا يزال مصدراً نادرا للكشف عن أسرار ثرثرة عربية تجري على أعلى مستويات القيادة.

■ ■ ■

The road to Ramadan" the inside story of how the Arabs prepared for and almost won the October war of 1973
Ballantine Books" 1976" $7.58

■ ■ ■

Sphinx & Commissar" the rise and fall of Soviet influence in the Middle East
Harper & Row" 1978" 304pp." $28.43

■ ■ ■

Autumn of fury" the assassination of Sadat
Random House" 1983" 290pp." $41.18

■ ■ ■